الرحيل إلى المجهول

يومياتي في السجون السورية

آرام كَرابيت

دفاتر السجون



الرحيـــــل إلى المجهـــــــول

كانت السماء ملبدة بالغيوم, الضباب المنبعث من سفوح الخابور يسرح فوق مروج السماء والأرض منذراً بموجة طويلة من البرد والعواصف. تقترب الألوان من بعضها لتتوحد في لون واحد مختلس, لون مسكون بالغم والحسرة وظلمة المجهول.

توقفت السيارة عند مبنى المحافظة في مدينة الحسكة. ترجل المساعد أبوعزيز مختالاً كالطاووس الفارغ, ممتلئ الاهداج كالديك الرومي المنفوش الريش. بقينا أنا ومحمد خيرمكبلين بالأصفاد.

تكومنا على بعضنا كالطرائد الجريحة الهاربة, نحتمي ببعضنا من قسوة وشرسة عدونا المملوء بالحقد والكره. كانت الذئاب, عناصرالأمن السري مستنفرة مستعدة لتلقي الإشارة القادمة كي تغوص في نهش ضلوعنا. في تلك اللحظات الأليمة كنت أحاول الهرب من هذ المكان. وزعت نظري وقلبي على محيط المكان, أجوب فيه, أحدق في الوجوه القادمة والغادية. كواكب من البشرتمربالقرب منا غيرمبالية. لا يلتفتون إلينا, غائصون في أحاديث جانبية, في شؤونهم الخاصة, غير عابئين بشيئ. لا ينظرون إلى السيارة ومن فيها. رصدت قسمات الناس في تلك الأونة, رأيتها غريبة, تنحو نحوالاغتراب. النفوس شاردة, منهكة, متعبة تمشي على غير هدى. ما أن يقتربون من مقدمة السيارة حتى يديرون وجوههم إلى مواضع آخرى. قفزت الأسئلة المختلسة إلى ذهني دون إرادة مني, لماذا لم أرَ من قبل هذه الملامح المسكونة بالهرب من زمنها, لماذا ينحون نحوالهم والشرود. وجوه ضاربة في البحث عن لا شيئ. كنت أتمنى أن أرى وجهاً يشيئ بلون الفرح أوالدمع. لم أرَوجه طفل, عصفور يغرد على شجرة, امرأة يقظة من فرح. كأن الحيوية والنشاط لم تكن في أجساد هذه الكتل المتحركة من قبل. قلت لنفسي الهاربة, هل كنت مثلهم من قبل؟ هل عشت في هذه المدينة من قبل؟ بين هؤلاء الناس المتحركة؟ أسئلة تواردت بقوة في ذاكرتي المتعبة, المستباحة إلى لون الضياع.

استيقظ قلبي من غفوته, راح يبحث بلهفة عن وجه حبيبتي الأبيض النقي, كبياض الشمس في يوم ربيعي ضاحك. أعلم أنني أقطع رحلة الوجع الطويلة, وفي تقاطيع نفسي هم محفز, وسؤال ملحاح, يكررذاتي: إنني لن أعود إلى بلدي في القريب العاجل من السنين, أما إذا عدت, فإن الزمن الأغبر سيحرث سكته العمياء في ذاكرتي ووجهي, في شراييني وقامتي ويبعدني مسافات طويلة عن زمني ليرميني في زمن آخر ومسافات مجهولة.

غطست في الوشوشات القادمة من بعيد, في زمن الدهشة والاستغراب. اضطربت وانتابني شعورعميق باليأس والألم, الخروج الفجائي من الزنزانة الضيقة, التحقيق, التعذيب النفسي والجسدي, أقدامي الموجوعة المتورمة, المحتقنة بالدم الأزرق المسود من الضرب بالخيزرانات. وجهي معفروجسدي لم يغتسل, لحيتي كثة, وانقطاع سديمي طويل عن العالم الخارجي.

لحظة انقسام اللحظة على بعضها, أحدهما يطوي جناحيه ويرحل إلى الماضي والآخريرفرف بعيداً إلى مستقبل غامض ومجهول, لحظة متناقضة, وداع ورحيل. هذه الدقائق القليلة, الفاصل, نهاية ارتباط بزمن والبدأ بزمن آخر. سأترك مدينتي مرغماً إلى غيررجعة, لهذا عملت على استعادة الوجوه, الأشجار, الشوارع. بقيت نظراتي هائمة تجول المكان. تغزوني رائحة التربة المبللة ورذاذ المطرالمعطربرائحة الأشجارالعارية.

تفاصيل كثيرة مكورة في جوف ذاكرتي لا يمكن أن تخرج بسهولة, تغرزأناملها في قلبي وروحي في هذه اللحظة المتحركة, لحظة اقتلاعي من جذوري, من وجودي ونقله إلى مكان آخربالرغم عني. تتقافزأمامي صورالذين أعرفهم, أحبهم, الذين يعشعشون في داخلي, أهلي, أبي وأمي وأخوتي الصغار, الأصدقاء, صورة رشا أبنة أختي ذات الأعوام الثلاثة بوجهها البريئ, مشيتها الجميلة, رشاقتها ودفئ الروح في ملامح عينيها الغريرتين. صورة الطفلة وهي تلفظ الكلمات بحذر وحياء, تكسر الكلمات بين أسنانها اللبنية الغضة. يحملني العطش للحب إلى رياح البحث عن الشوارع التي عانقت ذاكرتي

وسطرتها في كل ركن وزاوية مني. توقفت حدقة عيني على أغصان شجرة عارية من الأوراق, الضباب, يلعب في عراؤها ويعانق وجعها, يمتص أنينها ويرميه خلف السحب الراحلة إلى رحيل.

هذا الافتراش لروحي على بساط المكان ترك لدي انطباعات غريبة لا أعرف كنهها إلى اليوم, كما لا أعرف كيف أعبر عنها. باختصاركنت أتمنى أن يتوقف الزمن كي أبقى في الزمن ذاته.

حمل المساعد أبوعزيزالملف الأخضربيده اليمنى ونزل متجهاً صوب الحاكم العرفي للمحافظة, بفرح ورشاقة وثقة, به أسماءنا ليوقعها.

كان ذلك في يوم السبت /1987/11/7.

بعد بضعة دقائق عاد مبتسماً, مزهواً بنفسه كعاهرة متمرسة, ينقّل خطواته بغنج ودلال وتأن, تفوح منه روائح نتنة بالرغم من العطرالمستورد الذي غمرنفسه به . تقرأ في بؤبؤة عينيه, ملامح ذئب لئيم, وجه فاسد, معكرتنبعث من أنفاسه رائحة كريهة.

لم ينطق بكلمة.

قلت لنفسي, صناع الموت يحتاجون إلى السرية المطلقة, إلى الصمت المغلف بالغموض, لهذا يتبادل هؤلاء الحثالة علاقاتهم بالإشارات السرية التي تعلموها في دهاليزهم المظلمة والأقبية الليلية.

كان الصمت مخيماً على كل شيء, كصمت الأموات, باستثناء وقع أقدام المارة وهي تدق الطريق الاسفلتي المبلل ببقايا مطر هارب.

أخذت المشاهد الجميلة بالابتعاد والتبدد مع انطلاق السيارة. مددت عنقي ونظري لأمسك كل ركن, زاوية, شجرة, رصيف. أقول, لن أرى هذا الشارع بعد اليوم, هذه البناية, المدرسة, هؤلاء الفتيات الجميلات بعمر الورد والرياحين, وجوههن النضرة وقاماتهن الوارفة كأشجار السرو والحور. تنهدت بعمق والحسرة تملأ صدري من فقدان الأمل أن أبقى في بلادي.

مضت السيارة هاربة, متجهة نحوالوداع. لكم تمنيت في سري أن يقود السائق سيارته ببطئ من أجل أن أغرف مشهداً آخر لن يقّل جمالاً وبهاء عن البشر. الخابور زينة الحياة في الحياة, ذلك الكائن الجميل الذي احتضن بوحي وذراري وجودي. تعود بي الذكريات إلى خطوتي الأولى عند ضفاف هذا الكائن الجميل, رائحته, أسماكه وأشنيات. الخابور نهرمن السماء مركون في الأرض, نجم متلألئ, شعاع شكل ذاكرتي, وصلصال سور بقايا روحي, لولاه لما كان لهذه الذاكرة وردها ولا للقلب نبضه. هوقدروعشق, الأشياء الحلوة والجميلة, الذاكرة والألق, زوادة دائمة من الفرح, وأنا الذي هو أنا, مغموس به حتى الثمالة.

منذ كنت صغيراً, منذ بدء تشكلي الأول كنت على ضفاف الخابورفي الحسكة, قرب تل كيف, المناجير, ينابيعه في رأس العين, المكان الذي كان والدي يعمل هناك كعامل على محركات الديزل العملاقة لاستجرار الماء من النهرمن أجل سقاية المزروعات. هناك.. في تلك الأصدقاء, كنت أصنع سفناً من ورق الأشجارأربطها بحبال مجدولة من الأغصان وأرميها في الماء ثم أجلس أنظر إليها, أتأمل ذهابها وإيابها تبعا لحركة المد والجزرعند الأماكن الضحلة منه. تطورت هذه الهواية لدي إلى صناعة طوافة من الجذوع انتقل عليها من ضفة إلى أخرى, كنوع من التسلية لتزجية الوقت. أجدف بعصا كبيرة بكلتا يدي, من الضفاف إلى الوسط, ثم إلى الضفاف ثانية. أذهب إلى الحقول, أقطف البطيخ الأصفر والأحمر, الخيار والبندورة, التفاح والتين, المشمش والشمام ذي الرائحة العطرة. أرمي الخضاروالفواكه في الماء ليتولى التيارأخذهم إلى الأمام ثم أرمي نفسي لأعوم فوق مائه الرقراق, كما أن اصل إلى الطوافة حتى أضع الخضارعليها. بعد الاسترخاء, أترك أقدامي تتدلى على أطراف الطوافة, أحرك الماء وأنثره في الهواء. أرى الأسماك الصغيرة تتابع خطاي, تنقر رؤوس أصابع قدمي.

مدارات من الأسئلة تأرقني, تتنقل في آفاق ذاكرتي, تهزني من الأعماق وترتقي بي إلى عوالم مختلفة.

كلما كنا نقترب من الجسرالمائل ازداد حسرة وألماً وخوفاً, ويزداد الشوق والوجع في قلبي من الفراق. كان الجسرفاصلاً بين مسافتين وزمنين. فعلى الضفة الأولى بيتنا, أخي وأبي وأمي وخواتي وأصدقائي وأقربائي وفي الضفة الثانية سجن ووداع وحسرة وفراق وبعد طويل.. طويل.

كانت السيارة تسير برتابة. عناصر الأمن السري يدخنون لفائفهم المستوردة بحرية لكنهم لم يتبادلوا الأحاديث الجانبية على الأطلاق. بقينا أنا ومحمد خير مدثرين بالأصفاد الأسبانية الرشيقة المصنوعة من الستنلس الملمع. عيوننا مصوبة نحوالمجهول وصوت أنفاسنا يمتزج مع صوت المحرك الدائر.

يا لعبة الأقدارأما من نهاية!

رحت أكمل هروبي, العصي على الهروب! تعود ذاكرتي إلى الوراء, منذ كنت صغيراً, غضاً, طرياً, هوسي بتعلم السباحة والمخاطرة, انجح بالرغم من تنبيه أبي الخائف:

احذر من المغامرة, جسدك صغير, ضعيف لا يقوى في السيطرة على التيارات المائية الجارفة والسرعات الهائلة عند المنعطفات والمنحدرات أوفي لحظات استرخاء الماء. أسرار كثيرة تكتنف الخابور, بواليع هائلة في داخله تريد أن تشدك إلى الأسفل. قبل أن تبدأ, جهز نفسك جيداً, املك الأدوات التي تعينك على التحمل ومقارعة الشدائد.

كنت أحاول, أمرن نفسي على تحمل المشاق والصعوبات, أنجح إلى حد بعيد لأنني املك التصميم في اللاوعي الذي يسكنني أوفي أعماق أعماق داخلي. التصميم للوصول إلى الهدف ضروري من أجل معرفة ما أريد والى أين اسير.

لهذا نجحت. وكان لدي إرادة ورغبة. كنت اتحدى الزمن المرسوم بالحسابات الملوثة والمتكررة.

السباحة ضد التيارلم تكن تخيفني وإنما الأشياء غير المرئية, الغامضة, البعيدة عن ساحة العين والنظر, الغموض القادم من المجهول. في هذا المدار كانت الذاكرة تقرع جدارجمجمتي, تنقرقلبي وعقلي كنذير, كعاصفة اختمرت تحت موجة من انشطارات ملتفة على بعضها, حفرت نقوشها في الصخور الصلبة لعقلي.

حاولت إعادة تشكيل العلاقة الاهليلجية الجديدة في مكونات المكان المفكك, اتحسس الأرض وهي تميد وتتحرك تحت قدمي. أعمل على تجميع ذراتها في مدى لا محدود.

بقيت متكئاً على قيدي, اسمع صوت الهواء يجول في السماء بلا رقابة, يسبح مع المطرفي فضاء الحرية, يتراقصان أمام عيني كهالات يقظة.

أنفاس السائق تعلو وتهبط في رتابة متكررة. الوقت يمردون أن ننطق بكلمة واحدة.

كان بيتنا قريباً من الطريق العام, لكن كومة عالية من المباني العالية حجبته عني, لهذا فقدت الأمل أن أرى أو أشاهد ما أريد مشاهدته. لكن النهر بقي متعرجاً, كقدر متعرج. وعدت للقول مرة أخرى, الخابور غيمة مفروشة على وسائد الزمن, فيضاً من الفرح والماء الدافق. جاء في المساءات الشتائية الباردة, محملاً بالزجاجات المزخرفة, عطور وخمور في لا مقاسات, ملفوفا برداء فضفاض. كل شيء فيه يحرض الذاكرة, لونه وشكل جريانه, ديمومته, استمراره وبقاءه. كل موسم ينفض عن جسده بدلته القديمة, يعيد تجديد ذاته, يثور فيتخلص من الأوساخ العالقة والرتابه والتكرار الأجوف والأشياء البالية.

مستحيل أن انسى.

صوته المرتفع الذي يصل إلى عنان السماء, تجدده, قدرته على الجريان في الأرض, تعريته للأزمنة المدروسة.

ويبقى..

في صباحات الربيع المنعشة من كل عام رغم قرصة البرد القاسية, أرقص على ظهرالخابورفوق القارب الصغير, يغمرني الإحساس بالطبيعة المتقدة, في ذلك الفصل المتوثب, اليقظ, يوقظ فيني نداء الحياة والوجود, يطفح على شكل روائح وغليان داخلي ورغبة. قال لي مرات كثيرة:

ـ دع التيار يأخذ القارب, اسمع إلى صوت الماء عند التصاقه بالحواف, حاول إبعاد أغصان الأشجارالمتدلية بلطف, دعه لجريانه الطبيعي وانسى ما يحيط بك من هموم. دعنا نمر, انحني قليلا وأقترب من الوسط علنا نأخذ من الشمس حرارة وقسطا من الراحة. ارفع وجهك ودع أشعتها تلامس وجهك البريئ.

على امتداد البصر, الأشجار ملتصقة بالأشجار, متعرجة ومستوية, مستقيمة ومنحنية, بعضها منكسروالبعض الأخريتكئ على غيره. أغصان وراء أغصان, هنا هناك. هذه منتصبة وتلك مسترخية وأخرى ممدودة والأخرى تسبح في الفضاء كأنها تريد الوصول إلى السماء واللعب مع السنين والزمن, كلهم مشدودين إلى الجذور حيث يرقد التاريخ ويسجل.

جدوع ضخمة وراء جدوع, تسترخي بتكاسل في ثلالم التراب, تتواطأ مع القعر الغامض, من أجل أن تبقى.

مددت إصبعي الغض البض إلى الأمام, أسناني اللبنية البيضاء عكست أشعة الشمس وتلألأت. قلت بفرح طفولي غامر.

الخابورأملس وناعم كالحريرمن السطح, سهوله مفتوحة ومستوية

تذكرت! منذ كنت صغيراً, قبل آلاف السنين, تلال الخابور, مدن وبشر, حكايات تجري في الأرض, مسترسلاً تحت دفق أمواج الشمس والتراب.

في هذه اللحظات الصعبة كنت أدفع لحظات الخوف إلى الأمام, إلى زوايا جانبية. اهرب من المجهول, من ظل غامض لأننا لم نكن نعرف وجهة سيرنا وأين سيحط رحالنا. السيارة تمضي, ونحن نمضي. عبرنا الجسر المائل. أصبح نهر الخابوروبيتنا ورائي, وصار الزمن الآخرأمامي.

في درب سيرنا رأيت الفتيان والفتيات يخرجن من مدارسهن ومعاهدهن, يمشون على الطريق الطويل القادم من حي النشوة إلى قلب المدينة ومن ثم إلى الأحياء الأخرى.

كانت السيارة التي تقلنا, بيجو ستيشن متداخلة الألوان, أبيض وأسود, خمسة عناصر من الأمن السري يلفونا من الأطراف الأربعة, السائق والمساعد في المقدمة, الثالث بجانبي من طرف الباب الأيسر والرابع بجانب محمد خير من طرف الباب الأيمن, بينما الخامس قابع في المؤخرة. بواريدهم الأوتوماتيكية المختصرة في أيديهم.

غبت عن نفسي، تكومت على نفسي ككتلة من اللحم الممزوج بالحزن والخوف.

آنذاك أسرني الزمن. كنت عاريا بينهم لا حيلة لي, كفراشة بيضاء تاهت في موكب البحث عن الضوء.

جاؤوا في عزالنهارأمام مرأى الجميع في ثلاثة سيارات مملوءة برجال الشرطة السرية, الأمن السياسي. اقتحموا مكتبي في العمل وحاصروه, فتشوا محتوياته, دفاتري وبعض كتبي وأقلامي. بعد ذلك داهموا بيتنا, والبيوت المجاورة. أحلوا الخوف والرعب في قلب أهلي والناس القريبة منا. زرعوا قرفهم في كل مكان. أغلقوا كل المنافذ التي تربط بيتنا ببيوت الجيران, سحبوا فيش التلفون وقطعوا الكهرباء. طوقوا البناية, المنافذ, الأدراج والأسطح. فتشوا كل ركن من البيت, نبشوا الأسرة, الخزن, الثياب....

وفي القامشلي, في الزنزانة بقيت دون سؤال أوكلام. منذ الساعة العاشرة والنصف صباحاً إلى الساعة السابعة مساءاً. في تلك اللحظات كانت مشاعري متناقضة ومتيقضة, حواسي كلها في حالة هياج وقلق, مرهفة تلتقط أدق النبرات القادمة من الخارج.

الزنزانة محيط ضيق تحت الأرض ما أن تدخلها حتى تتحسرعلى لون الشمس وضيائها. أنها طوق تلتف على الروح, تترك النفس في حالة انقباض وانكماش وبداية إنكسار.

نزعت حذائي من قدمي ورميته جانباً. جلست على الفرشة القذرة الممدودة على الأرض الصلبة أحدق في السقف المنخفض والحيطان الرمادية العجوز. أنظر إلى الكوة الصغيرة المغلقة للباب حيث يقبع خلفها مباشرة عنصر من الأمن, يراقب ويصغي لكل همسة تصدر مني. كل خمسة دقائق يفتح الكوة,

ينظر إلي فأرى بؤبؤة عينيه كيف تتقافز داخل محجريه, يراقب دقات قلبي وسكناتي, يرصد أنفاسي وما يجول في قلبي من مساحات حزن وألم أوتغيرات تتطرأ على نبضي وقلبي. يكتب ويحسب المسافات البيضاء, ألوان الدمع, أمواج الليل وأصوات الكوابيس التي تتسيدني, يعد صدى شهيقي وزفيري كي يرفع تقريره إلى سيده, ليرفعها بدوره الى سيد آخرحتى تتوالى المتوالية الحسابية في الأرتفاع.

تقافزإلى ذهني في تلك اللحظات المأسورة صورأهلي, أختي صونيا وارشلوس وسيلفا وتالين الذين كانوا جميعهم تقريباً في سن المراهقة. كان بيني وبينهم ألفة وصداقة وأخوة. كنت أخيهم الكبير, اهتم في شؤونهم الخاصة والعامة, دراستهم, مصروفهم وعلاقاتهم الإنسانية سواء مع أصدقائهم أوعلاقاتهم الأخرى كصبايا, فتيات في عمر الورد, مقبلات على الحياة. أقتربت مني صورة أمي المريضة, أمي الحزينة, كما لم تفارقني نظرات أبي المكسورة والحنونة. جميع الناس في بلدي يعلمون أن ذهابي لا عودة فيه, لهذا بكوا ونحبوا مثلما يبكي الناس على إنسان ميت.

كنت أعلم أن أهلي يعيشوا لحظات صعبة للغاية, قلبي يرصد حزنهم وخوفهم واضطرابهم. أعرف إنهم يبكون من الحرقة والألم, صوت نشيجهم معي في ذلك المكان الضيق يتعالى ويرتفع. كنت أقول في سري, سيكونون وحدهم في هذه المحنة, طاحونة القلق تلفني وتلفهم, تمزقني وتمزقهم بمسنناتها الحادة..

رحت أمشي داخل الزنزانة الضيقة بضعة خطوات إلى الأمام وبضعة خطوات إلى الوراء. أعيش داخل أسئلة متواترة ومندفعة ضمن معادلة الخوف من المجهول, على نفسي وأهلي ورفاقي والمقربون مني. مصيري ووجودي بين أيدي ذئاب جائعة لا تعرف الرحمة.

في البدء لم أضرب, لم أمس, لم يوجه لي أي سؤال. لكني كنت خائفاً جداً. انتظرمصيري, وما يقرروه. حياتي ومستقبلي ومستقبل أهلي بين أيديهم الخشنة. نعم, في الأيام الأولى لم أضرب, لم أعذب. كانوا يجسون نبضي ودقات قلبي. توالدوا حولي كالصراصير الليلية الملساء, راحوا يقيسون رخاوة خصيتي, صلابتها, شدتها, قدرتها على التحمل. دخلوا إلى جوفي عبر فجاج المسامات المتعبة. قاسوا كل أمر, أنفاسي, ساعات نومي وأرقي, حزني وفرحي, تحملي على الجلد والجوع والتعب والسهر, بولي وبرزي, ساعات عطشي ونومي, رصدوا حركة شهيقي وزفيري وعدد ضربات قلبي, ثم تركوني للهواجس والكوابيس, فتداخلت الأشياء ببعضها, الهواء الطلق بالزنزانة, الحرمان والرغبة بالخلاص. كبر الرهان وطال, تدفقت التناقضات ببعضها, القبول بالرفض, الجسد بالروح, الإغراءات المريضة بالتحمل.

في ذلك المساء التشريني البارد اقترب الشرطي بهدوء تام من الباب وفتحه, لم يتكلم, لم يقل إلا كلمة واحدة, تعال معي المعلم يريدك.

العقيد فؤاد بدر حسن وراء الطاولة في الغرفة متأنقاً, لابساً طقماً أسود اللون وربطة عنق غالية الثمن, يتنفس بصعوبة. أكثرشيئ لفت نظري عندما دخلت عليه هوصوت أنفاسه العالية وحشرجته التي ملأت جوالغرفة الخانق المفرغ من الهواء وإلى جانبه المساعد أبويوسف. كلاهما كانا ينتظراني. كان نور غرفة التحقيق خافتاً يبعث على الانقباض. قال لي, اجلس, فجلست. في يده أربعة صفحات ورق يقرأ ما يدور بين الأسطر. استطعت أن أرصد الخط من خلال تقليبه للأوراق, وقتها علمت ما يدور في ذهنهم. رأيت توقيع المهندس جوزيف آحو, كشاهد ضدي, خط المخبرعلاء الدين أحمد, والمخبرمحمد الأحمد! كلهم كانوا معي في العمل.

العيون الذئبية المتوهجة بالرغبة في الالتهام غرست حقدها في عيني, الأيدي الخشنة تمتد إلي, توقظني من غفوتي, تحلحلها وتفكك تشابكها, بعدها ساد هدوء كامل ما خلا ذلك الإصوت أنفاس فؤاد بدرحسن الكريهة, وصوت الأوراق التي يقلبها. قال, هل تحب أن تذهب إلى البيت. قلت, بالطبع أتمنى أن أذهب إلى البيت. قال, إذاً.. بيننا وبينك.. مسألة بسيطة. قلت, ما هو. قال, أنت تعرف إننا نعرف كل شيئ عنك, لقد تنصتنا على مكالماتك الهاتفية, وتقاريرنا تقول إنك في حزب معاد. اعترف وأخرج من هنا. بشرفي, أعدك بشرفي, لن يمسك أحد بسوء. فقط أن تعترف. تعترف على هؤلاء المجرمين الذين يعملون ضد وطنهم, ضدنا! سأعطيك فرصة كي تفكر. خذ وقتك كما تريد, لكن ليس إلى الأبد. خذ

ورقة وقلم, أكتب عليها إن كنت تخجل من الحديث المباشر. أكتب عليها ما تريد, لن نضربك, لن نمسك بسوء. يجب أن تعلم أن أبوك وأمك وأخوتك ينتظرونك. بالمناسبة لقد جاء والدك وسأل عنك. قلت له, إننا نعاملك بشكل جيد, لذلك لا تخيب أملنا بك ولا تضطرنا أن نستعمل معك مثلما استعملناه مع غيرك. أنت تعرفنا, وبالتأكيد سمعت عنا الكثير.. الكثير. قلت له, لكن, في الحقيقة لا علاقة لي مع أحد, هناك سوء فهم. قال, لا تجيب الآن على أسئلتنا, سأمنحك الوقت الكافي لتفكر, لتعيد حساباتك. سنعطيك ورقة وقلم مثلما تفعل دولة السويد, حتى تكتب عليها ما عندك من أقوال.

أخذني الشرطي إلى الزنزانة ثم أغلق الكوة من الخارج وجلس إلى جانب الباب. قال, إذا احتجت لأي شيئ دق على الباب, نقرة صغيرة, هل فهمت. قلت له فهمت.

كانت الزنازين فارغة تماماً, لم اسمع صوتاً يشيئ بوجود معتقل غيري.

قلت في نفسي لقد وقعت في المصيدة, لن أخرج من هنا أبداً. رحت أحسب وأقدر, ذهني يطير ويحلق بعيداً, رفاقي وأصدقائي, كيف أحميهم, كيف أستطيع الهروب من مواجهة المحقق. ماذا علي فعله, كيف ستسيرالأمورمعي, ماذا سيفعلون بي. كانت أول تجربة لي, كما لم ألتق مع أحد من المعتقلين السابقين. خبرتي معدومة في هذا الأمرباستثناء الروايات التي قرأتها, شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف والسجن لنبيل سليمان وأنا جريح للكاتب التركي إيردال أوز.

في الزنزانة, عدت إلى وحدتي الإجبارية, منقبض النفس أنظر الى السماء المفتوحة من الكوة الصغيرة المطلة على الحياة, أراقب ذرات المطرتنقر على الزجاج المغبر, اسمع أصواتاً محملة بالزخارف الملونة. كان المطرأنيساً, صديقاً, بقايا ارتباط بالمدى. يأخذني من يدي الى بقاياي الوجدانية في الخارج ويبعدني عن السديم المغلق.

أراقب انهماره بحرية, دون قيود أوجدران تقيد أنفاسه. مصفقاً بجناحيه في الفضاء الرحب دون حدود وهمية, متألقاً كعادته. مددت يدي إليه فاستوقفني الزجاج المغبر, بقيت مسمراً, عقلي وحواسي على النافذة المغلقة لأعرف ماذا يجري خلف القضبان, استحضر خلاصة الأمل لأبقى على قدمي في هذه البقعة المظلمة من العالم.

كان رهاناً على الزمن بيني وبين الجلاد.

بهذه الأفكارغرقت, بهذه الأفكارحاولت الهرب من عتمة الوحدة والعزلة. وبقيت هكذا, ذهني في حالة قلق دائم, موجة موجعة تأخذني وموجة حزينة تشوي شراييني إلى أن أطل ضوء النهارمن تلك الفتحة الصغيرة في الجدار!

في الساعة التاسعة صباحاً فتح الشرطي الكوة الصغيرة المطلة على الممروالزنازين, قال لي ماذا تريد أن تأكل. قلت لم أفهم قصدك. قال أعطني نقوداً حتى أذهب إلى السوق وأجلب لك طعاماً. قلت له أريد صحن فول. قال حسناً كما تريد. واستمر هذا الأمرطوال فترة التحقيق أعطيهم نقوداً من أجل الإفطار وأخرى من أجل الغذاء ربما لأني كنت المعتقل الوحيد في تلك الفترة في محافظتي في فرع الأمن السياسي في مدينة القامشلي. وربما لم يكن لديهم مطبخ أو شيء من هذا القبيل لهذا كنت أدفع من حسابي الخاص ثمن طعامي في ذلك المكان المذكور.

بعد الأفطاراقتربت من الباب في محاولة أن أدق عليه لكني تراجعت الى الوراء خطوتين. عدت للمحاولة مرة ثانية, ترددت من الخوف والحاجة الضاغطة علي, لكن لم يكن لدي خيار آخر. دققت الباب بكفي وصحت من وراء الباب.

- هل تأذن! كان الشرطي وراء الباب يصغي السمع لتقلبات هواجسي. فتح الكوة الصغيرة وأطل برأسه, قال, ماذا تريد؟ قلت, أريد الذهاب الى الحمام. أغلق الكوة ولم يجب.

طرقت الباب مرة ثانية, ثم مرات. عدت للقول أريد الذهاب إلى الحمام, أنا بأمس الحاجة لذلك. وأضفت, أكاد اتمزق, أنا محتاج لقضاء حاجة. لم يجب. مسكت حذائي وطرقت الباب بقوة. فتح الكوة بحيادية تامة ودون أن ينظرإلى ملامحي قال, انتظر! قالها دون مبالاة ثم أغلق الكوة. قلت, لكن لن

أستطيع الانتظارأكثرمن ذلك, مثانتي وبطني ستتمزقان, سطوة الحاجة تضغط علي. غاب طيف الشرطي لحظات ثم عاد, وعاد الصمت المطبق يسطرأحرفه على الجدران.

المفاتيح تتحرك في القفل. قال, أخرج بسرعة, لديك دقيقتان فقط بين خروجك من هنا ولحظة إغلاق الباب, هكذا هي الأوامر. أسرع.

أخذني الشرطي مثلما يأخذ المرء طفلاً صغيراً, غراً لا يقوى على حمل جسده وسار بي. قادني خمسة أمتارإلى الأمام ثم التف الى اليمين مسافة خمسة أمتارأخرى. مررنا بجانب غرفة التحقيق. سمعت أصوات الشرطة ورأيت أكبال كثيرة, دواليب متعددة المقاسات, خيزرانات, كلابات تعليق الأجساد, سلاسل حديدية صغيرة وكبيرة, أخشاب بساط الريح وأدوات التعذيب المتعددة محشورة هناك بالقرب من الحمام وغرفة التحقيق.

كل الممرات يطغى عليها الكآبة والسوداوية, وكتل ثقيلة من الصمت المسكون بالتردد والخوف.

دلفت الى مكان مظلم ورطب, الماء يتساقط بحيادية من أماكن متعددة, ويغطي المصطبة والدرج والمرحاض.

الماء معنطن يغطي الممرالطويل. أسندت يدي على الجدار المبقع بالبقع الخضراء الداكنة, المعفنة. ملمس الأرض كالصابون. حاولت التماسك لكني تزحلقت ووقعت على الأرض فتبللت ثيابي ووجهي ويدي وحذائي بالماء القذر الخارج من المراحيض.

وقفت رافعاً يدي إلى الأعلى لا أدري ماذا أفعل, هل أعود أم أتابع. نادى الشرطي علي, قال, لا وقت لديك, أسرع من هيك. لم يبال بما أنا عليه. قلت له, أنظر الى وضعي, لا أعرف ماذا أفعل, أحتاج أن أغسل يدي وأمسح الوسخ عن ثيابي القذرة. قال, ليست مشكلتي, ليس لدي أوامرحتى اسمح لك أن تتصرف وكأنك في بيتك, أريد أن أذكرك لقد بقي لك نصف دقيقة لتنتهي وتعود إلى مخدعك.

كلما حاولت الصعود, كلما ازدادت البقع الخضراء الداكنة في احتلال المكان, وتزداد الروائح الكريهة انبعاثاً, وأزداد نكوصا على نكوص. الورطة اللعينة أرخت بظلالها علي, جعلتني منقبض الروح ومعصورالفؤاد, أنفرمن المكان, لكن الحاجة تدفعني لمواصلة المشوار بالرغم من كل شيء.

وقف الشرطي عند أسفل الدرج يخشخش بالمفاتيح ويصرخ علي, أسرع.. أسرع. لم يبق لديك وقت, وقتك انتهى.

كنت ارتطم بين انحناءات الجدران واضطرب, أحاول أن اتوازن, أن أقف على قدمي حتى لا أقع على الأرض مرة أخرى.

اللون الأخضر المسود مرسوم في كل زاوية وكل ملمس وانحناءة, الماء السائب المندلق من السقف والجدران يتساقط بتثاقل ويهبط بنكوص. القطرة تلتف على نفسها, تتكاثف على بعضها وتترابط, تكبركاستدارة قبل أن تفقع وتندفع إلى القاع بسرعة, فتصدرصوتا خافتاً أشبه بناقوس يتيم يجلجل على مقربة من مدفن طال هجرانه.

بحركة غريزية سريعة, باعدت بين قدمي ومشيت كالتمثال المحنط موزع الأبعاد ومجسم الشكل, خافت الوميض, أبحث عن منطقة منحسرة الماء, صلبة حتى استند عليها.

حاولت أن أتقدم الى الأمام, جاهدت بكل ما أوتيت من قوة وصبر. حاولت أن ادفع المرارة جانبا وأكمل جذوة الوجع, وحيداً, غريباً في مساحة ضيقة من العالم. أعوم على سطح قذرونفايات عفنة. تتراءى لي صوروأخيلة مختلفة من الدهشة والغرابة التي تزداد أتساعا. كنت مرتبكا, خائفا تحت القبضة القوية للواقع السياسي والاجتماعي المرفي بلادنا.

خشخشة المفاتيح تستوطن روحي, تستعمركل ذرة مني, فتستفز الحيوان الخرافي القابع داخلي. ذلك الموروث الكوني خرج من قمقمه, نمل كل أعصابي وكياني وجعل ذهني سابحاً في الترقب والانتظار.

نظرت الى المرحاض طويلاً, إلى الشكل الغرائبي التي تلفه, ووقعه على نفسي. لم يكن ارتفاعه أكثرمن خمسون سنتمتر. مملوء بالأوساخ والقاذورات والأشكال الكريهة والمنفرة سواء على الجدران أوالسقف والأرضية. الصدمة وحدها كانت كافية لإيقاف كل الاندفاعات في مكانها. المشاهد مقززة تبعث على التقيؤ والتراجع وإغلاق الصفحة وترك الأشياء في مكانها دون أن تأخذ مجراها. عاد الشرطي للتذكير, عليك الإسراع بالخروج من مكانك, لدي مسؤوليات كثيرة. لم يكف عن ضرب المفاتيح على فخذه بحركة عصبية مدروسة. صرخ أكثرمن مرة, استعجل. قلت له, حسنا لا تخف, ها قد عدت ادراجي بمثل الوجع القديم, محملا بالمتاهات والفراغ والخوف. الرائحة اللعينة, المعجونة بتقادم الزمن تدخل خياشيمي وأذني ومؤخرة ظهري وشعري وتبقى ملتصقة بي. واللوحة العبثية تكبر بألوانها المختلفة في ذاكرتي.

بعد أن أودعني الشرطي داخل الزنزانة, أغلق الباب وراح يصفر ويدندن خلفها ويخشخش المفاتيح, يحركها في الهواء ثم يضربها بقوة على فخذه. ثم حل الصمت كأنه مضى في غيبوبة طويلة لهذا لم أعد أسمع شيئا منه, كأن الأرض انشقت وبلعته.

على حين غرة, ودون مقدمات مسبقة, أدخل المفتاح في القفل بهدوء وأداره, قال لي, جهز نفسك, سيدي الرائد يريدك, تعال معي. مسكني من يدي وأخذني إلى غرفة التحقيق مرة أخرى في صباح اليوم التالي.

كان الرائد علي محسن في الثلاثينات من العمرواقفاً وراء الطاولة يبتسم كداعرة ممحونة, تنساب من فمه قطرات النذالة وتتزاحم أمام بؤبؤة عينيه. قال بلغة متقنة, مسبقة الصنع, أنت أرمني. قلت, نعم.. أنا أرمني. قال, أرمني, لماذا تعمل ضدنا. على الأرمن أن لا يعملوا ضدنا, عليهم أن يقفوا إلى جانبنا. لا تنسى إننا أنقذناكم من المذابح, والآن نحميكم من الآخرين. قلت, أنا لا أعمل ضد أحد, وهذا الوطن, وطني, ولدت فيه وعشت فيه ولا مكان لي غيره. ثم من هم الآخرين الذين تحمونا منهم! قال, أنتم مهددون مثلنا, يجب أن تكون يدك في يدنا, سنحميك وندعمك, سيكون لك شأناً في هذا البلد, أن تتعاون معنا. قلت, لم يسبق أن تعرضت لأي أذى من الناس في بلدي. لقد عشت في الحسكة ورأس العين والقامشلي وتل كيف والمناجيروغيرها من المدن والقرى السورية ولم أحس في يوم من الأيام أن لي مشكلة مع أحد, سواء كانوا مسلمون أومسيحيين أوغيرهم من الشرائح الاجتماعية المختلفة في وطني, أما عن دعمكم لي فلا أريده.

تغيرت ملامح علي محسن فجأة, حلت سطوة القوة وشهوتها محل الهدوء المصطنع. ما هي إلا لحظات حتى استيقظ المارد القابع في داخله من غفوته. غرغرت الدماء القذرة في وجنتيه وصعدت إلى رأسه, خلال برهة قصيرة جرى تحول خطيرعليه, نقلته من عالم إلى آخر, رغى وزبد في سورة غضب وانفعال واضح, دمدم بعلامات فاقعة, امتقع وجهه باللون الأحمرالمزرق أوالكحلي المائل للسواد. بدأت اساريره تنقبض وتنكمش على بعضها رويدا رويدا إلى أن أصبح يسبح في دوامة ملفوفة شديدة السرعة. قال, يبدوأن رأسك يابس ولا تعرف مصلحتك بشكل جيد. حسناً لدينا كل الوثائق التي تجعلنا نبقيك هنا مدة طويلة, الشيء الوحيد الذي يرحمك ويفتح لك باب الزنزانة هو تعاونك معنا وغير ذلك لا تحلم به. نحن لم نستعمل وسائلنا الحقيقية معك التي بالتأكيد تعرفها. الساعات والأيام القليلة القادمة ستعلمك كيف تتكلم مع اسيادك يا حقير..

خذوه الآن, سنفرجيك يا حقير!

عدت إلى الزنزانة..

وحدي بين الجدران العالية الصامتة, اسمع خشخشة المفاتيح الاستفزازية التي يمارسها الشرطي بتقنية عالية وبحرفية مدروسة. أنظرإلى الكوة الصغيرة العالية, فأرى بضعة خيوط من ضوء الصباح يتسلل منها بخجل وحياء. تعيدني هذه الكوة سنوات طويلة إلى الوراء, إلى ثانوية عربستان, المكان التي درست فيها الصف السابع والثامن والعاشر, المدرسة القابعة بالقرب من مبنى الأمن السياسي, على مسافة لا تتجاوزالعشرين متراً. يعود بي الحنين إلى الماضي, فأمعن النظر في تلك اللحظات الآسرة من

عمري. تحول ذلك الوقت إلى مصباح صغيريزغ أمام دربي في تلك العتمة التي تغلف المكان بالكآبة والمرارة. أعادتني الكوة المركونة في الجدارسنوات طويلة إلى الوراء, عندما كنت أخرج من البيت بحدود الساعة التاسعة صباحاً حاملاً حقيبتي المدرسية الجلدية الجميلة متجهاً إلى الحي الغربي, ماراً بالقرب من ثانوية العروبة وإعدادية زكي الأرسوزي, المشتل البلدي, عابراً مدرستي, قاطعاً الطريق الذي يقطنه مبنى هذا الفرع الكريه. عندما كنت أقترب منه, كان يلفني إحساس بالقرف والاشمئزاز, حاملاً باليد الأخرى كرة القدم متجهاً مع بقية أصدقائي إلى الملعب القريب من الأسلاك الشائكة بالقرب من الحدود السورية التركية. كنا نلعب كرة القدم في الهواء الطلق تحت قبة السماء الزرقاء الجميلة, نفرح ونمرح, ننظر إلى العسكر التركي المتخندق وبيده رشاشه وهمجيته, نضحك من تصلبه في مكانه ونسخر من مخافرالأتراك وحركاتهم الدائمة في مراقبة الحدود. كنا نكره نظراتهم الذئبية القاسية التي لا تتوقف عن الدوران والنظر إلينا. نصنع من ثيابنا أهدافاً, نركض ونلعب, نأتي من مختلف الحارات البعيدة والقريبة, الوسطى, قدور بك, البشيرية والهلالية وغيرها. تجمعنا مدرسة جميلة وبشر لطفاء من مختلف المشارب, عرب وأكراد وأرمن وسريان وأشوريون وتركمان وداغستانيون وغيرهم. نجتمع هناك, نضحك ونغني دون حدود أو حواجز منصوبة بيننا. يجمعنا الحب البريئ والمنافسة في اللعب, وعلى مقربة من الملعب الصغيرتقف الفتيات الجميلات من أعمارنا يتفرجن علينا, يصفقن لنا.

أيقظني الشرطي من غفوتي عندما خشخش المفاتيح بقوة فتبددت تلك الذكريات الجميلة في لحظة سريعة.

عدت إلى الزنزانة, إلى الوحدة والصمت والفراغ. تنفست بصعوبة بالغة, صدري يعلوويهبط بسرعة. الأفكار تتزاحم في مخيلتي وذهني, أسئلة متعددة وكثيرة تطرح نفسها علي. ماذا سأفعل؟ ماذا سأعمل؟ كيف أهرب من أسئلتهم المتعبة والقاسية. كنت أعلم أنهم يريدون ذاكرتي, قحف الجمجمة, يريدون نبشها وإخراج الأسماء التي يبحثون عنها. كنت أقول, كيف سأحمي نفسي, جسدي وروحي, رفاقي وأهلي وأصدقائي, كيف يمكنني أن أبعدهم عن مرماهم. في البدء, رحت أبعد صور رفاقي, أسماءهم عن ذاكرتي. مشيت في الزنزانة الضيقة مطأطئ الرأس, يحاصرني الخوف واليأس على مصيري ومصير غيري. لأول مرة في حياتي أحس أنني أمام عدو حقيقي, لأول مرة أحس أن هذا الوطن مقسم بشكل عمودي وأفقي, وأنني في مكان آخر. أن هؤلاء لا أعرفهم, ليسوا من المكان الذي أعيش فيه, وأنهم في حالة حرب طويلة وقاسية معي, إنني أمام ذئاب حقيقة لا تعرف الرحمة والشفقة, ذئاب تريد نهش كياني من الجذور. أنني في قلب الصراع الحقيقي, ميدانه أنا, وهم. كانوا ينظرون إلي كعدوحقيقي. علمت وقتها أن الوطن كذبة كبيرة, الوطن, وطنان مقسمان, وطننا, كبشر من لحم ودم, وسلطة مدججة بالسلاح, تقود بلادنا بالحديد والنارمن أجل بقاءها. لهذا لم يكن لدي خيارسوى أن أكون رابط الجأش, متماسكاً, قوياً غير مهزوز القلب والضمير. قلت لنفسي, عدوي أمامي, على مسافة قصيرة مني, يريد الدخول إلى أرشيف ذاكرتي لينهل منها غاياته, يأخذ كل ما يمكن أخذه, وأنا, الذي هوأنا, ليس في وسعي أن أفعله سوى أن أتمسك بحقي في ما عندي.

الأفكار المغلفة بالكآبة ترسم إطلالتها علي, تأخذ شكل ارتعاشات بالغة التعقيد, مثل الأعاصير التي تقتلع كل شيئ. صخور من الغم والهم تجثم على صدري وتدخلني في حسابات مختلفة. كنت أعلم إنني أدخل النفق المظلم الطويل دون أي أمل أو بارقة أمل في الخروج من هذا المكان المطبق علي. مكان حالك السواد, مدركاً أن سلاحي الوحيد هو بقائي على قيد الحياة. أن يبقى جسدي قوياً متماسكاً يستطيع أن يرفض ويتحمل القسوة والألم الشديد والعبء الكبير الملقى على عاتقي, وأن خياراتي بالخلاص معدومة ولا مخرج من هذا المأزق.

المحقق, الجلاد الرخيص والتافه أبويوسف, العقيد فؤاد بدرحسن, الرائد علي محسن, الصورة المصغرة عن الاستبداد. هؤلاء الحثالة لادين لهم ولاضمير, لا مبادئ ولا قيم, مجرد أدوات صغيرة تدار في لعبة كبيرة.

الزنزانة.. القبو المظلم.

منذ اللحظة التي يدخل الإنسان هذا المكان يحدث له ذلك الانفصال الإجباري عن عالمه القديم, عالمه الجميل, الماضي بكل جمالياته. تبدأ الذاكرة القديمة في الانحساروالتبدد لتتحول إلى غمامة ضائعة في لجج النسيان. تتشكل ذاكرة جديدة, ذاكرة تفرض حضورها بقسوة بالرغم من كل شيئ. بدأت ذاكرتي القديمة بالرحيل الى ذاكرة جديدة, تتشكل من القلق والتوتروالهيجان المنفلت من عقال الزمن المبلل بالفضلات. حاولت مرات كثيرة إزاحة لحظات الجنون والإعياء وإبعاد الأوقات المترنحة بفعل القهرلكن لا فائدة.

أعود من به رغبة في إقصاء القهروالخوف من دروبه الكثيرة والمجهولة. أوقظ مواسم القطا والزرازيرمن نومها, أحثها على الرحيل إلى الأمكان الأكثردفئاً وسكينة, إلى ما وراء الستائروالمحطات المختفية وراء الاعاصير الغابرة.

تراودني رائحة الشهقات المنسية على باب الزمن, إلى تلك الديارالتي احتوت قامتي الصغيرة في ذراري الحياة. أجوب سماء الأمس, أتزود من الذكريات شهوات الحنين إلى تلك المواضع النائمة في خلد الأيام التي رحلت إلى غير رجعة.

أكثر الذكريات التي تهزني, هولون النهر, صوت رقرقة الماء وهو يسوح في قاع الأرض كأنه على موعد مع القدر. لون الماء كلون المطر يساكن قاع ذاتي, لا أدري من أين أبدأ وأي تأريخ أسطر في هذه الأمكنة المرعبة والبعيدة.

أعود إلى الصمت المطبق الذي يطوقني من جميع الجهات باستثناء خشخشة المفاتيح اللعينة.

صاح الشرطي بصوت خافت ومحرض, جهز نفسك.

خشخش المفاتيح بقوة, ضربها على فخذه, ثم أدخل المفتاح في القفل.

وقفت أمام المحقق أبو يوسف. رجل كبير بالسن, لون وجهه ضارب للصفرة, شكله كريه مثل السم. منذ اللحظة الذي تراه, ترى في تقاطيع وجهه امتهان العهروالبغاء الرخيص. نظراته مغلفة بحقد دفين. لم يكن لدى هذا التافه إلا هم واحد هو إرضاء معلميه, أن يطبطبوا على وجهه بكلمة واحدة, شاطر, مثل طفل لقيد فقد حنان أبويه, يحتاج إلى استعطاف الأكبرمنه منزلة. سألني, ماذا قال لك؟ قلت, من تقصد؟ أجاب, الرائد, ماذا تكلم معك؟ قلت, يريد كما تريد, أن أتعرى واعتراف. هزرأسه وقال, ما علينا, يجب أن تعلم إنك تحت رحمتنا الآن ولا خلاص لك إلا بالاعتراف والتعاون معنا. لديك شيئاً تقوله أليس كذلك, في متناولك أشياء كثيرة الآن, نحن تحت إمرتك لحين الاعتراف وبعدها لكل حادث حديث. خذ مرة أخرى ورقة وقلم وأبحر في مرافئك الواسعة ومراسيك المتنقلة. قل ما تشاء, لكن لا بدأن تمنحنا نفسك. اعترافك يسهل علينا عدم تعذيبك فقط لا أكثر. لكن في النهاية سننال ما نريده, ستعترف /ستغتصب/ سواء بإرادتك أو في حال ممانعتك, في كلا الحالتين أنت من يتوجع ويقهر ويتألم. الاعتراف طريقة سريعة لإخراجك من الدائرة والدوامة التي أنت بها. اعلم أننا سهلنا عليك المهمة كثيراً, أعطيناك الوقت الكافي من أجل أن تقول كل ما عندك, تعترف وترتاح وتريحنا. اعترف قبل أن تتشوه أكثر.

كنت أنظر إلى وجهه المنتوف من الحياء والخجل, إلى المساحيق الموزعة على قسماته القذرة. قلت, لا أعرف شيئا عما تتحدث عنه, وليس لدي أي شيئ يمكن أن يقال. لقد قلت كل ما لدي, لقد نلتم كل شيئ. قال, لم ننل شيئاً بعد, لم ننل منك بعد, مشوارنا معك طويل, نحن وأنت والزمن. لن تخرج من هنا كما دخلت, لن تخرج إلا بالاعتراف. لهذا كما قلت لك, إذا اعترفت بسرعة, وأعطيت ما لديك من معلومات سترتاح وتريحنا. قلت, لكن, ليس لدي ما أقوله.

أعود مرة أخرى إلى الزنزانة, ما أن تطأ قدمي المكان حتى يستدعوني مرة أخرى. لقد تناوب في التحقيق معي سبعة محققين, ما أن يدخلوني الزنزانة حتى يطلبوني مرة أخرى. يبدأون معي من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ليلاً...

لقد أتلفوا أعصابي وروحي وجسدي. كنت أقول أن الأذى الجسدي الذي تعرضت له أسهل بكثير من أسئلتهم الحارقة التي كانت تخترق رأسي. مجرد أن أرفض, أقول لا, يجهزون الدولاب, يبدأون بالضرب. أقسى ما كان يؤلمني عندما كانوا يحشرون الخيزرانة في عقب قدمي, يغرسونها في مواضع الوجع والدم, في البقع المجروحة والمفتوحة. كان الجلاد أبو زهرة يستمتع بفرك الخيزرانة في عقب قدمي ويستلذ لسماع صوت الصراخ والآهات الخارجة من أعماق روحي, وإلى جانبه أبو يوسف ينظر إلى الدم بشهية.

هؤلاء الخنازير لا يتعبون ولا يملون. كثيرة هي المرات التي شعرت فيها أنهم فوق جلدي, يشقونه, يسلخونه, يدخلون في صدري, يمشون بين ثناياه, في أيديهم سواطير خارجة من تحت النار والجمر يكووا بها قلبي وروحي.

كم كنت أتمنى أن يمنحوني بضعة لحظات راحة حتى أعيد لنفسي توازنها, وارتب حساباتي. أسئلتهم متواترة متوترة, متدفقة. كومات من الأسئلة تطرح علي, يريدون إجابات محددة وسريعة. أسئلتهم تتعب الأعصاب, تقلق, تكوي, تمزق أنسجة اللحم والعظام. يسألون, من فلان, من فلانة, ما صلتك بهم, من هم, الصلة بهم متى بدأت. كنت أقول, تقولون أنكم تعرفون كل شيئ, إذاً, لماذا تسألون! يقولون, نريد الإجابة منك. وتتكررالاسئلة بشكل آخر, كيف كنتم تجتمعون, مواردكم المالية, من أين تتلقون الدعم, بماذا تفكرون, كيف تريدون التغيير, لماذا تستغلون الأزمة التي تمر بها البلاد, ما هو عددكم, من هي الدول التي تدعمكم.

أنتم حفنة خونة تريدون النيل منا.

من خلال التحقيق علمت أن الفرع موزع الولاءات, الرائد علي محسن والمحقق أبو طارق من جهة وبين العقيد فؤاد بدر حسن وأبو يوسف من جهة ثانية وأنهم في حالة منافسة على تربع كرسي العرش. أنهم لا يثقون ببعضهم, ولا يحبون بعضهم, أحدهم يتمنى أن ينسف الآخرفي رمشة عين ومع هذا فأنهم يعملون, متفقون على خدمة آلة الاستبداد والقمع. أنه مكان موبوء وكريه. كل الموبقات, كل أنواع الدعارة منقوشة أحرفها فيهم. كل طرف يعمل لمصلحته الخاصة من أجل ضمان رضى وقبول الجهة الأعلى, لكنهم متفقون جميعاً على انتزاع الاعتراف مني, يتسابقون على أخذ سبق الاعتراف, لهذا كنت بين مخالبهم مثل طريدة هاربة. مكان مشحون برائحة تقادم الزمن الفاسد, فما أصعب أن تتعامل مكرهاً مع قواد رخيص مزين بريبان وأشرطة وعلى أكتافه نجوم مرصعة بالذهب ولديه اعتراف شرعي بالبقاء. هذا المكان الكريه فيه ممرات كثيرة, حجرات سرية, دهاليزعميقة وغميقة تسير تحت الأرض وتلف على بعضها. مكان للعزلة والأشياء الممجوجة والمتداخلة. الجدران كالحة اللون مع عفونة ورطوبة وظلام في ظلام. تستوطنه طيور سوداء كبيرة تطيرفي الليل تحمل رمزواحد, من ليس معنا.. ضدنا.

بهذه المعادلة القذرة سارقدري وقدر بلادي.

كان الخريف طويلاً تلك السنة, يعوي ويزبد طوال الوقت.

خرجت من القبو مكبلاً السلاسل. وضعوني في السيارة وساروا. مررنا من جانب مدرستي مرة أخرى. شاهدت أطفال المدارس يحملون حقائبهم الملونة الجميلة على أكتافهم, يضحكون ببراءة, يمرحهم, شبان وشابات, يتسامرون ويتغامزون وآلاف الرغبات الدفينة تتمازج في قلوبهم. كدت أضم المكان, التهمه, مدركاً إنها المرة الأخيرة التي سامربها من هنا. كنت أتمنى أن أعيش اللحظات بكل مقاساتها, أن أطيرإليهم بالرغم من القيد الذي يدمي معصمي. أتفرس في الوجوه العابثة, أنظر إلى ثيابهم الجميلة, أشكالهم الوردية الزاهية. أقول في سري, يا ليتني بينكم, ألعب معكم, افرحوا فأنتم طلقاء, طعامكم على المائدة, ساخن ولذيذ, والبيت الدافئ في انتظاركم.

السيارة تأكل الاسفلت وتلتهم المكان. المطر يتساقط بتكاسل, وغراب أسود يحلق في الفضاء منذراً بجو كئيب.

في أعماق الجزيرة المترامية الأطراف, على طريق طويل ومفتوح, حيادي, أسود وصامت, سهول على امتداد البصر. بوعي مأساوي هجين, راحت ذاكرتي تختزن عصارة تجربة الألم. أنظر من النافذة على مدى النظرونهايات الأفق مساحات شاسعة مملوءة بالماء. أرتد على نفسي كامتصاص الندى للفجر, عيناي تأخذني إلى الارض المبذورة بالسكون ورغبتي أن احتضن الطبيعة المنفلتة من يدي وقلبي, أن التحم بشقوقها, مع تهلألأت حفيف الشجر. أنه الخط الفاصل بين مدينة الحسكة والقامشلي لطالما سرت عليه كثيراً في زمن البوح والندبات التي تغلف القلب والوجدان. الريح تصفر وتعوي وتترك صداها الحزين على ثلالم الفؤاد. بيوت متفرقة على مسافات متباعدة عن بعضها, مرمية بين احضان الطبيعة. الشجر حالها حال البشر, تعيش وحدانيتها وبوحها وحزنها وفراقها في بقع متباعدة.

عند اقترابنا من سجن الحسكة فتح الباب الرئيسي بمنتهى الخضوع والتهذيب. دخلنا والقيد بيدي ويد صديقي محمد خير. قادونا إلى الطابق الأعلى.

كانوا مجموعة من الشرطة المدنية في الغرفة يتسامرون عندما فتح المساعد أبوعزيز أحد عناصر الأمن السياسي الباب. نهض كل واحد من مكانه, بقوا وقوفاً كالأصنام الملتوية في يوم خريفي بارد ينظرون إليه خلسة من تحت رموش عيونهم القصيرة, خائفين. ثم راحوا يفسحون المكان له من أجل الدخول وعبارات النفاق من تهليل وترحيب تتوارد من أفواههم بسرعة, تفضل سيدي.. أجلس هنا سيدي.. المكان مكانك سيدي..

هؤلاء الصغار, صغارالنفوس لم ينضجوا بعد, ولن ينضجوا أبداً..

دخل المساعد أبو عزيز دون أن يرمي التحية عليهم. قال, أريد أن تخلوا هذه الغرفة في الحال, نحتاجها. هللوا بصوت واحد.. تأمر سيدي.

صرخ بشكل فجائي وسريع, أريد الغرفة فارغة الآن, في الحال, تحركوا.

خلال لحظات حملت الشرطة المدنية أمتعتها, أسرة وبطانيات وفرش ووسائد. رفعوا حقائبهم بصمت وخضوع تام. ثم كنسوا المكان بالمكانس, بأيديهم. بينما أبو عزيز يدخن السيكارة مختالاً.. متعجرفاً قال, احضروا لهم أسرة وفرش ووسائد. قبل أن يرحل أضاف, لا أريد لكائن من يكون أن يقترب منهم. في إشارة لي ولمحمد خير. ثم أردف ورماد السيكارة ممدوداً بين يديه القذرتين, لا أريد لأي إنسان أن يتكلم معهم, أفهمتم, الحاضر يخبرالغائب. بعدها أغلقوا الباب علينا من الخارج. باب خشبي سميك عليه باب آخرحديدي أسود اللون له طاقة أو كوة صغيرة تفتح من الخارج.

بقينا وحدنا في محيط الزنزانة الضيق قرابة الشهر.

كانت مساحة الزنزانة بحدود الثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار.

إذاً, نحن معتقلون إلى إشعار آخر. مصيرنا لم يعد بأيدينا وحريتنا أضحت مرهونة بالغيب. سألت محمد, هل التحقيق انتهى معنا؟ قال, لا اعتقد, التحقيق لم ينتهي بعد؟

وبقينا في حالة خوف ورعب وشك من القادم من الأيام..

لأول مرة نجلس مع بعضنا بعد فترة التحقيق. كان الباب مغلقاً من الخارج وعليه شبك حديدي ثخين يطل على ممر صغير يفضي إلى برج السجن الكبير والمرحاض. في الجهة المقابلة للباب تطل فتحة صغيرة على العالم الخارجي.

بأنين أخرس كنت أتأوه من الوضع الجديد. ناركاوية لاحقت جسدي من داخل جسدي, قوة حمقاء قبيحة انبثقت من داخلي أفضت إلى طريق طويل من الهروب من العالم القديم, من الملامح القديمة والسنون الماضية, حاملاً أمتعتي البالية وأسراري في كيس صغيرمصرورمن كل الجوانب. رحت أدخل السراديب المظلمة من الذات ليستعاد عنها عالم آخر, فرض علي فرضاً, اختارته المصادفات اللعينة والحظوظ المخترقة.

إنه زمن سديمي عاجز, زمن لقيط.

وكنا عراة.

نارالتوجس نهض من تحت الرماد نافضاً الغبارالعالق به, دفع ذاكرتي إلى طرح أسئلة كثيرة ممزوجة بالخوف, التحقيق, التعذيب, ترحيلنا من هنا, لكن إلى أين؟ في أي سجن سنمكث؟ شكل التعذيب القادم, هل سيكون أصعب وأمر, هل أكتفوا بما أخذوه منا أم أن هناك جولات كثيرة جديدة من التحقيق؟ رحت أمشي داخل المساحة الضيقة من الزنزانة في حالة عزلة كاملة عن العالم.

لم يكن في الزنزانة أي شيئ يلفت النظرباستثناء الأسرة وبقعة ضوء صفراء خافتة تتسلل من المصباح الكهربائي الضعيف.

كنت أصعد على السرير, أمد عنقي إلى الأمام, أتأمل زرقة السماء والفضاء المفتوح من خلال الفتحة الصغيرة العالية.

تحول الماضي إلى طائر طليق يحلق فوق أجنحة الروح.

حاولت أن أفرش الخطوط الطويلة والعريضة لمصالحة المكان, لبناء علاقة من نوع جديد مع الأشياء, علاقة مختلفة, متناقضة, متصالحة, رفض وقبول, ثم رفض وقبول, رفض المكان المغلق وقبوله، قبوله مرغماً، رغماً عني في محاولة التواصل مع الحياة الجديدة من خلال الألم والتواطؤ معه حيث الحسرة والجفاف والرغبات المدفونة والمكبوتة. أمد الخطوط العريضة لأتواصل, لأجتاز البوابات العالية والمسافات الزمانية المحكومة بعلاقة مباشرة مع الجدران المسورة, بعلاقة مع الحكايات الغريبة المختلفة، بالأحلام المختلطة المشوشة، في مكان جامد ومتصلب ومتصالب. أرسم مرآة وهمية للذات والآخر. أدخل حدود الصمت والعزلة بمرارة, أدور وأدور في دوامة التكرار والتفسخ.

حاولت التماسك والبقاء قوياً, لكن المسافة الوحشية المزمجرة, المسمرة الرأس تطول وتطول، والمساحة البكماء الضيقة تضيق وتضيق ليتحول المكان إلى فضاء سديمي مغلق ومسدود, فيهرب الزمن الجميل من يدي ويضيع, يصبح سنبلة ذابلة, ويزداد ذبولا على ذبول, تتذرى وترحل مع كل درجة من البقاء, مخلفة توازناً هشاً ومائعاً.

القديم يرحل إلى لا رجعة, يعبئ مكانه عالم مفكك, مفتت, ومفتوح الاحتمالات.

رحت أهجس, هذا البحر الممتد إلى لا مدى, كيف يمكن ترميمه, هل أنا الذي كنت في ما مضى من الأيام, هو أنا الذي هو عليه الآن, كيف؟ توقفت قليلاً ثم قلت, لماذا أعذب نفسي مكررا قولي في سخرية قديمة, كم من الأشياء الجميلة تغيرت وتبدلت في داخلي خلال فترة قصيرة, هذه الفترة, مسحت كومة من الأحلام وكومة من الأماني والآمال الجميلة. غرقت في نبش روحي, قلت, هل سأكون أنا الذي كنت, الذي عرفته وألفته, هو الذي سأكون عليه في المستقبل, وكيف؟ هل مازال عقلي وقلبي هو هو كما كان أيام زمان, قبل أن تطأ قدمي ديار الغربة أم تغير وتحول إلى منفى وغربة هو الآخر. أسئلة كثيرة تضرب دماغي ونخاعي الشوكي في كل لحظة ودقيقة؟

عدت إلى موضعي غارقاً في تأمل الأشياء من حولي, أقول لنفسي, ماذا نفعل؟

طرقنا الباب بقوة جاء على أثر ذلك المساعد من الشرطة المدنية. طلبنا منه الذهاب إلى الحمام. قلنا له, لم نغتسل منذ مدة طويلة, أجسادنا وثيابنا وسخة, عليها أثارالدم والعرق وعفونة الأماكن الرطبة, نحتاج إلى القليل من الهواء والشمس من أجل إزالة اللون الأصفر من على وجوهنا, أن نحلق شعرنا, الرأس والذقن. وقف قليلاً متسمراً في مكانه. حك ذقنه ثم ألتفت يميناً وشمالاً مخافة أن يراه أحد عناصر الشرطة. قال بصوت خافت ضعيف, ماذا فعلتم, لماذا أنتم هنا, ما هو جرمكم. قلت, لم نرتكب أية جريمة. رد وعلامات الخوف بادية عليه, إذاً لماذا أنتم هنا, بالتأكيد فعلتم شيئاً لا تحمد عقباه وإلا لماذا عزلوكم في غرفة ضيقة بعيدة عن السجناء الآخرين. بالتأكيد أنتم خطرون. قلت, صدقاً لم نفعل شيئاً, لدينا آراء سياسية مختلفة عما تفكر به الحكومة. قال, إذاً, أنتم سياسيون. قلت, نعم, هو ما تقول. سد الكوة ولم يعد. انتظرنا أن يتبدل هذا المساعد بعنصرآخر أقل خوفاً واكثر تفهماً لمشكلتنا.

في المساء طرقنا الباب مرة أخرى ورحنا نرجو المساعد من أجل الذهاب إلى المرحاض. كان يردد دائماً, لا أستطيع أن اتصرف, أنتم أمانة في عنقي, ليس لدي أوامر. قلت له, أطلب من الأمن السياسي أن يسمح لنا. قال, انتظروا قليلاً. عاد بعد ساعة. قال, لقد سمحوا لكم بالذهاب إلى المرحاض مرتين في اليوم, لا تطرقوا الباب أبداً وإلا ستجلدون.

مسكني الشرطي من ثيابي وأخذ يجرني عبر ممر ضيق يصل طوله إلى عشرة أمتارثم دار إلى اليسار. قال, لا تلتفت أبداً, نحواليمين أواليسار, لديك دقيقتين فقط من أجل أن تنتهي.

على هذا المستوى من القرف كان الاضطراب يلقي بظلاله المرعبة على هذه الفسحة الحوارية الغاصة في الحلق, لا تخرج إلا لتخلف وراءها حزن على حزن, تراكمات موجعة, هوة كبيرة من الألم يصعب ترميمها بسهولة مع الزمن.

أنكفأت على نفسي وعلى فمي بقايا زبد وتلال من المشاعر الغاضبة الجامحة تستيقظ لتبق بين عضلة القلب أوبين دفتي الصدرالمتعب. لم يغير من هذه المرارة إلا فسحة الأمل القادمة من الأبواب الخلفية للحياة.

رحنا أنا ومحمد خير نتكلم عن التحقيق, عن الرفاق القريبون والبعيدين, عن قدراتنا على حماية أنفسنا ورفاقنا, مقدار الخسائر التي تلقيناها, أساليب التحقيق والتعذيب.

عندما وضعت رأسي على الوسادة جاءني طيف, كومة من الأطياف والاندفاعات الحالمة, المنبهقة من شروش الذاكرة. رأيت أمي تفرش شعرها الجميل على الأرض وتمده كوسادة ليسرح الخابورعليه. ودونما شعور مني، سألتها, أمي الحبيبة, أماه, من أين يأتي هذا الماء كله. أجابت باختصار وفرح بعد أن ربتت على كتفي ضحكت وقالت, من زرقة السماء والتماعة البرق والرعود, من حمم البراكين وأوراق الشجر, من الينابيع الصافية كقلبك. هناك على حدود الشمس وعلى مقربة من النارالدائمة ثلاثمائة وخمسة وستون نبعاً يرفد النهربالأخضرالحلو.

كنت قلقاً منذ كنت رضيعاً, في اللفافة أوعند الاندفاع إلى الأمام. كثيرة هي الاسئلة والالتباسات, ادوخها باستفساراتي:

هل لك أن ترسمي لي هذه الشهوة المبدعة المندفعة من الأرض وتضعيها بين يدي. أين هي هذه الينابيع؟ تصمت وتغرق في أفكارها ثم تنطق بصوت مسموع:

الينابيع تخرج من شهوة الأرض وحبها للكون, من جوفها الآمن, من النوافذ المفتوحة في الجبال والسطح. ينبع من الفراغات الحميمة للتراب, من كل مكان آمن. الينابيع ليست بعيدة من هنا, أنها عند مرمى قلبك بالقرب من فؤادك وكبدك ومن كل خلية منك. يجتازالكثير من السهب والسهول والبوادي الحنونة, يرحل عن الينابيع ويمشي الى الغرب, يتمايل كخصر حسناء غانية, يحرك كتفيه وصدره, يشكل أنصاف دوائر, ثلاثة أرباع الدوائر, يرقص ويرسم دوائر خطرة. من هذه الأصقاع خرجت. وأشارت بيديها الى القلب والينابيع, الصرخة الاولى, طراوة البشر والشجر, ونبتت شقائق النعمان وزقزقت العصافيروضحك القمر وغرد.

تعود أمي لتفرد الخصلات الأخرى من شعرها لتمده لنا. تقول, أمشوا فوقه.

تمسك يدي بيدها اليمنى وفي اليد الأخرى يد أختي أنجيل, نسير في شوارع الحسكة الجميلة والنظيفة, الفردوس, فلسطين, نمر أمام الفرن, نشم رائحة الخبز الطازجة, نتبضع السكاكر والحلويات والشمس, نمشي على الارصفة الغاصة, وعند اقترابنا من المدرسة نشاهد البرج العالي للكنيسة, نمر بجانبه, ندخل الباحة الجميلة والنظيفة, نشاهد الهيكل والشموع المضيئة, غرفة الناطور القريبة منها, نقف في الطابورونحيي العلم وننشد..

في مدرسة اللواء الخاصة للأرمن الأرثوذكس..

المطران أنترانيك بجلبابه الأسود الطويل, بوجهه المليح, ولحيته السوداء المشذبة وقامته الطويلة, واقفاً عند السبورة, يحرك يديه ويتمايل, ينشد ويدندن بصوت عذب ورخيم ونحن نردد وراءه بفرح طفولي غامر..

شعارنا على الزمن عاش الوطن, عاش الوطن, بعنا له يوم المحن أرواحنا بلا ثمن..

أعود إلى السريرالأسود المأكسد والضيق, أعود إلى الخوف, أجول داخل جبال من الاسئلة, إلى متى سنبقى هنا؟

- لا أعرف؟

وتزداد الاسئلة الملحاحة, مصيرنا, ماذا يخططوا لنا, ماذا يخبئوا لنا من كوابيس ليلية حقيقية؟

كان السجن على مقربة من الطريق العام.

كثيرة هي المرات التي كنت أمر من جانبه في سيارة العمل. الآن, في هذه اللحظات الكئيبة, داخل سرير القيد أصغي للصوت القادم من الخارج, صوت السيارات, استيقظ باكراً وانتظر اقتراب الساعة السابعة صباحاً. أقول لمحمد خير, أتسمع صوت السيارات, إنهم زملائنا في الطريق إلى العمل. أتراهم يعرفون إننا هنا, في هذا المكان المغلق. إنهم طلقاء في هذا الفضاء الواسع من العالم. يذهبون كل صباح إلى عملهم كما كنا نذهب ويعودون في الساعة الثالثة بعد الظهركما كنا نفعل. كنت أزعج صديقي, هل سيسرحوننا من عملنا؟ هل سيقطعون رواتبنا؟ وعندما نخرج من السجن ماذا سيكون مصيرنا؟ هل سيتركونا كما دخلنا السجن؟ أم إنهم سيطاردوننا مرة أخرى. هل التقيت بمعتقلين سابقين؟ ما هي مدة اعتقالهم؟ تهمهم, كيف خرجوا من السجن؟ هل قدموا للمحاكمة؟ كيف ومتى وأين؟

كنا نتبادل المشي داخل الغرفة الصغيرة أو الزنزانة. يتكلم كل واحد عن ماضيه, أحلامه وأماله, عن الزواج والبيت والأولاد. نروي القصص والحكايات, نحاول الهرب من الحصار, لأن صلتنا بالحاضرأضحت معدومة.

مع الأيام خف ضغط الشرطة المدنية علينا قليلاً..

سمحوا لنا أن نغسل ثيابنا ونستحم, كما أدخلوا لنا مرة إبريق شاي ساخن. زيادة على ذلك استطعت أن أرى مهجع السجناء الأحداث القريب من المرحاض والحمام. مهجع مؤلم للغاية, فيه أطفال صغار يبكون طوال الوقت في مكان مظلم وكريه تنبعث منه روائح الشحاروالسخام من البوابيروررائحة الكازوالمراحيض. غرفتهم دون شبابيك تهوية. كنت أقول إن بقي أحد هؤلاء الأطفال مدة سنة في هكذا مكان سيقصف عمره إلى الربع نتيجة انعدام التهوية والتنفس الطبيعي. كما كنا نشم رائحة قلي الفلافل وصراخ باعة المشبك من داخل برج السجن, عوامة.. عوامة. يبدأ مواله الساعة السادسة مساءاً وإلى العاشرة منه. لكن الدخان يبقى عائماً داخل البرج والمهاجع من أول المساء وإلى الصباح.

عندما فتحوا الباب كنا نياماً, منغرزين في لعبة الوقت والتشظي نرفرف مع العصافير الخائفة فوق أجنحة الفزع, نرسم على المدى أحجية للزمن, نركب لها ألواناً متناقضة, بيضاء وسوداء.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحاً عندما دخلوا الزنزانة بسرعة ودون إنذار مسبق أوإشارة تنم عن قرب مجيئهم. خلال ثوان قليلة كانوا فوق رؤوسنا كالطحالب السامة. بعيون قلقة وقع نظري على خمسة كلاب مدربة واقفة في فم الباب تصرخ بصوت منحوس, قف.. قف بسرعة, يداك وراء ظهرك! قف.. قف بسرعة.. بسرعة!

كنت أريد استعادة المشهد, أكوّن صورة عن الواقع الجديد, وبلا شعورمني وقفت على أقدامي مرتعشاً ومرتبكاً. وبدون إرادة واعية مني سلمت له يدي المرتعبة, جسدي كله يرجف من التحفز المباغت, وقلبي بين دفتي صدري يقرع من الخوف والتيقظ السريع. قال مرة أخرى وبصوت حاد, يداك خلف ظهرك بسرعة. مددت له يدي, لفها إلى الخلف, وضع الأصفاد فيها.

لم أكن قد تمالكت نفسي بعد, نظرت إليهم بعيون مملوءة بالحزن والانكسار العميق, ودون أن أعرف ماذا أفعل رحت أنفذ أوامرهم.

لم أكن أنا الذي استيقظ في تلك اللحظات, إنما ذاكرتي العجوزالمتعبة, الذاكرة التأريخية الخائفة, الذاكرة المشكلة من توجس وقلق, ذاكرة ضاربة في الجذوروالعمق. رأيت أمامي جسد سبارتكوس المصلوب والمدمى والممزق يئن ويبكي من الحسرة والألم.

استيقظ كل شيء بسرعة. أعادني إلى الماضي السحيق, إلى آلاف من السنين إلى الوراء, تراكم متقادم. راحت ذاكرتي تزيح ذاكرة النوم, تدفعها إلى الأمام كي تتسلل هاربة من أجواء المكان الكريه بسرعة كبيرة لتفسح المجال لمعرفة ما يحدث أمامي من احتمالات أكيدة ومختلفة.

لم يفتح لساني على النطق, بقي عاجزاً عن الحركة وراح جسدي وذاكرتي القديمة ينفذان ما يطلب منها.

وقفنا, أنا ومحمد خيربينهم لا نعرف ماذا نفعل, أيدينا مكبلة بالأصفاء خلف الظهر, وجوهنا صفراء متعبة.

تدخل أحد عناصر الشرطة المدنية بلباقة وأدب جم قال, دعهم يا سيدي يغسلون وجوههم ويجهزون أنفسهم للسفر! وأردف, وضع الأصفاد واليد ممدودة إلى الأمام أفضل من أن تكون مطوية ومشدودة إلى الخلف, نحن نفعل هكذا أثناء نقل أحد الموقفين لدينا. نظرمسؤول الرحلة من جهاز الأمن السياسي شزراً إلى الشرطي لكنه لم ينطق بحرف إنما استحسن الفكرة وسمح لنا أن نغسل وجوهنا. فك الأصفاد وربطها من جديد وأيدينا ممدودة إلى الأمام. الحقيقة لا أدري لماذا اقترح ذلك الشرطي تلك الفكرة رغم خطورتها عليه. ربما عرض نفسه للخطر والمسائلة, لكن سأبقى طوال عمري شاكراً لهذا الإنسان لما قدمه لنا من مساعدة.

ساروا بنا عبر ممرات سجن الحسكة الكبير, وعناصر الأمن السياسي تحاصرنا من كل الجهات إلى أن وصلنا إلى قرب السيارة التي كانت بانتظارنا.

قبل أن يدخلونا في السيارة حمل كل فرد من أفراد الدورية بارودته ووضعها في حضنه قبل أن تنطلق السيارة.

كان ذلك يوم الخميس الواقع في 1987/12/3

بعد أن جلسنا في الصندوق الخلفي للسيارة, أدار السائق المحرك وراح يقودها بصمت مطبق كصمت الأموات.

كان الطقس بارداً في ذلك اليوم الكانوني, الرياح شديدة السرعة, تصفر مزمجرة.

كنت جالساً في دائرة الحزن, ملفوفاً بصمت أخرس, بروح ذابلة, ندت مني غيمة على مشارف السؤال, لماذا هذا

البرد اللعين ليس كعادته في مثل هذا الوقت من الأعوام السابقة, ما الذي دهاه وغيره بهذه الطريقة.

كانون ذلك العام كان شرساً, سكراناً, مجنوناً يرقص باضطراب وقلق. نظرت إلى رذاذه, غيمه الكثيف, ضبابه المغبر, السلاسل, الانتظارالطويل, الصعب والملل, ومراقبة عما ستنجلي عنه الحكاية الطويلة. تنهدت قليلاً وزفرت أكثر. قلت, دائما الواقع المقلوب على ظهره ووجهه يغلبنا.

أحسست أن العالم كله فوق كتفي. الأصفاد تعص على معصمي, تطوق روحي بمعدنها الأملس الناعم. أنظرإلى الأغلال, انتظرمرور اللحظات المتعبة لأبقى على قدمي. هذا الواقع الصعب يقذفنا من سجن إلى سجن, ومن زمن مفكك وغامض إلى زمن غامض ومفكك.

وسط هذه الإنقسامات وفي ظل اللحظات الطويلة من الخراب والصمت, المسافات ترتد على نفسها وتنكمش. وحده المحرك يدوروفق حسابات مدروسة بدقة. الآلة تدور, تلتف على بعضها بشكل دائري, تخط سيرها ملتوية ترفع حوض الطريق وتمتد على جسده ذي المسافة الطويلة.

صارسجن الحسكة وراءنا. قطعنا دوارالسبع بحرات, أخذ السائق طريق دير الزوردمشق.

ضوء الشفق الشاحب تسلل من النافذة الصغيرة. ثمة ضباب هاجع, مستقرفي اللأمدى.

كنت صامتاً في ذلك الصباح الحزين, دمي يسيل بمرارة, فارداً ذاكرة خرساء على السكون, مغمض العينين, مطأطأ الرأس والجبين. أنفاسي تتسارع في ملء الهواء ودفعه. قلت, الحياة كومة أحزان وموج نبض هارب.

عيني متيقظة, تنظر الى فحيح الأفعى الملتوية, الطريق الأسود. كان الخابورعلى الطرف الأيسريطل علينا بين الحين والأخربجماله وبهائه ورقته, مغروساً في جذور الارض, يضحك للشمس والقمر. لقد بقي عنيداً, يصنع أعياده وتقاويمه, نواميسه وطقوسه. سفوح من السنين مرت على جسده, كواكب كثيرة مشت على جانبيه, بينما هويسيرويبتسم ويغني للحياة والديمومة.

كنت أنظرإليه وأزفر. قلت لنفسي, منذ سبعة سنين, كنت أذهب على هذا الطريق يومياً إلى موقع عملي في منطقة الشدادة التي تبعد عن بيتي خمسين كيلومتراً بسيارة اللاندروفر, نبني محطات تصفية المياه الخامية, خزانات عالية وأرضية في ناحية أم مدفع والطربمات والسويطية والرشيدية وسالم وغيرها.

كانت الأمم المتحدة تدفع تكاليف المشروع لاستجرارالماء من الخابور الرائع عبر ثلاثة محاور, كل محور يمتد إلى طول خمسين كيلومتراً في عمق بادية الجزيرة السورية. كنا نجول في أعماقها, نتحمل حرالصيف القاسي وبرد الشتاء القارس مع الأخوة والأصدقاء, العمال والفنيين والمهندسين. كنت أرى وأشاهد أراضي البادية وهي تزرع بالقمح والشعيربطرق غير شرعية لصالح المحافظ حسين حسون ورئيس المخابرات العسكرية محمد منصورة وفؤاد بدر حسن رئيس فرع المخابرات السياسية وغيرهم عبرشركاء وهميون. كانوا يزرعون البادية المحرمة زراعتها دولياً لكونها محمية طبيعية, من أجل الحفاظ على التربة والأعشاب والحيوانات الأهلية والبرية المهددة بالانقراض. لهذا وجب أن تبقى البادية بورمن أجل الرعي والبقاء على هذه الكائنات الحية.

في مواسم الجنى شاهدت سياراتهم الفارهة, المرسيدس السوداء واقفة أمام مكاتب تسويق الحبوب قرب مخفرشرطة السبعة وأربعين من أجل حجزالدورالأول لتسويق شاحناتهم, سرقاتهم من المال العام, مرصوفة على طول الطريق, محملة بمئات الاطنان من القمح والشعيرمن أجل تسفيرها وقبض شيك أثمانها.

أعود إلى القيد, التفت يميناً ويساراً فأرى وجوه عناصرالأمن السياسي, حراس اللصوص, تحاصر روحي وأنفاسي.

نقترب من الخابور أكثر فأكثر عند ناحية الشدادة, نودع محطة التصفية, النهرالنائم على الجهة اليسرى من الطريق. ربما لا أستطيع أن أصف مقدارالحزن والألم الذي انتابني في تلك اللحظات المأسورة من عمر الزمن الصعب.

لكن الخوف غربة مضاعفة.

لم يسمح لنا رئيس الدورية بالكلام على الأطلاق.

كانت السيارة تتابع سيرها الطويل بسرعة هائلة تصل إلى 150 كيلومتر في الساعة. عبرنا الشدادة, مركدة, محافظة دير الزور. عيني مسمرة على الطريق الطويل والغامض, على الشمس المختبئة خلف الغيوم الراحلة, تاركاً خيالي يسرح في ثنايا بادية دير الزرو – تدمر – دمشق, أكوام الغبار تتقافز في الفضاء وتحط على الطريق ثم تسحب ما تبقى منها وترحل مرة أخرى إلى موضع آخر.

في منتصف الطريق سمحوا لنا أن نبول في الفلاة والقيد بأيدينا, بعدها تابعنا سيرنا على نفس المستوى من السرعة. قطعنا خلالها حوالي سبعمائة كيلومترحين دخلنا دمشق بحدود الساعة الواحدة ظهراً.

توقفت السيارة أمام مبنى عالي في وسط دمشق, ترجل مسؤول الدورية ودخل فيها. بقينا أنا ومحمد خيرفي السيارة مقيدين برفقة بقية العناصر. بعد نصف ساعة جاء رئيس الدورية تصحبه مجموعة

أخرى من العناصر. بعد أن دخلنا المبنى فكوا قيودنا, طلبوا منا أن نقف على الجدار ووجهنا عليه دون أن ننطق بحرف. سمعت صوت حديث خافت يخرج من غرفة بابها نصف مفتوح ونصف مغلق, يقول, خذوهم, رد عليه الآخربصوت خافت, ذليل, ليبقوا عندنا بضعة أيام يا سيدي, لكن الصوت الآخر كان أقوى, رد عليه بلهجة آمرة, لا حاجة لنا بهم هنا, خذوهم. بعد نصف ساعة من هذا الحديث قيدونا مرة أخرى وساروا بنا إلى سيارة مكروباص بيضاء اللون نصفها الخلفي مشبك. صعدنا إلى داخلها وساروا بنا إلى جهة مجهولة.

إلى تلك اللحظة كنت أقول في سري سيأخذوننا إلى مكان ما كي يضعونا في زنزانة, كوديعة من أجل تمريرالعطلة الأسبوعية لليلة الجمعة والسبت, بعدها سيبدأون التحقيق معنا مرة ثانية في بداية الأسبوع القادم, أي يوم السبت.

ابتعدنا عن دمشق مسافة عشرين كيلومتراً نحو الجنوب إلى أن وصلنا إلى سور طويل عليه أبراج في عدة مواضع يقف على كل برج شرطي. اقتربنا من باب حديدي كبيرطوله بحدود ثمانية أمتار. وقف المكروباص عند مدخله, ترجل أحد العناصر, تكلم مع الحراس, بعد قليل من هذا الحديث فتح الباب بمنتهى الاحترام فدخلنا إلى ساحة السجن الكبير. قادونا إلى باب حديدي كبير هو الآخر, فتح لنا ودخلنا فيه فتلقفنا باب آخر بنفس الحجم, فتح هو الأخر. ساروا بنا إلى أول باب على اليمين. باب بعرض متريفضي إلى درج يوصلنا بالطابق الثاني. دخلنا مكتب فيه عناصر, لباسهم مدني. طلبوا منا أن نقف على الجدار. راحوا يفتشوننا. أخذوا الهوية الشخصية منا وقيدوا أسماءنا عندهم. تكلم أحدهم مع محمد خير وصفعه على وجهه بقوة. قال, لم تتأدبوا بعد. بعد قليل رن الجرس, دخل عليه أحدهم, قال له خذوهم إلى المهجع السادس, مهجع الإخوان المسلمين.

عندما خرجنا من المفرزة تلقفنا باب حديدي ضخم يمتد من الجدار إلى الجدار, بعد أن مشينا بضعة أمتار أخرى تلقفنا باب آخر, فتح لنا. قال الشرطي, ادخلوا.

كانت شمس ذلك اليوم مرخية الجدائل, مسبلة الجفنين.

نظرت إلى الجدران المزنرة بالعلووالصمت, المهاجع, الممر الطويل, الأبواب. أراقب المكان الذي سيحتوي قلبي وروحي, حريتي, آهاتي للنداء الآخر. تأملت الباحة رأيت كل شيء يصدني. أضحت الحياة صندوق مغلق مفتاحه بيد سجان, جلاد متوحش.

صار الخابور بعيداً, أملاً. رائحته, سحره, قربه من السماء, أشعة شمسه الحنونة, بوهيميته وجنونه, فرحه الدائم.

مشينا في الممر بحدود عشرة أمتارإلى أن صعدنا بضعة درجات أخذتنا إلى فسحة طولها خمسة أمتار, ثم بضعة درجات أخرى, صرنا في الممرالطويل, يمتد إلى طول مئة وعشرون متراً, من المهجع الثاني إلى الشبك الحديدي للمطعم, يطل على ستة مهاجع, بين المهجع والآخر باحة, وعلى إطلالة كل باحة نافذة كبيرة عليها شبك معدني سميك يمنع الرؤية ويكون بمثابة عازل حتى لا يرى سجناء الحق العام السجناء السياسيون وبالعكس.

وصلنا إلى الباحة الرئيسية وهي بحدود عشرين متراً في ثمانية عشرة متراً. كان الباب مفتوحاً فوقفنا على مصطبة الدرج ورحنا نتأمل الغيوم المتناثرة في قبة السماء. في هذه اللحظات اقترب منا أحد السجناء لأبساً بيجما زرقاء, سألنا بلغة مباشرة, هل أنتم سجناء الحق العام أم سياسيون, قال محمد خير, نحن سجناء سياسيون. أردف, من أي تنظيم.

الحقيقة استغربنا من أسئلته المباشرة والواضحة, اهتمامه وصراحته التي لم نعتادها خارج السجن. رد عليه محمد مرة أخرى, نحن من الحزب الشيوعي / المكتب السياسي/. رحب بنا وقال, تعالوا معي إلى المهجع الثاني, أنه مهجع رفاقكم. استغربنا من وضوحه مرة ثانية. سألناه, هل يوجد هنا سجناء سياسيون. قال, نعم. وأردف, المهجع الثاني هو للحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/, أما المهجع الرابع فهو لحزب العمل الشيوعي, والسادس للإخوان المسلمين, والثامن للنقابيين, نقابتي المهندسين

والمحامين, والعاشر للتنظيم الشعبي الناصري والثاني عشرلأطفال أحداث الشغب مع بقايا سجناء الحق العام من جرائم صغيرة أو كبيرة وخاصة الجرائم الاقتصادية. توقف قليلاً وراح يشير بيديه على كل مهجع بينما نحن نمشي معه. قال, لكن في كل مهجع قوى سياسية متنوعة. ففي المهجع الثاني العدد الأكبرفيه هو للحزب الشيوعي, المكتب السياسي معهم أربعة أشخاص من حزب العمل الشيوعي, وخمسة من حزب البعث العربي الاشتراكي/ العراق/, بينما في المهجع الرابع الأغلبية من حزب العمل الشيوعي لكن فيه ستة من حزب البعث العربي الاشتراكي/ صلاح جديد/ وواحد من حزب العمال الثوري العربي وواحد من الحزب الشيوعي/المكتب السياسي/. بينما في المهجع السادس بالإضافة إلى تهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين يوجد اثنان من حزب التحرير الإسلامي وواحد من التنظيم الشعبي الناصري وستة من حزب البعث العربي الاشتراكي/ العراق/, أما المهجع الثامن فيه ثلاث أفراد من نقابة المحامين وثمانية من نقابة المهندسين وثلاثة من المتهمين بالانتماء إلى الإخوان المسلمين مع مجموعة من الرهائن منهم الشيخ أبوسليم وولديه وصهريه وجميعهم من محافظ درعا. أما المهجع العاشر ففيه التنظيم الشعبي الناصري مع بعض الرهائن أيضاً, أزواج بنات الشيخ الجليل مع فردين من حزب العمل الشيوعي وواحد من حزب البعث العربي الاشتراكي/ صلاح جديد/.. وبعض المتهمين بالانتماء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي/ العراق/ مع بعض الأفراد من أحداث الشغب. أما الثاني عشر فهو خليط عجيب من كل الأنواع سأمر عليه لأحقاً. ثم أردف بصوته الجهوري العالي, جميع السجناء لهم مدد طويلة في السجن, تنقلوا بين عدة سجون, التحقيق العسكري, القوى الجوية, سجن القلعة, الشيخ حسن ثم عدرا. سأل:

هل جئتم من سجن الشيخ حسن أم من فرع التحقيق. رد عليه محمد خير باقتضاب, جئنا مباشرة من سجن الحسكة. لم نمرعلى سجن الشيخ حسن. رد عليه السجين القديم, هذا فال خير, إنه سجن صعب للغاية, وقديم جداً. زنازينه تبعث على الكآبة من اللحظة الأولى.

ما أن دخلنا المهجع حتى صرخ بصوته الجهوري والعالي وموجهاً كلامه للجميع, لديكم رفاق جدد, معتقلين جدد.

نهض الجميع من على أسرتهم واقتربوا منا, سلموا علينا بحرارة وعلى وجوههم علامات حزن دفين. كانت أكثر الكلمات التي تتوارد منهم, الحمد لله على السلامة, لا تخافوا, مرحلة التحقيق انتهت ما دمتم هنا. لن يأخذوكم من هنا إلا إذا استجد شيء جديد لديهم, أي لدى الأجهزة الأمنية. ثم طرحوا علينا بعض الاسئلة:

- هل هناك معتقلون جدد؟ هل هناك ملاحقون؟ عددهم؟ من أية أحزاب؟ هل هناك حملة جديدة على الحزب؟ الأحزاب الأخرى؟ ما هو حال الشارع.؟ وضع الناس والأحزاب؟ نشاطها؟ وضع السلطة وعلاقتها بالمجتمع؟ أسلوب التعذيب, هل هو قاسي؟ أم أن الأجهزة مسترخية؟ من خلال الإجابات البسيطة تتولد لدى السجين القديم الذي أمضى سنوات طويلة في السجن انطباع عام عن الحياة لظنهم أن السجين الجديد, القادم من الحياة العامة يعرف كل شيئ لهذا يتفحصون كل كلمة وكل حرف يقولها. يحللون هذه الكلمات ويركبونها كأن قائلها أنزلها من نص مقدس لإحساسهم بأن السجين الجديد مطلع على أخبار الوطن كله, اوضاعه العامة والخاصة. ذلك لأن محيط السجن صغير فيتحول العالم الخارجي لديه إلى جزيرة صغيرة, جميع الناس يعرفون بعضهم.

يحس السجين القديم بالكآبة عندما يستقبل سجين جديد, يتولد لديه إحساس بالنفور والعجزلشعوره أن السلطة مستمرة في البطش والاعتقال, وأن لحظة الانفراج بعيدة جداً, وسجنه عائم ومستمر, وسيف السلطة مشرع, سيف خارج من غمده يضرب كل من يقف في طريقه. تتوالد لديه أسئلة حارقة ومؤلمة, متى سنخرج من السجن؟ وبأية ظروف؟ الشروط التي ستدفع مقابل الخروج من السجن. كما يعرف أن خروجه من السجن مرتبط بجملة شروط محلية وإقليمية ودولية.

بل لدى السجناء القدامى تجربة معروفة مع هذ النوع من الأنظمة, حيث يوضع السجين في السجن دون سؤال أو جواب إلى أن يتعفن أو ويموت من القهر والغم ولا يخرج إلا في ثلاث شروط, إما جثة هامدة

أو مرض مستعص كالسرطان أو غيره من الأمراض تؤدي به إلى القبر أو بعفو مشروط من رأس النظام يتحول فيها صاحب الحق/ السجين/ إلى دمية بيد السلطة.

كنت بين جدران الأمل أنظرإلى ما حولي, بشر وأشياء, كصور متنقلة أو حلم غريب الأطوار, مثبتاً بصري على الوجوه, على ابتساماتهم المرهونة للزمن, على القدر الكبير من المرارة والقهرالمدفونة في حدقة أعينهم. في داخل كل واحد منهم صورلحنين وأمل بعيد. أرواح مركونة في عزلة بعيدة, غابت عنها ألوان الحياة والفرح, تعيش في ظل حصار كبير. كنت أنظر إلى السجناء, إلى وجوههم الصفراء المتعبة, أعمارهم المركونة في زوايا الاهمال, كل واحد داخل سرد مغلق, سرد صامت, تبتلعه كلماته المخنوقة في حنجرته.

تكوموا علينا رفاقنا في المكتب السياسي, أحمد فايز الفواز, عمر قشاش, نقولا الزهر, مصطفى حسين, أمين مارديني, عدنان أبو جنب, عدنان مقداد, المرحوم حمزة حبوس, يوشع الخطيب, المرحوم رضا حداد ومنير الحصني, مزيد سلوم, محمود جلبوط, غياث السيد علي.

حدق أحمد فايز الفواز فينا وقال, الحمد الله على سلامتكم. في هذا المكان, الشيء الوحيد الذي عليكم القيام به هو الاهتمام بصحتكم النفسية والجسدية. السجن مفتوح وطويل, أفاق الخروج منه ليس بيدنا ولا نعرف حدود بقاءنا فيه, لذلك عليكم مزاولة الرياضة اليومية الجسدية والذهنية. أن تنسوا الحياة في الخارج وتركزوا اهتمامكم على القراءة. يوجد في السجن مكتبة كبيرة, فيها كتب متعددة ومتنوعة, تأريخ, سياسة, أدب وفن, علم نفس, علم الاجتماع, اقتصاد وكل ما تحبون قراءته. الزيارات هنا كل أسبوعين للسجناء القدامى بينما زياراتكم ستفتح عندما يقررون ذلك, ربما بعد سنة أو أكثرهذا مرهون بتقديرات وأمزجة الأجهزة الأمنية.

كان عدد السجناء في سجن عدرا بدمشق في تلك المرحلة بحدود المئة والخمسين سجيناً سياسياً موزعين على مختلف القوى السياسية السورية المعارضة للنظام السياسي في سورية.

بعد فترة راحة واسترخاء جلب يوشع الخطيب المقص وتقدم نحوي, قال في إشارة موجهة لي:

تعال اجلس هنا, أشار إلى كرسي مصنوع من أربعة علب حليب كبيرة مربوطة بخيطان مجدولة. مسك رأسي مثلما يمسك مقود سيارة وراح يحلق شعري أولاً ثم شعر محمد خير ثانياًً. بعد الانتهاء من الحلاقة تقدم المرحوم حمزة حبوس منا وأعطى كل واحد لوح صابون مع شفرة حلاقة وشرشف أخضر. بعد الحلاقة تحممنا في مكان ضيق, متر في متر. بعد الحمام جلسنا على سرير نقولا الزهر المحاذي لسرير عمر قشاش, وكل دقيقة أو دقيقتين يدخل أحد السجناء من المهاجع الأخرى ويسلم علينا ويرحب بنا كأننا في عزبة أو مضافة عرب في صحراء مفتوحة الأبعاد لا ناس فيها سوانا!

الحياة في السجن خاضعة لشروط مرتبة ومنظمة لكون الكثيرمن السجناء لهم مدد طويلة تصل إلى سبعة أعوام ومرشحة لتبقى عشرات السنين الأخرى. الكثير منهم يتعامل مع المكان كأنه مكان دائم, بيته ووطنه, حياة مؤبدة. لهذا قسموا المكان بالسنتمتر وأعشار السنتمتر, كما علو حدود العلاقات الشخصية, هذا لي, وهذا لك, بدقة كبيرة سواء فيما يتعلق بالأكل, الحمام, تنظيف المراحيض, المهجع, غسيل الثياب, سماع الراديو, لحظات الاسترخاء والتأمل. لقد خصص كل مهجع لنفسه ساعتين من كل يوم يكون فيها الصمت كاملاً, يسترخي كل واحد على سريره كأنه يمارس اليوغا, أومثل ناسك في صومعة بعيدة.

كانت أسرتنا, الفرّش والوسائد مرمية على الجدار المحاذي للمهجع السادس.

بقينا ذلك اليوم بين رفاقنا إلى حلول الظلام, إلى حين إغلاق الأبواب أو ما يسمى وقت التأمين. يدور الشرطي كل يوم على المهاجع ويقرأ الأسماء ويتفقد السجناء.

دخلنا المهجع السادس مع أسرتنا عند الساعة الخامسة مساءاً. قرأ الشرطي أسمائنا ثم أغلق الباب من الخارج ومضى. وقفنا بجانب أسرتنا في ممرالمهجع بانتظار أن يجدوا لنا مكاناً. كان رئيس المهجع محمد خوجة من المتهمين بالانتماء إلى حزب التحرير الاسلامي يسعى إلى إيجاد مكان لنا. كانت

الأسرة بجانب بعضها على الطرفين, كل طرف يحتل إحدى عشرة سريراً على الأرض وهي الأماكن المخصصة للسجناء القدامى. أما الجدد, مثلنا فيوضع سريره فوق سريرآخر, سرير فوق سرير. أجرى خوجة القرعة على المكان فوقع اختياري على سرير بسام الأشقر, وسرير محمد خير فوق سرير حسين قلة, كلاهما من المتهمين بالانتماء إلى الإخوان المسلمين.

كان جل سجناء الإخوان المسلمين قد أمضوا السنوات السبعة من سجنهم في سجن تدمر العسكري قبل جلبهم إلى سجن عدرا. لقد نقلوهم إلى هذا المكان لأن السلطات لم تثبت عليهم أية علاقة مع التنظيم. لذلك قرروا الإفراج عنهم. لكنهم بقوا في السجن مدة خمسة سنوات إضافية قبل أن تقررالسلطة الإفراج عنهم بشكل نهائي في نهاية عام /1991/.

كانت الأسرة معدنية عرضها بحدود السبعين سم وطولها بحدود المترين, مثل أسرة الجيش والشرطة.

قال محمد خوجة بلطف ولباقة جمة, بعد الصلاة سنضع أسرتكم فوق الأسرة التي وقع الاختيار عليها. اصبروا علينا قليلاً, عشرة دقائق. لم نتكلم أو ننبس بحرف.

وقف مصطفى الشيخ حسن بين الأسرة, وجهه باتجاه الجنوب, وضع يده على أذنه وراح يؤذن الله أكبر.. الله أكبر.

الباقون كانوا قد انتهوا من الوضوء واستعدوا للصلاة في ممرالمهجع. وقفوا إلى جانب بعضهم البعض في خط مستقيم طويل يمتد من الجدار إلى الجدار في خشوع كامل.

كنت واقفاً مع محمد خير وتيسير المسالمة من التنظيم الشعبي الناصري في الزاوية الغربية من المهجع.

بعد الصلاة تحرك كل واحد في اتجاه.

كان في كل مهجع سخانتان موصولتان بسلك كهربائي من أجل تسخين الشاي وتحضير وجبة الطعام البسيطة والسريعة, بطاطا مسلوقة مع بصلة.

وضعت سريري فوق سرير بسام الأشقر, عدلت فراشي, وضعت الوسادة والشرشف عليه. طويت البطانيات الثلاث مع بعضها ورميتها جانباً ثم صعدت إلى الأعلى وجلست.

كان المطر يهطل بخفوت في الخارج, الرياح تصفر, تلسع النوافذ العالية بين الحين والآخر منذرة ببدء شتاء قاس وبارد.

رحت أنظر إلى حركة السجناء مستغرباً من صمتهم وشرودهم.

كل فرد منطوياً على نفسه, ملفوفاً بطبقة سميكة من العزلة, تاركاً مسافة بينه وبين الآخرين. كل واحد يحاول الإبتعاد قدرالإمكان عن الدخول في علاقة عميقة مع غيره حتى لا تسبب له هذه العلاقة من منغصات أومشاكل. يبتعد عن الأشياء التي تستفزأعصابه أوأعصاب غيره من السجناء التي أنهكها السجن ومدده الطويلة. راقبت حالة التوتروالقلق التي كان يعاني منها السجين, حركة الأيدي, شد الأصابع, التعابيراللاشعورية كالمشي أورمش العينين أوالأجفان. عندما كان يتكلم أحدهم, كنت أحس بنبرات الأنفعال والقسوة تصدر منه أثناء التعبير أوفي لحظات التكلم.

أغلب الكلمات التي تخرج من أفواههم تكون عصبية, مشدودة وهذا ينطبق على الجميع دون استثناء سواء كانوا شيوعيون أو أخوان أو غيرهم من المعتقلين.

تجربة السجن الطويلة علمت الجميع أن يهتم كل فرد بشؤونه الخاصة, يبذل جهداً إضافياً في محاولة السيطرة على انفعالاته ككائن إنساني محصور في مكان مغلق ومعزول عن المجتمع مدة طويلة, ولا يعرف متى سيخرج من هكذا مكان كريه. لقد وصلت لقناعة كاملة أنهم استسلموا لشروط القدر وتقلباته لعدم وجود انفراج في الأفق المنظور للخروج من هذا النفق المظلم.

أحسست بهذه الأشياء منذ اللحظات الأولى لدخولي هذه التجربة.

المعاناة اليومية كثيرة ومتعددة, كخوف السجين على أهله وأولاده وأسرته, المحاولة الصعبة والمملة لقتل الفراغ والوقت الطويل والرتابة, الاهتمام المرهق في معرفة أخبار العالم الخارجي ومحاولة التواصل معه.

كل فرد يحاول جاهداً أن يمرر الأيام بأقل قدر ممكن من الخسائر النفسية والروحية وتخفيف انعكاساتها عليه وعلى الذين حوله.

كنت أراها في السجناء القدامى منذ اللحظات الأولى.

عندما يوضع الإنسان في مكان خطير وقاهر يهدد وجوده ككائن وكيان, يلجأ هذا الأخيرإلى خلق آليات دفاعية معقدة تساعده على حماية نفسه من الانهياروالخراب, حتى يبقي على وجوده بشكل متوازن.

كان مصطفى الشيخ حسن ومحمد نحلوس على سريرواحد, الواحد مقابل الآخر في الطابق الثاني من السرير يحيكون حقائب من الخرز, ويعملون بصمت كامل بحيث لا يلتفتون إلى اليمين أواليسار وكأن شؤون العالم لا يهمهم. كل واحد طاوياً رجله تحته ويمضيان في رحلة قتل الوقت والانتظار.

كانوا في عمر الورد عندما اعتقلوا, في السادسة عشرة من العمر, كلاهما يحمل على ظهره وروحه جبل من الهموم والأحزان. لقد مكث كل واحد منهم مدة اثنتي عشرة سنة في السجن.

رحت اسرح بخيالي إلى البعيد مستغرباً من قدرة بلادنا على مواجهة الصعوبات القاسية والوقوف في وجه المحن وتقلبات الزمن وتحديه ومقاومته عبر عصور متعددة دون أن يلوح في الأفق بارقة أمل لاجتياز الويلات التي نمر بها.

على مبعدة قريبة رأيت شاباً طويل القامة في السنة الرابعة من دراسة للهندسة المدنية. لقد أخذوه من الجامعة, من بين كتبه ودروسه ورموه في هذا المكان. كان مضجعاً على الفراش ينظر إلى السقف شارداً يفكر, يتأمل ويبحر في مرافئ حياته العميقة دون أن يتحرك. طوال الوقت يسمر نظراته في السقف. وعلى مبعدة قصيرة رجل قصير القامة فارداً رجليه عابس الوجه والجبين. وفي الطرف الثاني أحدهم يحمل صحناً عليه طعامه المتواضع وغيره يدخل إلى الحمام. بعضهم يدخن السيكارة, يمجها بقسوة وصمت مطبق ثم ينفث دخانها في فضاء المكان المغلق.

كانت رائحة الدخان تمتزج برائحة الأنفاس, الطبخ ودورات المياه.

وراء كل واحد حكاية وقصة مطوية في صفحات النسيان. رحلة محفوفة بالألم والوجع. كل واحد يكتم بوحه في مدار مغلق. حزنه مدفون في قلبه, لمن يحكيه, ولمن يقوله إذا كان كل واحد منهم كتلة مصنوعة من قهروهم وألم. ووراء الإبتسامات العريضة التي تتوارد على محياهم عندما يتكلمون شجن عميق مخبأ في دهاليز قلوبهم.

هذا الزمن الأغبراستباح كل لون جميل وكل حلم حلو, لهذا يستحيل على المرء أن يتصالح مع هذا المكان, مع السجن.

كانت ذاكرتي تتوه وتبتعد يرافقها زوغان عميق, غفوة مؤقتة سرعان ما تستيقظ على لسع الوضع الجديد الذي أنا فيه.

راحت الأيام تمضي ببطء تحرق معها أجمل أيام العمر, زهوة الشباب وريعانه.

في السنوات الأولى كنت أحلم إنني خارج السجن وسط الأهل والخلان. أحلم في بيتنا, في شوارع مدينتي, أماكن العمل, على ضفاف نهر الخابور, رحلاتي مع فريق كرة القدم, الحبيبة التي انتظرتني سنوات طويلة. كثيرة هي المرات التي كنت استيقظ فيها على حلم جميل:

إنني في البيت, في سريري الخشبي, انفض عن عيوني لون النوم, استنشق رائحة قهوة أمي, جالساً معها, أنظر إلى شريط الدخان المتصاعد من لفافتها المحروقة. أرى نفسي إلى جانب أبي وأمي وأخوتي على سفرة واحدة نأكل ونضحك ونتحادث, نشرب الشاي أوالقهوة. نجلس في نفس الغرفة التي ضمتنا

فيما مضى من الأيام نتكلم, نناقش شؤون وشجون حياتنا اليومية والقادمة. لهذا كان عقلي وقلبي يرفضان السجن ولا يريدان لهذه الروح الطليقة أن تتأكسد وراء الجدارن الصدئة.

رحت أروض ذاكرتي الجديدة, أذهب في شرود, أرحل إلى مطارح الزمن المفقود, أداعب الكلمات المتمازجة, الكلمات الكلمات, أحط الرحال عند وجه حبيبتي, أقول لها عندما كنا نلتقي في الخلوات البعيدة عن العيون وهمسات الهامسين والفضوليين.

كانت لي كنسيم الروح الذي يختزن عذوبة الوجود, شهيق العمر وخلود الحياة. اسرح مع الأماسي التي ضمتنا, الأماسي الناضحة بالأمل. كان ذلك وقت احتكاك الموت بالحياة, الموج بالصخور الصلبة, العري بالبرد, الحلم بالكابوس. كنت أقول لها عندما كنا نلتقي, أنا يا حبيبتي مجدول منك وفيك, احس بالتمزق والضياع لبعادك عني. اهرب من الجدران التي تحاصر روحي وقلبي فألجأ إلى عينيك, أعود لك عندما اشعر بالكآبة من هذا المكان المقفر.

أكره الأماكن الضيقة التي تأسر روحي وتقيد حريتي.

عندما تشتد علي الأوجاع وتحاصرني الأماسي الحزينة أعود إليك, إلى قلبك الجميل لأبعد عن ذهني الانفعالات السوداوية التي تلتصق بي, لأهرب من البؤس والهمسات الخافتة المكومة داخلي, المتسربلة بقوة من فتحة الجدران وفراغاتها الموحشة.

في الصباح جاء الأخ والصديق نقولا الزهر وجلس معي على سريري. رحنا نتحدث ونشرب الشاي. كان المهجع بارداً والمصابيح مطفأة, الضوء الباهت القادم من وراء النوافذ العالية يبعث على الكآبة والقرف. بعده بقليل جاء رفيقنا مصطفى حسين. نزلنا ورحنا نمشي في الممر. كنت لابساً سترة صوفية ممزقة تتسرب من فتحاتها المقطوعة آلاف الذئاب الجائعة. يتسرب الهواء الى صدري ورئتي وبقايا جسدي الأعزل. كنت أضع يدي في جيوبي المثقوبة وأشدها إلى الأعلى لأحمي نفسي من البرد.

حاولت أن أمرر بضع خطوات في عراء المكان الضيق, في أرض مصنوعة ومصنعة من حدود متينة وحواجز عامرة. تتداخل الأفكار في ذهني ما بين ماض مضى وحاضر ضاغط وموجع.

كثيرة هي المرات التي كنت أضحك فيها من اهتمامات السجناء بالأشياء الصغيرة, دقتهم في متابعة ما هو عادي وعابر كإملاء الماء في الحوض أواهتمامهم بموضوع الدور سواء في الغسيل أو جلب الطعام. أقول لنفسي, لن يروضني السجن, لن أقبل أن اتحول إلى آلة تمارس الطقوس اليومية بمنتهى الحرفة والدقة, لن استسلم لهذه الأشياء أبداً, يجب أن أقاوم, أن أرفض هذه التفاهات.

نجحت قليلاً وفشلت أكثر.

كانت مصادفة مهمة وضرورية أن احتك عن قرب بالإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي وحزب البعث العربي الاشتراكي باتجاهاته المختلفة, اليسار واليمين حسب اللغة الدارجة في تصنيفات القوى والأحزاب السياسية المختلفة.

أن أرى وأشاهد بشراً من ألوان مختلفة تمثل الطيف السياسي العام في وطني. قوى وأحزاب متعددة من كل المحافظات السورية.

لقد جمع القمع والتنكيل كل القوى المعارضة في بلادنا تحت سقف واحد, جمعتنا المأساة, رفضنا للظلم رغم تباين آراءنا ورؤانا المختلفة.

كانت سورية في تلك المرحلة تمر في فترة عصيبة تحمل شعار من ليس معنا, هو ضدنا بالضرورة.

لقد كان بيننا ثلاثة رجال معتقلون من شركة سيرونيكس لتجميع التلفزيون, جريمتهم أنهم قالوا أن البيض مفقود من السوق. لقد مكثوا في السجن ستة أشهر دون زيارة من أسرهم وأولادهم. انقطعوا عن العالم الخارجي بقضه وقضيضه مثل أي معتقل سياسي له آرائه وأفكاره.

رحت افتح علاقات حميمة مع الرفاق والأصدقاء المتواجدين في السجن والمهجع. لم أكن أحس بحاجز نفسي أو روحي معهم.

اقتربت مرة من سرير عمر الزبداني وألقيت التحية عليه. قلت, مساء الخير, هل يمكننا أن نتعارف. ابتسم إبتسامة متواضعة. قال, مساء النور تفضل أجلس أهلاً وسهلا. سألني إذا كنت أرغب في شرب كأس شاي معدلة/ شاي المطعم مع إضافة الماء إليه. قلت, ماذا فعلت, ما هي تهمتك والأسباب التي جعلتك تبقى في السجن مدة طويلة. قال, لا تهمة لي على الأطلاق, كنت لاعب كرة القدم في منتخب الشباب. وقفت مذهولاً قلت, إذاً لما سجنت, لقد حيرتني. ما هو سبب اعتقالك؟ ابتسم مرة أخرى وقال, أنا رهينة, لقد وضعوني هنا إلى حين إلقاء القبض على أخي.

- إذاً أنت لست مطلوباً, أخيك هو المطلوب.

- نعم هو ما تقول. أخي هو المطلوب من الأجهزة الأمنية. وأضاف, لقد تنقلت بين عدة سجون, التحقيق, سجن القلعة, سجن الشيخ حسن وسجن عدرا الذي نحن فيه!

لقد بقي عمر الزبداني في السجن أثنتا عشرة عاماً وتم الافراج عنه بموجب عفو مشروط. لا ذنب لهذا الإنسان سوى إن أخيه يعمل في السياسة ومنتمي إلى تنظيم سياسي معارض.

عندما تغلق الأبواب أجلس على سريره نشرب الشاي ونتكلم في شؤون الحياة وشجونها, عن الأهل, كرة القدم.

كذلك كنت أجلس على أسرة الأخوة والأصدقاء وليد عرفات ومحمود الجعفري, حسين قلة وبسام الأشقر, أيسروأبو التاج نتحدث في قضايا متنوعة وهم من المتهمون بالانتماء إلى تنظيم الإخوان المسلمين.

كان لي دائماً وجهة نظر حول علاقات البشر مع بعضها البعض, أن لا تفسد السياسة العلاقات الإنسانية, أن توضع جانباً الخلافات الفكرية والسياسية عندما يتعامل الناس مع بعضهم البعض في تسيير شؤون حياتهم اليومية, أن لا تخلط العلاقات الشخصية بالجوانب الأخرى.

لقد ابتليت بلداننا العربية بأنظمة فاسدة ومنحطة على الصعيد السياسي والأخلاقي والروحي. السياسة الفاسدة, تفسد النفوس والأخلاق, تترك بين الناس مسافة وهوة واسعة من الفرقة والتشرذم لا يمكن ترميمها بسهولة ما دام كل واحد متمسك بموقفه, لذا كان تقربي من الجميع ودياً وأخوياً.

كنت أقول أن المستفيد الأكبر من خلافات القوى والأحزاب السياسية المعارضة هو خدمة مجانية للسلطة البوليسية الظالمة. عليهم أن يتفقوا على برنامج سياسي واضح يعمل على تغييرهذا النظام قبل أي شيئ آخر.

كانت تجربة الخمسينيات من القرن العشرين عبرة لمن اعتبر. تداول السلطة في تلك الفترة جعل كل القوى والأحزاب تنخرط في اللعبة الديمقراطية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار دون أن يكون هناك فيتو على أي حزب سياسي مهما كان طرحه. المهم أن يعبر عن نفسه عبر برنامج سياسي واضح ويحترم إرادة الآخرين وتعبيراتهم السياسية والفكرية وقبوله بتداول السلطة بشكل عصري.

كان في السجن خمسة وعشرين معتقلاً من الإخوان المسلمين. القسم الأكبر منهم كان مصاباً بمرض السل والأمراض الجلدية المزمنة نتيجة عدم تعرضهم للشمس وبقاءهم مدة طويلة في عزلة كاملة في مكان رطب ومظلم ولعدم وجود دواء وطبابة. لقد تحدثوا معي عن فظائع سجن تدمر وويلاته. الحقيقة لم أصدق ما سمعت, كنت أقول في سري أنهم يبالغون, هناك حبتان زيادة عن الواقع, لكن عند ترحيلي إلى ذلك السجن الكريه تأكد لي أن ما يقولوه هو أقل من الواقع بكثير. كان السجناء في سجن تدمرالعسكري يقفون في طابور طويل عراة تماماً تحت ضربات البرد وقسوة البيئة الصحراوية القاسية, يمر الحلاق بيده الموس الحادة, الرؤوس مطأطأ والجسد منحني والعيون مغمضة. بضربة موس حادة من الحلاق على الجهتين يكون قد أخرج الجلد مع شعر الرأس والذقن. عندها يسيل الدم غزيراً من الرأس والوجه وينزل إلى الأسفل. يبقى الدم نازفاً إلى أن يجف لوحده دون تعقيم. الموس المغموسة بالدم تنتقل من رأس ووجه سجين إلى رأس ووجه سجين آخر. يحدث هذا الأمرمرة واحدة كل أسبوع, ومرات كثيرة يصرخ الشرطي من مكان بعيد, أنتبه, رأسك وجسدك في الأرض, ضع يدك

على شعر عانتك, أبدأ يا ابن ال.. لديك دقيقة واحد لتنفيذ الأمر. أنتف شعر عانتك بسرعة. عندها يبدأ كل سجين بنتف شعرعانتهم بيديه.

في هذا العراء العاري كل رجل عاري مطأطئ الرأس والبدن, السياط المطاطية الملبسة بالاسلاك المعدنية تلسع جسده ووجهه إلى أن ينزف من كل مكان منه. الذي يموت يأخذوه ويدفنه في مكان مجهول.

كل عشرة رجال يتقاسمون بيضة واحدة وبرتقالة واحدة ورغيف خبز واحد خلال النهار كله.

في كل مهجع قرابة المئتين من المعتقلين في مساحة لا تتجاوز المئة مترمربع. ينتظر كل فرد من أفراد المهجع قرابة الستة ساعات أوالسبعة ساعات في الطابور الممل إلى حين مجيء دوره من أجل الدخول إلى المرحاض أوالحمام.

المكان ضيق والحرارة خانقة, الكثير منهم اختنقوا من قلة الهواء خاصة مرضى الربو. يبقى السجين مقرفصاً طوال الوقت لا مكان له حتى يمد قدميه إلى الأمام أو الخلف, ينام بهذا الشكل طوال الوقت.

عندما نقل بعضهم إلى سجن عدرا في دمشق كان وزن أطولهم قامة لا يتجاوز الثلاثين كيلوغراماً, خائف ولا يستطيع أن يرفع رأسه إلى الأعلى وعندما يتكلم مع سجين آخر يبقي رأسه مطأطئاً.

السجين في سجن تدمر يبقى رأسه مطأطئاً طوال فترة مكوثه في ذلك السجن الكريه.

لقد حفظوا القرآن في صدورهم لهذا كانوا يقرأوه لبعضهم البعض دون أي كتاب.

في سجن عدرا, مثل أي مكان آخر في الدنيا, كانت الأمزجة مختلفة, كل واحد له مزاج وتكوين نفسي وروحي مختلف عن الآخرين. كان المعتقلون متعددو المشارب والانتماءات لهذا كان يتخلل العلاقات الحيطة والحذر بل تتحول العلاقات إلى مجرد تأدية وقت ضائع وميت. علاقات سطحية وغير محددة بشرط أو عمق. لذلك كان كل واحد يهجس داخل كيانه وأحلامه ومراميه, يسكن داخل كيانه المشبع برائحة الحياة القادمة بعيداً عن هذا الوحش الفتاك الذي اسمه السجن.

عبد الله محمد شاب صغيرلم يتجاوز السادسة عشرة من العمرعندما كان يقود دراجته الهوائية في الشارع. شاءت الصدف في إحدى المرات أن يقع على الأرض قرب مفرزة الشرطة المدنية. اشتبهت الشرطة فيه, شكوا به فأخذوه إلى المخفر وفتشوه وجدوا في جيبه جريدة الراية الحمراء الناطقة بلسان حزب العمل الشيوعي. اتصلوا بالأمن السياسي فجاءت دورية وأخذته إلى التحقيق, ونتيجة التعذيب الوحشي الذي تعرض لها اعترف إنه يعرف أحدهم وأعطاه الجريدة من أجل أن يقرأها.

لقد أمضى عبد الله محمد في السجن ثمانية أعوام ونيف وخرج بموجب عفو عام ومشروط.

غياث السيد علي مرشح للانتماء إلى الحزب الشيوعي / المكتب السياسي/ أي لم يصبح عضواً اساسياً في الحزب حين اعتقل فأمضى في السجن أثنتا عشرة عاماً.

جميع المعتقلين تنقلوا بين فروع التحقيق العسكري, سجن القلعة, الشيخ حسن وعدرا, وأغلب المتهمين بالانتماء إلى حزب العمل الشيوعي كانوا في ريعان الشباب, في العشرين من العمر, راتب شعبو ونبيل جولاق, خير الدين الغزالي وبرهان ناصيف, دانيال حسن وأياد السلموني وغيرهم.

كان الخريف صديقاً يلسع كل من يساكنه في الممر الطويل.

نور الدين خليل رجل فاقد القدرة على التوازن, مختل عقلياً. منذ أن وطئت قدماه أرض السجن وهويعاني من مشاكل داخلية, اضطرابات عقلية لا نعرفها, ربما يكون مصاباً بالانفصام أوالشيزوفرينا.

وجه نور الدين وعيناه المتعبتان الغائبتان ما زالتا تدقان في عيني, انهزامهما مرسومان كأحجية سوداء أمام نظري. شكله لا يبرح ذاكرتي رغم المرارة التي سببها لنا, رغم مرور السنين الطويلة.

لم يكن يعرف معنى الفرح أوالحلم أوالزمن الآخر المختلف, الزمن الجميل القادم الذي سيلون قدره بالأضواء, القدر المغري بالارتحال إلى مواضع أخرى.

كان رجلاً عاجزاً فقد القدرة على الحلم والتأمل, يأتيه صدى أوصدى صوت مرتبك ملفوفاً في كفن أبيض أوأسود, مدججاً بالمتاريس, مصاغاً على شكل رعب مركب, يقترب منه يهجس في أذنه وذاكرته القديمة، يدخل في لبه على شكل إغراءات ملفوفة بقماش مطرزحريري اللون، يوقظه من نومه يدفعه مسافات بعيدة إلى الأمام أوالخلف، يغرقه في دندنة فتهزه وتفقده توازنه. ينهض من فراشه ملفوفاً بغطاء النوم, يسير خلسة وصقيع حامضي فوق كتفيه, يضرب أقرب واحد إليه, لا يفرق بين هذا وذاك, يسير دون إرادة منه على هدى إيقاع صوت الميت الساكن بين خلاسات عقله. في كل ليلة, عندما نخلد للنوم يأتيه هذا الصوت القوي, المختلس, يوقظه من مضجعه يحثه على الأذى.

كان مصاباً بلوثة الدم والخوف, كان مريضاً.

جاءت السلطة. عروه من ثيابه وربطوه بالسلاسل على القضبان الحديدية المحلزنة مصلوب اليدين والقدمين, رأسه مدلى على كتفيه بمرارة, يئن ويبكي من الوجع والخجل والحزن, يشهق من القهر مردداً كلمة واحدة.. استغفر الله.. استغفر الله. مسلوب الإرادة والروح ككل المقهورين. عيناه غائرتان, غائبتان في اللأمدى, البؤبؤ في طرف والحدقة في طرف آخر. عندما تنظر إليه تحس إنه في عالم آخر, غائب عن المكان والزمان وفعل الوقت.

تركوه معلقاً ساعات طويلة على مسافة متوازية ومتساوية ما بيننا وبينهم. مكسور النفس, ذليلاً مهاناً مهزوماً, يصرخ بلسان مبحوح.. استغفر الله.. استغفر الله إلى أن بح صوته تماماً.

لم يبق على جسده إلا جلده, عارياً تماماً.

عندما فكوا وثاقه, دفعوه أمامهم بقوة كدابة عرجاء في ممر الجناح, السياط تلسع كل مكان من جسده العاري, صوته المبحوح والموجوع تتوقف عند نياط قلبي. كانوا يضربونه بالكيبلات المحلزنة دون رأفة أو شفقة, يصرخون عليه أن يركض أو يركع أو يستلقي على الأرض, يبصقون عليه, يشتمونه ويركلونه بعقب أحذيتهم القوية. كنا داخل المهاجع عندما قالوا لنا, ابصقوا عليه.. اشتموه!

كان جسده القوي ممتلئاً بالكدمات المزرقة والدماء تسيل من ممراته العارية, يعود ويصيح, استغفر الله.. استغفر الله.

السلطة السياسية في بلادنا, بدلاً من أن تأخذه إلى المشفى وتعالجه اختصرت الطريق وأخذت السكة السريعة, عجلت في تمزيقه من الداخل عبر ضربه وتعذيبه يومياً.

لقد تكلم الكثير من السجناء مع الأمن السياسي عن وضعه منهم المرحوم رضا حداد, نقولا الزهر, أحمد فايز الفواز وعبد المجيد منجونة قالوا, نور الدين خليل مريض ويحتاج إلى علاج طويل في المشفى. لكن بعد معاناة طويلة عاشها في سجن عدرا والآلام التي سببها لنا مدة عام كامل نقلوه إلى سجن تدمرالعسكري حيث مكث في ذلك المكان الصعب أثنتا عشرة عاماً قاسى معها السجناء الذين معه الويلات والعذاب والتعب.

في المهجع الثاني عشر الذي انتقلت إليه فيه قوى سياسية متنوعة, الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/، حزب العمل الشيوعي، الإخوان المسلمين، حزب البعث العربي الاشتراكي/ العراق/، أطفال أحداث الشغب بالإضافة إلى جرائم الحق العام كالتهريب وخطف الأطفال والسرقة وتزويرالعملة وجوازات السفر والجرائم الاقتصادية, محاولات القتل، مخبرين حقيقيين ومزيفين وإلى أخره.

كانت الكوابيس الليلية والأمراض المستعصية جزء من سيمفونية المكان تتراقص مع عقارب الزمن وبندول الوقت المتأرجح في مكانه, يتحرك ببطء شديد يحمل أيامنا وليالينا على أكتافه في جو مشحون بالآمال الراكدة والأحلام المؤجلة يدفعها لتبقى مترسبة في قلوبنا في الليالي الشتائية المتكلسة والباردة.

كثير من اللصوص عاشوا بيننا ومعنا, يتفاخرون بأنهم من عينة مختلفة عنا, لصوص! عندما كنا نسأل أحدهم, ما هي تهمتك, كان يرفع رأسه إلى الأعلى ويرد بفخر واعتزاز, حرامي, لص, نعم, أنا حرامي! رشوة, اختلاس. ثم يردف بنبرة مملوءة بالثقة, الحمد لله إنني حرامي. الحمد لله إنني حرامي, ولست سياسياً حتى لا أمضي بقية عمري بين جدران السجن.

في خريف عام 1988 القت السلطة القبض على ثلاثون رجلاً من الجمارك بتهمة الرشوة والاختلاس, كانوا يتفاخرون عند الكلام, مشكلتنا بسيطة, رشوة, اختلاس, بضعة أيام ونخرج! إننا مدعومون, جهات عليا في السلطة تتابع وضعنا وتساعدنا. قريباً سيتم الافراج عنا. يتنحون جانباً, يتكتلون على بعضهم, يمشون مع بعضهم مخافة الاقتراب منا حتى لا يتهموا بتهمة سياسية.

استطاع حافظ الاسد خلال حكمه لبلادنا أن يغير المعاييرالأخلاقية فيها لدرجة صارت السرقة والرشوة والكذب موضع تباهي, فخر واعتزاز!

كان أحدهم, أحد اللصوص يتكلم في نومه طوال الليل, كبير الجسد واللشة, تكرم عليه أحد السجناء السياسيين وأعطاه سريره في الطابق الثاني. كان يقول في نومه:

صف, صف, صف السيارة على اليمين, أمسكه, لا تدعه يهرب منك, خذ, خذ, خذ منه, لا تتركه يمشي بأقل من خمسمائة ليرة سورية. يقصد الرشوة. طوال الليل كان يشخر ويتحدث في نومه عن المال والنقود, خذ وهات. وكان دائم الضحك أيضاً مغسول من الهم والكرب.

في إحدى المرات بينما كان يتكلم في نومه, يحرك يديه ورجليه ورأسه ودون شعور منه وقع من الأعلى إلى الأسفل. خلال لحظات قليلة قام على قدميه كالديك رغم أن وزنه كان يقارب المئة وعشرين كيلو غراماً.

كان الشتاء هو الأخرلا يخلوا من الشيطنة والأنفعال, يتسلل بهدوء, يقفز إلى يدي وقلبي ويهوى على جسدي بكامل زينته فيغير ملامحي القادمة. يدخل من الشبابيك العارية والعالية, يحمل الخيبات المدفونة بين ثناياه وثنايا قلبي.

كثيرة هي المرات التي استيقظ في الساعة الخامسة صباحاً.

هدأة الليل تتدلى كالخدر, كالبرعم المركون في جوف الحياة, يسترخي بتثاقل إلى أن ينحسر ويستسلم, يسلم روحه إلى الشفق القرمزي البارد. أجد صديقي نبيل جولاق على سريره يقرأ أو يكتب ما تجود به ذاكرته من أحلام أو أوهام وردية. ينادي علي بوشوشة عاجزة أوحركات إيمائية يتيمة تسبقه يديه وأصابعه, تتحركة بالإشارات والإيماءات القريبة من الترجي. أذهب إليه لأجد كأس المتة بيده يهديني واحدة من أجل أن أجلس معه وأشرب.

قبل أن يطلع الضوء من خدره البارد.

قبل أن ترتوي الكائنات النائمة بماء الحياة.

يسهو نبيل ويفيض.

يقرأ القصائد الغاصة بدروب الورد ورحيق الفرح, يتكلم عن عشق لم يتبرعم, وحب لم يلد, عن ذاكرة مثقوبة ومتناثرة على الطرقات, عن ذاكرة منخورة عند المنعطفات. قال لي, هل عشقت. أقول, ربما! العشق متأصلاً في الدم في العروق والشرايين. قلبي يتكوّن من ذاكرة متعبة, من سنين مرمية خلف جدران. كلانا كان يهجس برائحة المرأة وعطرها الوردي الدامع.

يعود بي إلى الماضي, إلى ينابيع رأس العين عندما كنت أمسك الشمس بيد ودمي العجوز المهروس باليد الأخرى. عارياً تماماً. حاملاً ثيابي المزركشة بيدي, أركض من مكان لآخر, أرى فرح ذرات الرمال البيضاء الحنونة كيف تداعب الماء الزلال, كيف تخرج من جوف الأرض برقة ونعومة, على الزوايا والقلب, والأسماك العاشقة تلهو مع لغة الصانع البديع, لغة الكون الجميل.

كان نبيل يقرأ لي الأشعار عن حبيبة ما, امرأة ما لها نعومة السماء والمساء, رائحة الأشجار المتجذرة في التراب, يتأوه من الصمت البعيد عندما يلقي قصائده المجنونة عن امرأة, عن امرأة ذات لون, ذات شعر متناثرفوق أصداغ, امرأة القت عليه تحية عابرة وهو في معبر الحياة, تحية غامزة وربما هامزة وربما ساخرة وربما مابين الثلاثة يسكنها نسغ جف ونائم وربما تلفها البراءة والحياء لكنها كانت تعني

الكثير الكثيرلشاب في مقتبل العمر في وقت فيضان الروح والجسد. كان نبتة خضراء طافحة بالاندفاع, ولد على صدرالحياة من أجل أن يبقى ويحيا ويعشق.

يمص كأس المتة شفة وراء شفة, يقرأ ويغيب, مثل مد البحر وجزره, يتخيل النداء القادم إليه في صحوه ومنامه, نداء مرمري اللون ضارب إلى لون الضياء والماء, نداء يتلبسه كما يتلبس كل الكائنات في لحظة توحدها بهذا الهياج الغامض في لهفة البقاء على صدر الحياة وديمومتها. يدخن ومع كل مجة يتابع قراءة ما تجود عليه كلماته, بضعة أبيات حنونات عن امرأة بعيدة, عن ملائكة تلبس النور الأبيض البهي في لحظة إشراق بديع. يتكلم ويرسم شكل الجمر الأحمر المتوهج الذي يزداد لمعاناً في كل نبض من دفق القلب, يغيب ثم يعود باحثاً عن أزاهير تنمو على ضفاف الأنهار, يسرح مع مرح البقاء في ذلك المكان الشائك, يتجندل على قارب الشفق الحنون ويغيب في القراءة برقة وهمس حتى لا يوقظ النيام. كنت أسمع وأرحل معه, نقطع الدروب الطويلة, ندون بقايا أنفاسنا على ورقة الانتظار الطويل كبراعم تهفو وتنمو برقة وهدوء. ثم نذهب في حديث بعيد, نحكي عن آخرالأخبار ونتكلم في السياسية, نختلف في مكان ونتفق في مكان آخر ثم نضع السماعات على أذاننا كي نسمع أغنية لفيروز أو نجاة الصغيرة أو غيرهم إلى أن يطل الصباح بحركته الرتيبة والمتعبة.

كان الماضي جزء من لعبتي في تقطيع الوقت وقتله, أهجس به في سراري الروح, أذهب إليه وأقبله, أكتب على محرابه شوقي واحتراقي, أتغنى به وأرقص عند بابه مواويلي الحزينة والمفرحة. وكان نبيل صديق الشفق في ذلك الأفق الحزين, نجلس في زاوية المهجع نستعيد ألق ذكرياتنا الماضية ونكتب على الجدران العفنة رائحة انبعاثات الروح ونرحل معاً إلى ضعيته في الساحل السوري الجميل في محافظة اللاذقية, ريفها الأخضر البهي.

كان يحن إلى الضيعة والمواويل وأحن لبلدي. كل واحد يشهق بالحرقة من أجل أن يعود إلى بيته وأهله إلى مسقط رأسه وموطنه الأول.

كنت أقول له, كنت أغني دائماً لبسمة الصباح.

أحدثه عن الصبايا اليافعات, الأضحية التي كانت تقدم وترمى للنهر من أجل بقاء الخابور والبورالأخضر الجميل.

أجدادنا كانوا يقدمون القرابين, أجمل الفتيات وأبهاهم وأكثرهن رقة ونعومة ليبقى الخابور يرقص مع نواميس الكون وإيقاعاته المتوازنة, ليتناغم مع دبكات الوجود, من أجل أن يتمايل الزمن على خصره ويترك مجراه أمناً مطمئناً.

كانوا يسجدون للأرض والتراب الأسمر الناعم, للماء والمطر. يكتبون الفصول المتوهجة على أوراق الشجر والرياح الساكنة بين ديار الأفق الحنون. يشعلون الشموع ويرمونها فوق الطحالب الخضراء ليتألق الماء ويخضر ورده وليله الجميل على الضفاف.

أحدثه عن خبز التنوروالمواويل.

بين الفينة والأخرى نسمع شخير النائمين وبعض الكوابيس الخفيفة أوالثقيلة التي تصدرمن هذا النائم أو ذاك من هذا الجانب أو ذاك, صرخة وجع أو آهة عميقة تصدر من صدر موجوع. نرفع أبصارنا إلى مصدر الصوت ثم نكمل هروبنا من لعنة المكان ومتاعبه.

وأرحل إلى الماضي.

عندما كنت أركب مع والدي شاحنته الشيفروليه ذات اللون الفستقي الفاتح, رائحتها ما زالت في أنفي. كنا نسير فوق ربوع بادية الجزيرة البكر نتبضع الهواء الطلق, رائحة البراري العذبة, رائحة النعناع البري الطافح فوق صدر الأرض. اطلب من والدي أن يتوقف على جانب الطريق, اركض وراء صغارالأغنام, الخرفان المولودة للتو. يسحرني لونها الأبيض الناصع. اقترب من الجمال والماعز, اركب على ظهرحمارالراعي واسير مسافات طويلة مصغياً السمع لصوت الأجراس المنبعثة من رقبة الكبش الكبير قائد القطيع.

وكنت مغرماً باللون الأحمراليانع, لون شقائق النعمان.

أقطف باقات كبيرة من الأقحوان الأصفر والأبيض المتناثر على الامتداد الواسع, استغرق في الركض بين الألوان التي كانت تأسرني وتترك صداها في قلبي.

كانت الجزيرة مليئة بالغزلان البرية والأرانب والثعالب والذئاب, أبن أوى والضباع. عندما كنا ننتقل من الحسكة إلى القامشلي وبالعكس كانت هذه الكائنات تهرب من مطرح لآخر مجتازة الطريق العام, تركض في الفلاة الواسعة بحثاً عن الطعام والماء وأحياناً كثيرة تتسمر أمام الضوء القوي المنبعث من مصابيح الشاحنة فتقف في مكانها مستسلمة لقدرها الغمض.

عاشت هذه الكائنات في هذه الديارمئات الآلاف من السنين قبل أن تكثر عمليات القتل والتنكيل بها إلى أن انقرضت عن بكرة أبيها نتيجة القتل لمجرد القتل والصيد الجائر والتسميم المتعمد.

في المساء يضع عبد المعين الراوي من المتهمين بالانتماء إلى تنظيم الإخوان المسلمين كأس الشاي المعدلة في يد والسيجارة في يد أخرى يشرب ويسمع أم كلثوم تصدح, ينظر إلي ويهدهد رأسه متلمظاً بالحرقة والوجع, بالنشوة والحزن, متذكراً زوجته وأطفاله الصغار الذين غابوا عن عينيه سنوات طويلة. يلتفت حوله مخافة أن يراه أحدهم. يشرب ويدخن ويصفن طويلاً لكن عندما تقع عينيه على عين أحمد منصور, يتظاهر بشيء آخر, وعندما يسأله هذا الأخير, ماذا تسمع يا أبو مصعب, يرد عليه بعد أن يرفع السماعة عن أذنه, الأخبار, أخبار لندن, والله العظيم اسمع أخبار لندن ثم يلتفت إلينا غامزاً, وضاحكاً في إشارة إلى هروبه من الجواب الحقيقي.

حتى في السجن كنا نخاف من بعضنا, من مراقبة الآخرين لسلوكنا, نسعى بكل الوسائل أن نخرج كنوزنا النظيفة من مخابئها ونضعها أمام الآخرين حتى لا نتعرض للانتقاد والتجريح.

السجن مثل أي مكان في الحياة يخضع لشروط ومقاسات صارمة, يجب أن يجيدها كل سجين وإلا تحول إلى مسخ, شخص تافه, نكرة لا وزن له. تتعلق هذه المقاسات بالبنية النفسية والعقلية لتراتبية المجتمع وتكوينه النفسي والروحي. في هذا المكان تتكثف القيم التي يحملها الفرد عن مجتمعه, في لاشعوره الجمعي, فيخضع لها. كلما ادرك الفرد قيم التراتبية الاجتماعية, اللاشعورالجمعي, كلما حاز على قبول ورضى الآخرين وإعجابهم. أقول دائماً, السجن, ليس السجان فقط, ليست الحيطان الرمادية المظلمة والمتعبة فقط, ليس المكان وشروطه وظروفه, إنما السجناء أنفسهم وما يخلقوه من متاعب وأوجاع مؤلمة لبعضهم البعض.

البعض من السجناء يتعب من أول الطريق, منذ اللحظات الأولى, من أول صفعة على وجهه في التحقيق, البعض الآخر يتعب في أول المشوار, وغيرهم في منتصف الطريق, وهناك من يتعب ويبقى بيننا فيرمي احماله ومتاعبه على أقرب واحد إليه, يحَمل الآخرين همومه ومشاكله النفسية والعصبية والروحية, مصائبه ومصاعبه ليخفف عن نفسه وطأة المكان وصعوبته.

مرات كثيرة أراقب حركة السجناء من أعلى الدرج, كيف كانوا يمشون بسرعة كبيرة, الحركة العنيفة التي تصدرمنهم, الأيدي ترتفع إلى الأعلى وتنزل بسرعة مترافقة مع صوت عال وزبد على الأفواه مع وانفعال شديد.

كان الجناح يعج بالنشاط والحيوية والحركة في فترة الثمانينيات من القرن العشرين. تتوزع الباحة الصغيرة رجال على شكل مجموعات صغيرة متناثرة على محيطها, كل أثنان أوثلاثة أوأربعة أوخمسة يأخذون زاوية أومكان, في أيديهم كتاب ما, له علاقة بالتراث أوالسياسة أوالفكرأوأي موضوع له علاقة براهنية الحياة. يتكومون حول بعضهم ويناقشون محتوياته. كان فترة نهاية الثمانينيات زاخرة بالتحولات الكبيرة على الصعيد العالمي منها وصول غورباتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفييتي السابق والتغييرات الكبيرة التي طرأت على النظام العالمي مما دفع الكثير من السجناء في الدخول في نقاشات حامية سواء مع هذا الطرف أو ذاك. كان كلا الشيوعيون والإخوان يعودون إلى التراث كثيراً لينهلوا منه معرفة, لأننا في زمن طائر وعالي التحليق, نحاول اللحاق به.

في ذلك الشتاء القاسي, في شباط من العام 1988 جاؤوا بالرفيق عبد الرزاق أبا زيد إلى سجن عدرا في دمشق منهكاً متعباً, مريضاً, مصاباً بالالتهاب الرئوي الحاد جراء بقاءه مدة طويلة في حوض الماء البارد في شهر كانون. كان يسعل ويئن من الوجع, صدره يخرخر طوال الوقت. حاول أن يتماسك, أن يبدو عادياً ولكنه كان موجوعاً, يقول, صدري يؤلمني احتاج الذهاب إلى المشفى. لكن الجميع تعامل مع مرضه ببرودة أعصاب. اعتبروا وضعه مسألة عادية وعابرة! لم يأخذ أحدنا وضعه على محمل الجد, باستثناء خلف الزرزورالذي وقف إلى جانبه طوال الوقت, اهتم به ورعاه, قدم له ما يحتاجه من الطعام وغسل الملابس واحتياجاته الخاصة.

عندما كان ينزل إلى الباحة يأخذ زاوية ما ويجلس. لكنه لم يكن يستطيع الحركة.

كنت واقفاً, عندما جلبه خلف الزرزور وهاني السعدي محمولاً إلى جانب المفرزة, الشبك المعدني وذلك في ال24 نيسان من العام المذكور, سألته, كيف حالك يا أخي عبد الرزاق. قال, أنا مرهق, مريض.. لم يتمم بقية الجملة.

كانت الخرخرة التي تصدر من صدره الموجوع عالية ومسموعة بشكل واضح. كما لم يكن يستطع التنفس. اسند ظهره على الجدار وقرفص. رأسه مدلى إلى الأسف واضعاً يده اليمنى على جبينه, يئن ويتوجع بصمت. لم يكن يستطيع التحدث إلا بصعوبة بالغة وبكلمات مختصرة ومحدودة. كنا بضعة رجال إلى جانبه, لا نتجاوزالخمسة أوالستة.

عند الساعة الثانية والنصف جاءت مجموعة من عناصر الأمن وأخذه في سيارة الطعام التي توزع الأكل على مفارز الأمن السياسي في العديد من مواقعها في دمشق ومحيطها.

لا أدري مقدار الوقت الذي بقي في سيارة الطعام وهو يتنقل مع أكل السجناء والسجانين. لكن جسده المريض والمنهك لم يتحمل التنقل والوقوف وتوزيع الطعام مدة طويلة من الزمن والانتقال من مكان لمكان. سمعنا بعد ساعات من نقله من سجن عدرا من إذاعة الكتائب اللبنانية وإذاعة صوت فرنسا الدولية خبر وفاة رفيقنا وصديقنا الأخ عبد الرزاق أبا زيد الذي لم يمكث بيننا سوى شهرين.

قمنا بإضراب مغلق عن الطعام مدة أربعة وعشرين ساعة تعبيراً عن تضامننا ووقوفنا إلى جانب رفيق مات من أجل قيم الحرية والديمقراطية في بلدنا ووطننا.

هل كان لدينا القدرة على فعل شيء؟

أقول نعم!

كان لدينا القدرة على فعل شيء.

كان من الممكن أن نضغط على إدارة السجن من أجل أن يأخذوه إلى المشفى بأسرع وقت ممكن. كان من الممكن أن نقوم باضراب مفتوح عن الطعام حتى تتحقق مطالبنا.

لكننا.. كنا عجزة!

هذه حقيقة لا مراء فيها.

لقد مات وهو في ريعان الشباب تاركاً وراءه أطفالاً صغاراً وزوجة تنتظره.

كانت أروحنا ميتة وكنا مهزومون.. وكنت أولهم.

دائماً العجزة بحاجة إلى تراجيديا, إلى حفنة كبيرة من الأوهام والآلام حتى يغتسلوا ويتطهروا ويبقوا أجساداً مستمرة.

الجميع كان مدركاً أن عبد الرزاق أبا زيد مريض ومنهك ويحتاج إلى عناية خاصة في المشفى من جراء التعذيب والتنكيل به ووضعه في جرن الماء البارد تصل درجة حرارته إلى ما تحت الصفرفي ذلك الشتاء. كان لدينا في الجناح العديد من الأطباء المعتقلون المدركين وضعه. لكننا لم نحرك ساكناً. طوينا رؤوسنا بين أفخاذنا وهربنا من مواجهة الحقيقة الأليمة كالنعامة التي تعتقد أن الرياح والعاصفة

القادمة لن تقتلعها. فضلنا السكينة والمطالبات اللبقة والكلام المنمق مع حثالة البشر, مع رجال الأمن ورئيس مفرزتها الأتفه من التفاهة. وهكذا تعامل الجناح مع بقية المشاكل التي كانت تواجهنا. كنا خائفين لهذا لم نستطع أن نأخذ موقفاً, يضع حداً لما حدث. كان رعب الترحيل إلى سجن تدمر العسكري في الصحراء مصوراً أمام عيون الجميع ولا سند حقيقي لنا في المجتمع.

وقبل هذا الحدث بأيام طلب مني أحد رجال الأمن, عندما كنت في المطعم صباحاً من أجل أن أخذ حصتي من الأكل. قال, تعال إلى هنا. ذهبت إليه وقلت ماذا تريد. قال, خذ صينية الأكل إلى المفرزة. أحملها على كتفك وضعها على طاولة المكتب. كان يريدني أن أحمل أكل السجانين. قلت له, أنا لا أخذ أكل أحد. خذ أكلك بنفسك كما نفعل. قال لي, ستحمل الصينية غصباً عنك. رددت عليه بحزم وقلت, لن أحمل صينية كأن من يكون. لن أحمل لك شيئاً. نظرت في عينيه وجدته يرجف ويرتعد من الحنق. قال, ستحملها بالغصب. قلت له مرة ثانية, لن أحمل لك شيئاً. تابعت, لماذا تريدني أن أخدمك؟ لماذا لا تخدم نفسك؟ من أنت؟ وتابعت, أخدم نفسك بنفسك, مثلنا مثلك. ترك كل شيء في مكانه وقال, تعال معي.

ذهبت معه إلى المفرزة وأنا مملوء من الرعب والخوف. هناك بدأت وجبة دسمة. راحوا يعذبونني. المساعد عبد السلام والشرطي أبو رياض شاليش. قال, ستنفذ ما نأمرك به. قلت لهم, لن أنفذ مهما حدث.

لقد تمزق غشاء الطبل لأذني من كثرة الصفع على وجهي ورأسي لكني بقيت متماسكاً وواعياً لما يجري حولي. قلت لهم, غشاء الطبل لأذني تمزق. وتابعت, إذا لن تتوقفوا عن الضرب سأضربكم مهما كلف. لا أدري لماذا توقفوا عن الضرب عندما تكلمت هذه العبارة ولكنهم قالوا لي أذهب إلى مهجعك.

عدت إلى الجناح متعباً, منهكاً, المرارة تأكل قلبي وروحي. وجدت الكثير من المعتقلين ينتظروني على درج الممر. سألوني ماذا حدث معك. قلت لهم لقد ضربوني, تمزق غشاء الطبل لأذني. قالوا, لا تخف, غداً سيلتئم. أغلب الذين كانوا في سجن تدمر تمزق غشاء الطبل لأذانهم من كثيرة الضرب على الوجه والرأس.

في ذلك المساء جلست على سريري تحت ثقل القهرالذي غار داخل قلبي, فاتحاً صدري للسماء, أناجي الليل الطويل أن يميل إلى الاسترخاء والنوم. لم أستطع أن أغمض عيني, ذهبت إلى زاوية نبيل قبل أن تطير العصافير من أعشاشها. وضعت سماعة الراديو على أذني ورحت أسمع فيروز. أكثرت الطيران فوق قمم الجبال العالية المكسوة بالثلوج البيضاء الرحبة لاحرر هذه النفس من القيد الذي ترزح تحتها ومن اندفاعات قهرها. ذهبت إلى المناجير, مجموعة صبية صغارلا نتجاوز الخامسة من العمر, فتحنا صدرنا للريح والريح والحياة, طرنا على سفينة بيضاء نقية, نقلنا زوادتنا من ضفة إلى أخرى. من على الشرفة المعطرة بالضباب مددت يدي إلى ماء الليل المدلهم, سحر الليل وصمت الخابور وخوف أمي مجموعة هالات تزيد أوجاعي وترمي بثقلها كالكابوس فوق صدري وروحي.

جاءني صوت ثقيل, صوت على شكل هالة سوداء خرج من الأعماق البعيدة. كان ضارباً في الجذور والأغوار الغميقة, يدفعني للذهاب إلى البعيد فتتراءى لي صورة الذين معي في ذلك المكان الغامض والغريب يأخذ بيدي ويقودني إلى مكان ضارب في أعماق الذاكرة. رحت أمشي وأمشي, دخلت محراباً صغيراً, تراءى لي ظهر القس كيفورك. اقتربت أكثر, رأيت يده اليسرى مسبلة وفي اليد الأخرى مبخرة ذهبية, يبخر الأيقونات المقدسة ذات الألوان الجذابة. يفرش عليها عطر السماء وورد البحر الزاهي, راكعاً بخشوع في حضرة المقدس, يصلي باسترخاء تام. كان إلى جانبه أبي وجدي الأول والثاني والثالث والألف. دخلت بينهم ورحت أعد رؤوسهم. كانت رؤوسهم متشابهة. كان عليهم نفس المحيا والقسمات, نفس اللباس والملامح والأشكال لدرجة لم أعرف من هو جدي الأول ومن يكون جدي الأخير. أكثرت من العد, أبدأ العد من جدي الأخير إلى أن أصل إلى الأول ثم أعيد الكرة مرة أخرى وبالعكس. أبدأ من الأول إلى الأخير. عددت مرات كثيرة وفي كل مرة أخطا وأعيد الحساب من الأول ورويداً رويدا رأيت وجه أبي يكبربينهم بسرعة ويأخذ شكل جدي. كنت صغيراً ولكن شكلي وملامحي هي الأخرى راحت تتغير وتكبروتدخل إلى مقربة منهم, إلى أن صرت مثلهم. افترشوا جمجمتي التي

كانت ممدودة وموضوعة أمام ركبهم المثنية يصلون عليها. كنت بينهم ومعهم اصلي على نفسي وأنا راكع. سرت أمشي بهدوء وصمت تحت سمع ونظر أسلافي وأنا. زحفت على صدري ببطء شديد ورحت ادخل في جوف الأيقونة مخترقاً ألوانها الزاهية ومحدقاً في أحشائها. التفت نحو جميع الإتجاهات إلى أن وجدت جمجمتي ساجدة هي الأخرى هناك.

هناك وجدت نفسي.

في قلب الأيقونة حدث تحول غريب. غابت الألوان الزاهية واستعاد بدلاً عنها لونان, أبيض وأسود. في ذلك المكان وجدت ذاتي. فتحت عيني على وسع, شاهدت جوف جمجمتي البيضاء, قرأت كل التراتيل والتاويلات المنبعثة من داخلها, رأيت صورة شديدة اليقينية والوضوح. تعمقت أكثر ومشيت, رأيت روحي في تلك الأصداء الخافتة. قلت لأجدادي الراكعين, هذا أنا, وهذا أنا, وذاك أنا, وهؤلاء أنا. ثم ابتعدت. رحت أندفع وأتوه بين النور والظلمة. أسبح واستغرق في اليم العميق إلى أن وجدت مرة أخرى أبي وأجدادي في انتظاري راكعين بخشوع. بأيديهم المفتوحة شمعدانات عليها شموع مشتعلة, لهيبها عالي, دائم الهيجان والتوهج! تابعت النزول أكثر, فوجدت جمجمتي موزعة في كل مكان, راسخة في الجذور. اقتربت, حاولت زحزحتها لكنها لم تتحرك, كانت ثابتة البقاء. استنجدت بمن حولي أن يساعدوني ويعطوني هذا العظم المتكلس لأخذه معي.

كان داخل الجمجمة المسترخية جموع هائلة من الوصايا والنواميس, آلهة من كل الاصقاع, كل إله يودع أسراره فيها, كل إله يضع سره في صدر الجمجمة, كل واحد ينفخ فيها لتبقى محمولة على سرير الزمن. سلسلة طويلة من الأسرار المخزنة في مكان بعيد وغامض من الجمجمة, لا يدخلها إلا إذا أمتلك القدرة على اختراق الأيقونة والسباحة داخل بحارها العميقة, في أسرارها الخالدة, أوامر ونواهي, وصايا. مجموعات كثيرة من الأفواه تنفخ فيها طوال الوقت, ينفخون في دهليز طويل حتى يمتلئ للثمالة.

كنت مادة مطواعة. اسير في جوف الليل الطويل, أمشي والكوابيس تغزوني من كل المطارح والأفاق, حتى صراخي مخنوق ومركون بين أنفاسي. لقد اكتشفت هذه الهالات التي تحيط بي وأنا داخل جدران نفسي إلى أن استيقظت. قلت,

السجن مرآة لمن لا مرآة له. على المرء أن يجلس أمام التأريخ وأمام نفسه, أن يقف أمام الشرق, قبلة الشمس ويتعرى, أن يكتشف أين تقف قدماه.

مر العام 1988 صعباً وقاسياً, الأكل محدود وقليل, نوعيته سيئة للغاية. لم يسمح للأهل أن يدخلوا الطعام في الزيارات إلى الجناح. كل شيء ممنوع. نذهب إلى المطعم ونأكل وجبة الغذاء, ولا يسمح لنا أن نأخذ طعامنا معنا. في الصباح لبنة وزيت طوال ثلاثة أعوام، وفي المساء بطاطا مسلوقة, نشتري الزيت والبصل والبندورة عبر فاتورة السجن العام لسجن عدرا المركزي. الأكل بدون دسم على الأطلاق لفقدان المواد الغذائية في بلادنا نتيجة الحصار الدولي للنظام.

كانت الأمراض المعدية متفشية بيننا لقلة المناعة كالأنفلونزة والرشح والتهاب القصبات والبلعوم واللوزات. كذلك نتيجة العدد الكبير في الجناح. بالإضافة إلى أمراض المعدة والكولون وغيرها من الأمراض المزمنة.

في هذا العام مات المهندس عبد المجيد أبو شالة الذي اعتقل على خلفية انتمائه إلى نقابة المهندسين.

كانت التطورات الدولية ترمي بثقلها علينا, الحرب الإيرانية العراقية, الانتفاضة في الاراضي المحتلة والحرب الاهلية في لبنان والحرب في افغانستان.

تم ترحيل العديد من المعتقلين إلى سجن تدمر العسكري في قلب البادية السورية منهم إبراهيم بوزان, محمد عجيل, وأبو مرعي وبعدهم بعام تم ترحيل نور الدين خليل وغيره. لم تكن لي زيارة نظامية مثل بقية السجناء. لهذا لم أرأبي وأمي وأخوتي.

العلاقات الإنسانية في المهجع السادس/الإخوان المسلمين/ كانت هادئة, ومعاملتهم لي كانت جيدة وعلى قدر عال من الاحترام المتبادل, أما المهجع الثاني عشر/المختلط/ أبسط. فيه شيء من البراءة والطيبة بالرغم من الفوضى والمشاكل المتداخلة والخناقات الكثيرة, لأن القسم الأكبر منهم دخل السجن في مرحلة المراهقة والطفولة. كانوا طيبوالقلب بالرغم من ثقل السنين التي على كاهلهم من جراء سجن تدمر العسكري. تبقى وجوههم بشوشة عندما كانوا يتكلمون معي. لكن وجود سجناء الحق العام بيننا في هذا المهجع فرض علينا حالة من التوتر نتيجة تصرفاتهم اللامسؤولة وطرقهم الهمجية في العيش وأسلوبهم التافه في التعامل.

مع إطلالة العام 1989 انتقلت إلى المهجع الثاني, مهجع الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/. كان المهجع هادئاً, العلاقات فيه مبنية على حدود عالية بالقياس إلى المهجع الثاني عشرأوغيره. بعد أسبوع من وجودي في هذا المكان أحسست بالغربة, غربة قاسية, قاتلة. غربة تكاد تأكلني. الوجوه لا تضحك أبداً. قلت للمرحوم رضا حداد, لماذا هذه الغربة العميقة بين رفاقنا. وتابعت, رفاقنا يتمتعون بثقافة عالية وعمق سياسي ومعرفي رائع, أنهم متميزون حقيقة, لماذا خلقوا هذه العزلة والحدود العالية بينهم. تأفف ونظر إلى وجهي بحزن عميق وقال, دعها لربك يا أخي. غداً, عندما تتخمر في السجن والمكان ستعرف سبب الغربة التي نحن عليها.

بين رفاقي أحسست بالوحدة والفراغ والغربة, لم أحس بالانتماء إليهم. الوجوه عكرة والأمزجة قاسية وحادة والحدود عالية, مع بعض الاستثناءات. تساءلت, لماذا هذه العلاقات معقدة لهذه الدرجة, كأننا نمشي في حقل الغام. أحسست أن الدنيا مظلمة في عيني, وإنني في المكان الخطأ, كما لفني الحزن وراح يأكل قلبي وروحي من هذه القسوة.

في هذه الأجواء المشحونة تصبح الحياة صعبة لا تطاق. كيف يمكن للمرء أن يعيش، ويمضي بقية أيامه، ولا يوجد في الأفق ما يشير إلى قرب الخروج من السجن.

إذاً ما هو الحل.

علاقاتي مع المهجع محدودة, مقتصرة على التعامل اليومي المباشرة كالحمام والطبخ والأكل والشرب وتنظيف المهجع. بقيت وحيداً. أهرب إلى الممر أوالباحة أو إلى المهجع الرابع للقاء صديقي مشيل سيروب من مدينة الحسكة كي نغرق في الحديث عن مدينتا, نفرغ الطاقة الحميمية التي تجتاح قلبينا لبلدنا وأهلنا. نتكلم كثيراً, نخرج الشحنة العاطفية لذلك الاشتياق العميق لكل ما يربطنا بالناس والأرض والمكان. نتكلم حتى نبعد مرارة القهر الداخلي والشعور بالغربة من القلب, لأننا بعيدين عن مسقط رؤوسنا وبيتنا مسافة طويلة.

كان على أهلي أن يقطعوا مسافة سبعمائة كيلومترحتى يصلوا إلى دمشق. المشقة التي يتكبدوها في رحلتهم الطويلة والنفقات الباهظة التي يدفعونها عند نزولهم إلى شوارع العاصمة وفنادقها والطريق الطويل الذي يقطعوه من أجل الوصول إلى فروع الأمن ودق أبوابه من أجل زيارة لا تسمن ولا تغني عن جوع. وفي كل مرة يخيب أملهم في الحصول على زيارة من أجل رؤيتي. في الوقت الذي كان فيه والدي ووالدتي في عمر متقدم. لهذا كانت الأسر كلها مسجونة مع السجناء. في الزيارة كنت استخبرعن الأصدقاء والمعارف فيما إذا سألوه عني أوأرسلوا لي تحية ما, كانوا يقولون, لا, لم يمر علينا أي إنسان ولم يسأل عنك أحداً. آه, لكم تمنيت لوأن أحد الناس أرسل لي هدية رمزية إلى السجن, أو سلام بسيط. طوال ثلاثة عشرة عاماً لم أسمع سلاماً من أحد الناس.

إننا نعيش في وطن بلا أجنحة.

ولم يكن لي سوى أن أحلم لوحدي وأطير.

كنا نذهب أنا وميشيل إلى البعيد, نتكلم ولا نمل من تكرارالحديث عن أيام زمان. عن دواليب محشوس وداؤود موريه والنواعير، الجسور.. النادي الزراعي والتوسع العمراني. رحلاتنا إلى ضيع الخابور, زوادتنا سلال من قش فيه بضعة حبات عنب وتين, تحت ظلال أشجار قرية, تل سكرة, تل المساس, تل

الخريطة وغيرهم. نفترش الأرض والشجر. نغني ونصدح مع الهواء الطلق وشمس الصيف. نسبح ونلعب ونركض ونمارس ألعاب الحزازير الجميلة.

كنت أقول دائماً, حدود أيماني هو النهر العظيم, انتمائي, محرابي اتعبد في داخله كناسك بوذي متيم. دائماً أكون عارياً في حضرته, مغموساً في رحمه وعاشق لحفيف أشجاره وترابه, لهذا فهو بالنسبة لي كل شيئ, أنهار العالم كلها قزمة أمام الخابور. وهكذا هو في نظري غزيراً, صافياً ونقياً. يرد علي ميشيل ويقول, لكنهم يستجرون منه الكثير, الكثير. هذا يقلل من غزارته. أرد عليه, نعم منذ مجيء هؤلاء الحثالة, زمن الاستبداد والعهر والخابور يتشوه كل يوم, كل شيئ فيه يتفتت, عظامه وقلبه. زادت اعداد المحركات التي تستجر الماء أكثر من الحد المسموح به مما أثر على منسوبه. وأقول, ليس مهماً الخابور والماء والأرض والحيوان في نظرهؤلاء الحثالة, المهم هو بقاءهم. الوطن بالنسبة لهم هو عبارة عن ستار حديدي يمارسون في داخله كل أنواع الموبقات.

في خريف هذا العام انهارت دول أوربا الشرقية وجدار برلين غير مأسوف عليهم, وصار لدى الجميع إحساس كبير باقتراب الخروج من السجن نتيجة انتهاء الحرب الباردة وإعادة ترتيب أولويات المسائل في العالم منها الانفراج السياسي داخل بلدان العالم الثالث من قبل النظام العالمي وقائده الولايات المتحدة الأمريكية. لقد طوى عسكر أمريكا اللاتينية أذنابهم وعادوا إلى ثكناتهم, وعادت اللعبة الديمقراطية هناك إلى السطح. وفي أفريقيا بدأت ملامح كثيرة تشير إلى هذا الأمر.

كان وضعنا من ناحية الأكل والشرب على ما هو عليه باستثناء إقامة مهجع خاص للقضائيين وفصلهم عن السياسيين وتقليص ساعات التنفس في الباحة.

مع إطلالة العام 1990 كان الجميع بحالة نفسية مقبولة لقرب عملية الإفراج.. هكذا كان الظن!

تم الإفراج عن مازن حميدان وأحمد سعدو وبهاء الدين رمضان وإبراهيم ولي عيسى من حزب العمل الشيوعي.

كان الشعور السائد لدى الناس هو قرب أجل الأنظمة العربية وسقوطها, مما حدا بهذه الأنظمة أن تستبق الزمن والأحداث وترتب وضعها قبل أن تفلت زمام المبادرة منها, وتراقب التطورات الدولية وخاصة في المطبخ الكبير, الولايات المتحدة الأمريكية.

فتحت الزيارة الدورية لكل السجناء ومنهم أنا. وتحسن وضعنا إلى حد كبير من حيث كمية الأكل ونوعيته.

جاء والدي ووالدتي بعد ثلاث سنوات من الاعتقال. وقفت أمي تصرخ وتولول من وراء الشبك عندما رأتني, لأنها المرة الأول في حياتي التي ابتعدت فيها عن البيت والأهل. باعتقالي حدث تحول كبير في بيتنا حيث هاجرت أختي أرشلوس وأخي هاكوب وأختي سيلفا وتالين بالإضافة إلى أختي صونيا إلى السويد. ولم يبق في البيت إلا أبي وأمي. لقد تشردت الأسرة كلها.

أدخلوا جميع الكتب من إصدارات مكتبة الأسد في دمشق.

قرأت مثل غيري من المعتقلين الكثير من الكتب, منهم على سبيل المثال مؤلفات مهدي عامل وسمير أمين وبرهان غليون والطيب تيزيني وجورج طرابيشي بالإضافة إلى كتب التراث والكتب التاريخية التي تتناول شؤون عالمنا العربي والإسلامي. قرأت الكتب التي تتناول التأريخ الإسلامي بشغف لحبي للتأريخ وللتأريخ الإسلامي تحديداً بالإضافة إلى الروايات والكتاب الغربيين. كما كان متوفراً في مكتبة السجن مجموعة رائعة من الكتب مثل: مجلدات الطبري وطه حسين وعباس محمود العقاد ومذكرات شارل ديغول. وأدخل السجناء مجموعة محمد عابد الجابري والنزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية لحسين مروة والأنبياء الثلاثة لأسحق دويتشر الذي يتحدث فيها عن مسيرة تروتسكي وكتب عديدة ومتنوعة ولا يمكن حصرها هنا. كانت الكتب تنتقل بالدور من يد ليد وتسجل بالدور.

ولأول مرة يدخل إلينا الطعام من خارج السجن عبر الزيارات.

الكثير من المعتقلين كانوا يمارسون الرياضة البدنية.

كنت أمارس الرياضة البدنية بانتظام طوال السنوات الثمانية لسجني في سجن عدرا. بل أكاد أجزم إنني كنت الأفضل على هذا الصعيد. كنت أمارس الرياضة القاسية يومياً على الأقل ساعتين في النهار عدا المشي اليومي الذي يتجاوز الساعتين أيضاً.

باستثناء الحرب بين مشيل عون والنظام السوري وانتهاء الحرب الإيرانية العراقية ودخول الأخير في صراع المنطقة من لبنان إلى إسرائيل إلى سورية كان الوضع الدولي هادئاً.

دخول العراق في الصراع الدائر في لبنان كان التمهيد لتغييرقواعد اللعبة الدولية في منطقة الشرق الأوسط. تساءل الكثيرمنا, هل النظام العراقي يلعب هذا الدور لوحده أم هناك تغيرما حدث ولا نعرفه.

لقد تنبأ الصديق مصطفى حسين بدخول العراق للكويت في بدايات شهر شباط وآذار من نفس العام. ردد مرات عديدة:

صدام سيدخل الكويت أو سورية لا محالة, لا مجال آخر لديه. ويضيف, لديه مليونان من المقاتلين تحت السلاح لا يمكنه تسريحهم أو إنهاء دورهم أوالانفتاح على المجتمع. الأنظمة الدكتاتورية تختزن موتها وقبرها في داخلها. إما سقوط النظام من الداخل أو الحرب. دائماً كان يرجح دخول الكويت, ويتابع, لكن إذا دخل النظام العراقي إلى الكويت سيكون ذلك نهاية نظامه. أما إذا أراد صدام الحفاظ على بقاءه هناك عليه أن لا يتوقف في الكويت, عليه احتلال الخليج كله, ربما هذا سينجيه من ضربة أمريكية أكيدة.

أثناء التحضير الأمريكي للحرب كان الجو العام للسجن صعباً للغاية. النفوس مضطربة, محتقنة فيها شعور بالمرارة والخوف. كان الانقسام في المواقف بين المعتقلين عمودياً وحاداً, لا مكان للحلول الوسط في هذا الأمر. كان القسم الأكبر يعرف أن العراق سيتكسر تحت الضربات العسكرية الأمريكية. كما تبين أن الولايات المتحدة الامريكية كانت بحاجة إلى هذا التبرير من أجل عودة الاستعمار وإملاء الفراغ الذي شكله انحسار الدور السوفييتي في العالم. كان على الدولة المهيمنة على العالم أن تقوم بهذا الدورلتأكيد ريادة موقعها كقائدة للنظام العالمي. من أجل تكريس بقاءها كسيدة على العالم لأطول مدة ممكنة.

بتقديري أن ضرب العراق يساوي إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما من أجل أن تقول للعالم أجمع أنا سيدكم وقائدكم.

مع انتهاء ضرب العراق تقدمت منطقة الشرق الأوسط خطوة إلى الأمام باتجاه التسوية السياسية مع إسرائيل.

عقد مؤتمر مدريد وجلست الأطراف العربية المهزومة مع إسرائيل وجهاً لوجه بشكل مباشر أمام الإعلام العالمي. لم تعد الولايات المتحدة الامريكية تقبل لعبة التورية التي كانت تمارسها مع الأنظمة أثناء الحرب الباردة. لقد طالبت الأنظمة العربية المفلسة أن تكشف عن عريها أمام العالم أجمع.

في بداية العام جاء المساعد أول أحمد عكاوي إلى السجن مكلفاً من قبل الشعبة السياسية لإجراء سبر عام على وضع كل سجين والتطورات التي طرأت عليه خلال هذه المدة الطويلة من اعتقله. التقى هذا المساعد وعلى مدى أربعة عشرة أيام مع كل المعتقلين من أجل معرفة ماذا حصل لهم من خراب أو انهيار للتمهيد للإفراج عنهم.

من خلال السبرتم اختيار المعتقلين المرشحين للإفراج عنهم.

بدأ النظام يفرج عن المعتقلين مع بدايات عام 1991, من سجن صيدنايا بشكل تدريجي وذلك منذ نيسان وصيف ذلك العام. ثم أفرج عن النساء في تشرين الأول, أرفقها بالإفراج العام والعلني عن المعتقلين السياسيين من كل الإتجاهات, الإخوان المسلمين والبعث العربي الاشتراكي/ العراق/ والبعث الديمقراطي/ صلاح جديد/ والحزب الشيوعي المكتب السياسي وحزب العمل الشيوعي وغيرهم. لقد صرح النظام عبر إذاعته بالإفراج عن 2864 معتقل.

كان ذلك أول اعتراف للسلطة بوجود معتقلين سياسيين في سجونه.

يوم السبت في 1991/12/14.

في صباح ذلك اليوم جاءت مفرزة من الفرع وأخذوا المعتقلين من نقابة المهندسين, منهم المهندس سليم خير بك والدكتور المهندس جلال الخانجي والدكتور المهندس نبيل سالم والمهندس عبد المجيد الأخرس وغيرهم ومعهم المعتقلين من حزب البعث الديمقراطي/ صلاح جديد/.

عند الساعة الخامسة مساء راحوا يأخذوننا مجموعات مجموعات, من حزب العمل الشيوعي والحزب الشيوعي المكتب السياسي والمتهمين بالانتماء إلى الإخوان المسلمين وحزب البعث العربي الاشتراكي.

لقد استثنوا من العفو المشروط قيادات الأحزاب السياسية في السجون, كما استثنوا معتقلين عاديين من بعض التنظيمات لأسباب لا أعرفها.

عندما اخذوا دفعتي, كنا 16 فرداً من الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/ وستة أعضاء من التنظيم الشعبي الناصري.

لقد استثنوا من الحزب الشيوعي المكتب السياسي, الدكتور أحمد فايز الفواز, المحامي مصطفى حسين وعمر قشاش وأمين المارديني.

لقد أخذونا في مكروباص إلى فرع التحقيق المركزي/ فرع الفيحاء/ وعرضونا على لجنة أمنية مشكلة من:

العميد محمد سيفو والعميد نزيه النقري والعميد وليد طه والعميد أحمد خليل والعقيد عدنان محمود, أما المقدم عبد الرزاق المطلق فقد كان بواباً, يفتح الباب لنا ويغلقها من أجل إدخال المعتقلين على اللجنة الأمنية المؤلفة من كبار ضباط الأمن السياسي في الشعبة السياسية وإخراجهم عندما ينتهون من مساومتهم.

يدخل كل فرد على حدة إلى اللجنة الأمنية.

كنا في القبو, في مركز التحقيق المركزي, فرع الفيحاء بدمشق, فيه الكثير من الزنازنين. نصعد على الدرج وندخل إلى اللجنة ثم نخرج من طرف آخر.

سأتكلم عن نفسي لأن ما حدث معي حدث مع غيري بالتأكيد.

دخلت إلى الغرفة فوجدت الضباط وراء الطاولة وبيدهم أوراق وأسماء كل معتقل وتفاصيل مختصرة عن مدة سجنه وانتمائه السياسي. سألني أحدهم لا أعرف من هو بالضبط لأنني كنت متوتراً, هل تنسحب من الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/. قلت, لا.. لا انسحب من الحزب. قال, أذهب. مسكني المطلق وسلمني لشرطي آخر, الذي أخذني إلى غرفة أخرى في القبو, هناك وجدت مجموعة من رفاقي.

في الجولة الأولى من المساومة رفض 12 عضواً من الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/ الشروط التي ألقيت عليه.

عندما إلى السجن وجدنا أن هناك ستة أفراد من حزب العمل الشيوعي قد رفضوا العفو المشروط كما رفض ستة من البعث الديمقراطي/ صلاح جديد/, بالإضافة إلى عادل صهيوني من التنظيم الشعبي الناصري وسليم خير بك من نقابة المهندسين.

كان عدد الذين رفضوا كبيراً مما أدخل الحيرة والذهول في عقل الضباط. لقد وصل عدد الذين رفضوا 26 فرداً من المعتقلين من اصل مئة وبعد سنوات طويلة من الاعتقال.

تركونا في مهاجعنا ولم يطرأ أي تغيير على وضعنا إلى أن جاء يوم الأربعاء في 1991/12/18. أخذوا الشباب الستة من حزب العمل الشيوعي إلى الفرع ولم أرهم منذ ذلك الوقت وفي حوالي الساعة الثالثة ظهراً جاء العقيد عدنان محمود إلى الجناح وراح يتكلم مع أحمد فايز الفواز. قال له بالحرف,

أريد منك أن تقنع الشباب من أجل أن يخرجوا من السجن. رد عليه الفواز, هذا الموضوع لا أستطيع أن أقرره على الأطلاق. هذه مسألة شخصية تماماً. وكل عنزة معلقة من كرعوبها. رد عليه العقيد, أريدهم أن يخرجوا من السجن, أن يعودوا إلى حياتهم الطبيعية, أن لا يبقوا في السجن. رد عليه الفواز, أفرجوا عنهم بدون شروط ما دمت تتكلم بهذا الحنان. افتحوا لهم الباب من أجل أن يذهبوا إلى حياتهم. قال, الأمر ليس بيدي.. إنها أوامر القيادة.

لقد حاول بكل الوسائل أن يرغم الفواز على القبول بإقناعنا, من أجل أن يتكلم معنا, لكنه جوبه برفض قاطع. والحقيقة, أن الفواز لا يستطيع أن يتدخل في هذا الشأن على الأطلاق, لأن كل معتقل سيد نفسه وسيد قراره.

في مساء ذلك اليوم أخذونا إلى الفرع مرة ثانية وكنا /12/ عضواً من الحزب الشيوعي المكتب السياسي وستة من حزب البعث الديمقراطي/ صلاح جديد/ واستثنوا المهندس سليم خير بك لانه تكلم مع اللجنة الأمنية مطولاً فاعتبروا موقفه صلباً ولا فائدة من مساومته مرة ثانية, كما استثنوا عادل صهيوني/ أبو صبحي/ من التنظيم الشعبي الناصري للسبب ذاته.

في القبو, كل واحد ينتظر دوره من أجل الدخول إلى المساومة مرة أخرى. عندما دخلت إلى مكتب العقيد عدنان محمود كنت أتوقع أن أرى اللجنة الأمنية ذاتها مرة أخرى. لكني فوجئت بوجود اللواء عدنان بدر حسن رئيس الشعبة السياسية وراء الطاولة وإلى جانبه العقيد عدنان محمود. رحب بي وقال لي أجلس. جلست على الكرسي. قال لي, أصدر السيد الرئيس عفواً عنك ونريد منك أن تذهب إلى بيتك. قلت له, وأنا أريد أن أذهب إلى بيتي. لا أحب أن أبقى في السجن. قال, ممتاز إنك تقرب المسألة سنخفف الشروط. انسحب من الحزب فقط وسنفرج عنك. قلت, لا .. لا انسحب من الحزب. كان يتكلم بلطف جم. لم يبرز أنيابه. قال, ما زلت شاباً في مقتبل العمر ولا أريدك أن تضيع خلف القضبان. أخرج من هذا المكان, هذا لمصلحتك. قلت, أنا أعرف مصلحتي ولا انسحب من الحزب. قال, حسناً ستبقى في السجن. قلت, أعرف إنني سأبقى في السجن.

نزلت إلى القبو فوجدت سبعة من رفاقي هناك بينهم شرطي يمنعهم من التكلم مع بعضهم. كان هناك فرحان نيربيه, المرحوم رضا حداد, عدنان مقداد, عدنان أبو جنب, محمد خير خلف, يوشع الخطيب, نقولا الزهر.

عدنا ثمانية أفراد إلى السجن.

في أثناء عودتنا إلى السجن وضعوا معنا في المكرو مجموعة من 25 فرداً من الإخوان المسلمين كانوا قد جلبوهم من سجن تدمر العسكري. عادوا معنا إلى سجن عدرا وكانوا قد ألبسوهم ثياباً عسكرية خضراء وحذاء رياضي. عندما وصلنا عزلوهم في مهجع خاص. لم نحتك معهم أبداً. لقد تركوهم هناك في انتظارخطاب القسم لحافظ الأسد في 12 آذار. كان الفرع يتوقع أن يتم الإفراج عنهم. لكن لم يتم أي شيء من هذا القبيل لذلك أعادوهم إلى تدمر مرة أخرى.

وفي 24/ 12/ 1991 أخذوا مجموعة أخرى مؤلفة من ستة أفراد من السجن من مختلف الاحزاب وأفرجوا عنهم في نفس اليوم وكان ذلك يوم الثلاثاء.

بقي عددنا في الجناح 41 فرداً بعد أن كان بحدود مئة وخمسين فرداً. تم توزيعنا على المهاجع وعملوا علينا حصار, حرماننا من التنفس والخروج إلى الممر والباحة. لقد عزلونا كل ستة أو ثمانية في مهجع. كنا نخاف أن يرحلوننا إلى سجن تدمر العسكري.

وضعوني في المهجع العاشر مع الأخ والصديق نقولا الزهر ومحمد خير خلف من الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/ وصفوان عكاش ومازن علي شمسين من حزب العمل الشيوعي ومحمد دقو من التنظيم الشعبي الناصري ورسول الجوجو وتمام الحاج حسين من المتهمين بالانتماء إلى حزب البعث العربي الاشتراكي / العراق/.

بقيت الزيارات مفتوحة ودورية ولم تتأثر بمسألة العفو أورفضه, وبعد بضعة أيام سمحوا لنا بالتنفس لمدة نصف ساعة تبدأ من فترة فتح الباب وإلى حين إغلاقه بدقة تامة, لهذا صار الانتظار مملاً, الجميع ينتظر خطاب القسم لحافظ الأسد مع توارد أنباء كثيرة عبر زيارات الأهل عن قرب الإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين وفتح أبواب السجون وتبييضها.

الحقيقة أن هذه الإشاعات من وجهة نظري, تسهر عليها وتغربلها الأجهزة الأمنية وتبثها في الشارع عبر مخبريها وموظفيها الذين لا يحصون. من المعروف أن الإشاعات جزء من الحرب. والنظام والسلطة في سوريا في حالة حرب دائمة مع المجتمع. لهذا عليه دائماً أن يختلق المبررات والإشاعات من أجل أن يلهي الناس بشيئ, يقوم بهذا النشاط من أجل خلق حالة امتصاص وبلبلة بين الناس وخاصة أهالي المعتقلين تحديداً.

جاء والدي في 1992/1/13 في زيارة إلى السجن. قال, أمك تبقى على الشرفة ساعات في انتظارك. لقد خرج الكثير من أصدقائك ورفاقك, لماذا لم تخرج! قلت له بعد تنفست طويلاً, قريباً إن شاء الله. سأخرج يا والدي لا تقلقوا علي. حاول أن تطمئن والدتي على وضعي. أنا بخير ولا تقلقوا علي. ربما يتساءل البعض لماذا رفضت العفو. أقول, لم اتنازل عن حقي في الحياة, أن أكون مواطناً في المكان الذي أعيش فيه. لن اتنازل عن حق من حقوقي حتى لو أدى ذلك إلى ضياع حياتي. كنت خائفاً على حياتي وخائف على مستقبلي أيضاً, مثلي مثل أي إنسان في هذه الحياة. أحب الحياة وأحب أن أعيش بكرامة وسلام في وطن آمن, وأعرف إنني بين أنياب ذئاب جائعة تريد أن تنهش كل خلية في روحي وجسدي. القبول صعب للغاية والرفض صعب للغاية, أمران أحلاهما مر. كنت أحس بالتمزق الداخلي لعذابات أمي وأبي وأخوتي علي, من البعد, من الغربة ومن حالة الضياع الذي نعيشها ويعيشها شعبنا ومجتمعنا.

كنت اتمزق من العذاب والمرارة التي يتكبدها أهلي من جراء خوفهم علي. كان والدي في السبعين من العمر. عندما كنت أراه خلف الشباك مع أمي الحزينة أشعر بالحزن واليأس. مرات كثيرة كنت أعود من الزيارة وقلبي بين يدي يتمزق. دائماً أرى نفسي في مواجهة البقاء في السجن أو الخروج. القبول أو الرفض. الأمرلا يتعلق بتحدي سلطة جائرة أو الخضوع لقوتها وجبروتها, أنما أن تتنازل عن حقك أو لا. أنه أمر صعب للغاية.. أمر صعب وصفه على الأطلاق.

أنا لا ولن أحقد على أي فرد من أفراد السلطة الجائرة حتى أولئك الذين عذبوني. وليس لي أي موقف عدائي منهم على الأطلاق. لكن أتمنى أن يقدم كل فرد منهم في المستقبل إلى محاكمة عادلة جراء ما فعلوه بنا وفي مجتمعنا بمن فيهم حافظ الأسد منذ أن كان وزيراً للدفاع وإلى حين موته, وأجهزة مخابراته من أصغر عضو إلى أكبرهم مرتبة.

كنا في المهجع نقضي الوقت في الاستماع إلى الراديو في متابعة الأخبار أو نمشي في ممر المهجع أو نتحدث.

في شهر رمضان كنا نطبخ من المواد الغذائية التي تركها أخوتنا وزملائنا السجناء الذين خرجوا من السجن. نأكل بعد الصلاة, عند ضرب المدفع مع الصائمين.

كانت تتوارد أخبار مفرحة مفادها أن هناك بعض السجناء السياسيين خرجوا من سجن صيدنايا العسكري بدون شروط. لكني أشك في ذلك, ففي الأنظمة الاستبدادية لا يوجد مفهوم المواطنة في ذهن الذين يحكمون البلاد, إنما رعايا وقطيع.

كما هو معروف, الشرق الأوسط منظومة أمنية سياسية أمريكية مُحكمة. منظومة متماسكة, متراصة, مترابطة عبر حلقة متينة أو سلسلة قوية ومحكمة ومغلقة. ولا يمكن لأي نظام في الوطن العربي أن يشذ عن القاعدة إلا بتغير قواعد اللعبة من قبل قيادة النظام الدولي أو بتغيير المنظومة الفكرية والسياسية لشعوب منطقتنا وقدرتها على فرض شروطها على النظام نفسه.

أول المؤشرات السلبية جاءت سريعاً ففي الحادي عشر من كانون الثاني من العام /1992/ حدث انقلاب عسكري في الجزائر, نحى العسكرالرئيس الشاذلي بن جديد من السلطة والغوا الجولة الثانية من الانتخابات. المؤشرات تقول أن الأنظمة الاستبدادية والمنظومة الأمنية السياسية العربية باقية إلى إشعار آخر.

أنا من الناس الذي جهز نفسه للبقاء في السجن مدة طويلة. كنت أعلم تمام العلم أن السجن العربي سيكون طويلاً ولا يوجد أي أفق مشرق أوبصيص أمل للخروج منه. السجين السياسي العربي, المنظومة الأمنية العربية, وجودهما في السجن, السلطة, مربوط بجملة شروط محلية وإقليمية ودولية. خروج السجين العربي مرفوع الرأس يعني تكسير هذه المنظومة وإنهاء دورها وهذا يحتاج إلى منظومة فكرية ثقافية سياسية مغايرة. منظومة فلسفية ناهضة تقلب المفاهيم والأوضاع السائدة. خروجنا من السجن مكسورين لا يعني إننا مهزومين, فالمسألة ليست شخصية على الأطلاق, والهزيمة هي هزيمة مجتمعية على كل الأصعدة.

لم تصرح قيادة النظام الدولي عن رفضها لما حدث في الجزائر, لا البيت الابيض ولا وزارة الخارجية الأمريكية,

المباركة جاءت فرنسية سريعة لهذا الانقلاب. إذاً المؤشرات تقول, قبول النظام الدولي بالانقلاب العسكري في الجزائر, وقبله السودان! فالمنظومة الأمنية العربية قائمة ولن يجري اختراقها أو تكسيرها من قبل المركز. والنظام الأمني السياسي العربي قائم إلى إشعار آخر. لهذا مددت فراشي على السرير وربطت أحزمتي من أجل امتطاء الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر. قلت, حزمت أمتعتي للرحيل إلى المجهول, علينا بالصبر حتى لا تخربنا السنون القاسية.

تذكرت..

طيور الزرازير على شجرة الكينا في ساحة دارنا في رأس العين. في مواسم الرحيل من الشمال إلى الجنوب, في رحلة البحث عن البقاء تهاجر تلك الكائنات الجميلة إلى موطنها المتغير في رحلة البحث عن الدفء والبقاء. كانوا يحطون رحالهم على تلك الشجرة العملاقة مثقلين بالتعب والإرهاق, الجوع والإنهاك, البرد والسفر الطويل. الكثير منهم كانوا يتساقطون على الأرض من البرد والجوع والفراق والغربة, لضعف أجسادهم الذي أرهقها السفر الطويل, أصوات استغاثاتهم المبحوحة في أذني وعقلي وقلبي منذ كنت طفلاً في العاشرة من العمر. عيونهم الموجوعة, الحزينة, تقول, دعني أرحل إلى موطن الدفء والأمان, إلى موطني القادم. دعني أرحل إلى المكان الذي أحط فيه أعشاشي ونسلي وبقائي, دعني ألقي مجاديفي هناك. كان الثلج الأبيض قاسياً وبرده يسلق العظام, كانوا مشبعون بالألم والجراح الطويلة, يصرخون بنبرة مرة.

لكن لصغر سني لم أعر مواجعهم أي اهتمام يذكر!

كان بيتنا وشجرة الكينا العتيقة بالقرب من البئرالعميق سمتاً لمختلف أنواع العصافير والطيورالمهاجرة, التي تستريح قبل متابعة الرحيل إلى المستقبل.

بدأت تتوارد أخبار متقطعة عن تقديمنا إلى المحكمة. في البدء لم نصدق ما يشاع. كنا نقول, هل يعقل أن تقدم هذه السلطة الجائرة المعتقلين السياسيين إلى المحكمة بعد أثنتا عشرة عاماً من السجن العرفي.

إذا المحكمة أمنية سياسية.

في 1992/3/31 جاء العقيد عدنان محمود رئيس الحقيق المركزي للأمن السياسي إلى السجن وفتح الأبواب. قال, لقد انتهى كل شيئ. عودوا إلى حياتكم العادية. أنتم تحبون البقاء في السجن. في 4/16/ 1992 جلبوا أربعة معتقلين سياسيين من سجن حمص المركزي وهم, محمد سيد رصاص, عادل أحمد, عبد الكريم عيسى, حنا بيطار من الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/. كما جلبوا من سجن المسلمية في حلب /18/ معتقلاً سياسياً منهم, ياسين الحاج صالح, عمر الحايك, حكمت مرجانة, المرحوم عبد الله قبارة من حزب الشيوعي / المكتب السياسي/. ماجد حبو, بكر صدقي, فراس يونس,

عزيز تبسي, أديب الجاني, حسين السيبراني, أسامة عاشور وغيرهم من حزب العمل الشيوعي. وحسن النيفي, إبراهيم اليوسف, حسن ومحمد الدرج وغيرهم من حزب البعث العربي الاشتراكي/ العراق/. وخالد الناصر, وأحمد رجب وغيرهم من التنظيم الشعبي الناصري. وقد مات هذا الأخير بالسكتة القلبية فور وصوله إلى سجن عدرا بدمشق ولم نستطع التعرف عليه.. وذلك لأننا كنا في المهاجع والأبواب مغلقة علينا, كما كنا محرومين من التنفس.

لقد حولوا سجن عدرا المركزي كمركز لتجميع كل المعتقلين الموجودين لدى الأمن السياسي في سوريا.

بعد فترة من الزمن عاد الأمن ليفتح الأبواب مرة ثانية. تعارف المعتقلين من كل السجون على بعضهم البعض, وصار معروفاً للجميع أننا سنخضع للمحاكمة بسبب آرائنا السياسية.

كانوا يروجون الإشاعات بين الناس عن قرب الأفراج عن المعتقلين السياسيين عن طريق المحكمة, وأنها مخرج لخروجهم من السجن.

في 5/19 من نفس العام أخذوا الدفعة الأولى من حزب العمل الشيوعي إلى التحقيق الأولي. أخذوهم مكبلين بالسلاسل وتحت حراسة الأمن السياسي إلى محكمة أمن الدولة العليا في دمشق. كانوا عشرة أفراد من قيادات الحزب. وفي اليوم الثاني أخذوا العشرة التاليين. بعد التحقيق الأولي معهم جرى عزلهم في مهجع بعيد ومنعوهم من الاحتكاك معنا.

لم نعرف لماذا جرى تقديم ستمائة معتقل سياسي إلى المحكمة بعد سنوات طويلة من السجن. ما الهدف من هذا العمل. كما هو معروف كان الجميع في السجن موقوفين عرفياً.

في 25/ 5 من نفس العام كبلوا عشرة معتقلين من كوادر وقيادات الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/ وأخذوهم إلى التحقيق الأولي وفي اليوم التالي أي 5/26 أخذونا إلى التحقيق مثلنا مثل غيرنا.

سأتكلم ما جرى لي وبالتأكيد جرى مع غيري.

بعد أن كتب اسمي وأسم الكنية وتاريخ انتسابي إلى الحزب وأسم المطبوعات ونشاطي. سألني القاضي الأولي مثلما يساوم أي رجل أمن للمعتقل السياسي, أنت متهم بالانتماء إلى الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/. وأضاف, هل هذا صحيح. قلت, نعم هذا صحيح. قال, هل كنت تدفع الاشتراكات وتقرأ المطبوعات وتؤكد الأقوال الموجودة في محضر تحقيقات الأمن. قلت, نعم أوكد كل ما قلت سابقاً. لكن يجب أن تسجل أن جميع أقوالي انتزعت مني تحت التعذيب. قال, هل تنسحب من الحزب. قلت, لا, لا لن انسحب من الحزب وأكدت بقائي فيه. وقلت أنا باق في العمل السياسي ولن أغير رأيي. لم يتكلم ولم ينبس ببث شفة, ظل ينظر إلي مستغرباً. ولماذا لا يستغرب, ففي دولة البعث يعتبر كل معارض لسلطتهم ضرباً من الجنون.

أخذ إفادتي, سجلها وكتب ما قلته ثم وضعت إمضائي عليها. ثم عدنا إلى السجن متعبين تماماً.

قاومت مع بقية الأخوة عملية التدجين والخضوع التي مارسها النظام المستبد بحقنا كبشر. رفضت بشدة وسائلهم المتعددة في تفريغ طاقة الرفض التي في داخلي. وضعت لنفسي التصورات والأفكار التي تجعلني أبقى متوازناً ومتماسكاً في عملية مصارعة قتل الوقت الطويل وتدجينه. اكتشف أحلامي ورغباتي في لحظات مراجعة الذات في أوقات الشدة واليأس والتعب.

الحلم جزء من معادلة البقاء.

أعرف أن التأريخ يسير عكس الإتجاه الذي نريد ونرغب.

أتذكر رفيقي مصطفى حسين عندما رمى الراديو على السريروأنزلق بهدوء في الفراش وراح في غيبوبة لم يفق منها أبداً. كان وضعه يتدهور يوماً بعد يوم إلى حين خروجه من السجن. ما أن سمع انسحاب الجيش العراقي تحت القصف الأمريكي القاسي والمباشر والخالي من الرحمة, إحساسه بالحقد الامريكي للإنسان والأرض والشجر مما أعاد إلى ذاكرته المنعشة سقوط الجولان, الانسحاب الكيفي للجيش السوري قبل دخول الجيش الإسرائيلي بأيام. نظر في أعماق ذاكرته المتيقظة دائماً, كيف تسقط

المدن والأوطان والأحلام بيد أنظمة جائرة ومأجورة لا هم لها إلا مصلحتها الآنية, يرى ويسمع كيف تسلم البلاد إلى الآخرين. رمته الصدمة القاسية على الأرض فأصيب بالانفصام على أثرها.

كنت معه وإلى جواره في المهجع, أرى وأشاهد كيف يخرب يوماً بعد يوم. لم نعد نستطيع أن نسعل أو نحك رؤوسنا أو نحكي بصوت عالي بوجوده. أصبح يشك في كل شيئ, يحس أن الجميع متأمرون عليه. حتى أصوات العصافير كانت تقلقه. ويوماً بعد يوم يزداد سوءاً على سوء.

كان مصطفى حسين رفيقاً وصديقاً وأخاً بالنسبة لي. لقد تعلمت منه الكثير الكثير قبل أن يمرض. كان متبحراً في التراث العربي والإسلامي. كتب الكثير حول هذا الموضوع. كان ذهنه منفتحاً وقدراته السياسية عالية, يحلل بذهن صاف ونقي. خريج كلية الحقوق. عندما كان يمسك أحد مجلدات الطبري أوغيره, يقرأ بنهم.. لم يكن يتوقف عن القراءة في أقل من ثماني ساعات إلى عشرة ساعات متواصلة من دون توقف.

الكثير منا تعرض للأمراض العضوية نتيجة الحصروالضغط والحرمان بأشكاله المتعددة والمتنوعة. لم نكن آلهة أو رسل من السماء, كنا بشر ندافع عن آرائنا وأفكارنا.

كم كنت حزيناً..

استطاع حافظ الأسد أن يشتري الكثير من الكتاب والمفكرين, أساتذة جامعة وصحافيين في الداخل والخارج. نسمع كيف يمارسون العهر بإتقان وحرفية عالية. نتألم لكون قضايا الحريات بعيدة عن هموم هؤلاء البشر. وكان هناك مأجورون في الدفاع عن قضايا حقوق الإنسان في الخارج, تقوم الشركات العملاقة بتمويلهم من أموالها الخاصة ليتحولوا إلى تجار, يتاجرون بقضايا دماء الناس والمعتقلين.

في نهاية آذار..

أعادوا ال25 فرداً من الإخوان المسلمين إلى سجن تدمر.

بعد عملية الإفراج..

تحديداً في شهر شباط أصبت بمرض لم أكن أعرف ما هو. كأن سلكاً أو شحنة كهربائية مستمرة تسري في عروقي وأعصابي طوال الوقت, في الليل والنهار. بدأ المرض معي عندما كنت أشرب المتة مع تمام الحاج حسين ظهراً. أحسست بتنميل في الصدروالكتف واليدين. قلت للأخ صفوان عكاش ونقولا الزهر عن وضعي. سألني صفوان عكاش إن كنت متوتراً أو مضطرباً قلت له: لا.

أخذني صديقي وأخي مازن علي شمسين إلى الطبيب مع الشرطي. فحصني الطبيب وسألني مثلما سألني صفوان وأجبته بكلمة لا. أعطاني حقنة مهدئة وعدت إلى المهجع ونمت طويلاً ولم أحس بالارتعاش والتنميل. لكن بعد أربع وعشرين ساعة من الحقنة عاد التنميل إلى كل أنحاء جسمي مرة أخرى وبشدة أكبر. بعد أشهر من هذه الحالة سألت الطبيب خالد الناصر الأمين العام للتنظيم الشعبي الناصري. قال مثلما قال غيره. إنه وضع نفسي مضطرب. قررت على أثرذلك أن أزيد جرعة الرياضة. بقيت على هذه الحالة أربعة أعوام كاملة. أجهد نفسي في الرياضة كثيراً لدرجة لم أكن أعرف طريق الفراش عندما تحل ساعة النوم من كثرة التعب والإجهاد. أنام كالميت أوالقتيل إلى الصباح.

أربعة أعوام عشتها في وضع لا يحسد عليه.

بالعزم والحزم واختيار الطرق الصحيحة, بالرياضة اليومية القاسية تخلصت من هذا الوضع تماماً.

لكني اعتقد بعد هذا الوقت الطويل من الحادثة أن المرض كان عضوي ولم يكن نفسي على الأطلاق لأنني لم أعان منه في أقسى الظروف, أقصد تجربة سجن تدمر.

بعد عودتنا من المحكمة وضعونا في المهجع الثامن, كنا عشرون فرداً من الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/ من مختلف المحافظات السورية. حرمنا من الزيارات والتنفس بالكامل. في هذا المكان حدث نقاش بيننا لكن لم يرق إلى مستوى الحوار. كنا أقل قدرة على الدخول في حوار خلاق نخرج منه بنتيجة مجدية, مثلنا مثل غيرنا. لم نرق إلى مستوى المسؤولية والتجربة الكبيرة التي رميناها على كاهلنا. كنت

وكان معي الكثير نأمل ان نشكل لجان ومجموعات, نناقش ونبلور أفكارنا وتصوراتنا للمحكمة والمحاكمة وطريقة التصدي وشكل العمل. كان بالإمكان تشكيل لجان ثقافية وسياسية واجتماعية ومالية تسهر على توزيع المهام والطموحات على الجميع. هذا الشيء لم يحدث لدينا أيضاً وإن حدث وحصل مثل هكذا وضع ستدخل فيها الوصايات والشروط من البعض.

كنا أمام حدث مهم وخطير, كان النظام موحداً في مواجهتنا, بينما لم نستطع أن نقود نقاشاً بناءً عن أي مسألة من المسائل المتعددة التي تواجهنا, مثل المرض والمشفى والطعام, تحسين شروط وجودنا في السجن.

طوال الوقت لم نرق إلى مستوى المسؤولية, لم نستطع أن نتحاور مع بعضنا في القضايا الساخنة التي كانت تحدث في العالم. نفتقد إلى التنظيم والترتيب في توزيع المسؤوليات سواء ما يمس الأمور الحياتية أو السياسية أو الاجتماعية أو المالية. وإذا حدث ووصلنا لهذا الأمر بالتأكيد, كنا سندير الأمور بمنطق العقلية القبلية أوالعشائرية.

غيرنا حاول القيام بذلك لكنهم فشلوا للمرجعية الذهنية لمجتمعاتنا الما قبل مدنية.

في المجتمعات المقهورة, الناس لا تسمع لبعضها على الأطلاق, الجميع ينظرون إلى بعضهم بزوايا حادة جداً, من أقصى حدود الارتفاع أو الانخفاض.

لم يسبق لأحدنا أن تقدم للمحاكمة, كما لم نعرف أي شيئ عنها خاصة مضى على مكوث رفاقنا في الحزب الشيوعي مدة أثنتا عشرة عاماً عرفياً.

كان بيننا مجموعة من المحامين راحوا يتكلمون عن المحاكمة والمحكمة وعن أحكامها. لكن لم نكن نعرف على أي بند سنحاكم؟ كل ما عرفناه إذا ما مضى على جريمة ما عشرة أعوام تموت القضية بالتقادم. لكن السلطة الحاكمة كانت تنظر إلى قضيتنا على أنها جريمة دائمة ومستمرة وتمس السلطة السياسية ذاتها ولا تموت بالتقادم.

قلت للذين حولي في المهجع أن توكيل محام ما للدفاع عنا خطأ كبير علينا تلافيه وتجاوزه. لكن الكثير لم يعرهذا الأمر أي أهمية. قلت, أن توكيل محام تعني ما تعنيه الاعتراف بالمحكمة والمحاكمة وقانونيتها وشرعيتها وبالتالي هو اعتراف بشرعية السلطة السياسية وجرائمها.

لقد قبل البعض هذا الرأي ورفضه البعض الآخر, قالوا إن المحكمة منبر للدفاع عن قضايا المعتقلين والاعتقال السياسي في سورية. أنا من الناس الذين نظروا إلى المحاكمة والمحكمة بوضوح وأعرف أن القاضي الذي يقف وراء المنصة هو مخبر صغير ورجل رخيص وتافه. هؤلاء, من قضاة وممثليهم جزء من اللعبة, يريدون من الجميع أن تبقى في دائرة الخضوع, أن يتنازلوا ويتحولوا إلى رقم هامشي. كنت أقول:

تقديم المرافعة والتكلم أمام القاضي والدفاع عن نفسي على إنني متهم يعني ذلك أن المحكمة شرعية وقراراتها مصيبة.

يجب على المعتقلين أن لا يكتبوا المرافعة, أن لا يتكلموا أمام القاضي, أن لا ينطقوا بحرف واحد, أن يرفضوا الذهاب إلى المحكمة.

وإذا أجبرت على الذهاب تحت التهديد, علي أن أذهب وأسكت, ألتزم الصمت التام, أن أدير ظهري للمحكمة وللمحاكمة, أن لا أنطق بحرف على الأطلاق. كل كلمة مني تعني إنني متهم, وأنني أمام قاضي محترم ومحكمة محترمة وعادلة, وسلطة شرعية.

لم يقبل أحدهم هذا الكلام, بل ضاع كلامي في الهواء وقال الكثير منهم إنني خائف وأهرب من المواجهة.

الصمت هو أفضل طريق للدفاع عن حقي كإنسان في مواجهة نظام شرير.

الكثير كتبوا المرافعات, أجادوا في التعبير عن مكنوناتهم, سواء كانت أدبية أو سياسية ولكن لا رصيد حقيقي لها على أرض الواقع. مرافعة لا تقدم ولا تأخر, هي مرافعة شكلية قيمتها معنوية لأننا نقرأها لبعضنا. أو يقرأها أهل وأصدقاء وأقرباء المعتقلين أوبعض المهتمين بشؤون بلدنا في أوربا من السوريين أوبعض المهتمين بالشأن العام.

إلى اليوم لم يقم أي حزب سياسي في سورية بتقييم طريقة التعامل مع هذه المحكمة الجربانة.

لكن, هذه المحكمة فككت الروابط بين المعتقلين على كل كافة الأصعدة, جعلت كل فرد يبحث عن خلاصه الفردي.

هناك من لهم مدد طويلة في السجن, والبعض الأخر حديثي العهد. فالأحكام مهما كانت طويلة ستكون لصالح القدماء, بينما الجدد سينتظرون مدة أطول تمتد إلى سنوات طويلة حتى يخرجوا.

لم يبق أي تضامن بيننا ولو شكلي.

تسعيرة السجين السياسي المنظم في حزب سياسي ذو طابع سلمي /أي لم يحمل سلاح/ من اثنتي عشرة سنة إلى خمسة عشرة سنة. الذي يتنازل عن موقفه يكتفون بالمدة التي سجن بها. هناك من يتنازل عن موقفه لكن تقرير الأمن ورأيه في السجين هو المرجح. القاضي لديه صلاحية, زيادة سنة أو سنتان أو إنقاصها من السجين. الكثير قالوا إنهم لم يعترفوا في التحقيق, لكن ثبت إن هذا الكلام كاذب ومبالغ فيه.

كان المهجع حاراً, النفوس قلقة, وكنا في حالة ترقب وانتظارعما تنجلي عليه الأمور.

أحلام تتلاشى والمستقبل وجع دائم.

تتشابك الأحداث والتطورات ونحن في مواقعنا كالعجزة وعلى مسافة منا جلاد اطرش يقرر مصيرنا.

كنت أنظر إلى الأخ عبد الله قبارة, الآلام التي كان يعانيها من ظروفه الأسرية. ليالي طويلة لم يكن ينام أو يغفى نتيجة القهر والمرارة التي ألمت به نتيجة ابتعاده عن أسرته. تحت تأثير الضغط الكبيرأصيب بمرض السكري. عندما كنت استيقظ من النوم في أنصاف الليالي, كنت أراه جالساً في ممرالمهجع وعلى الطرف الآخرمصطفى حسين كلاهما جالس, أقول, أبا نجم لماذا لا تنام, هون على نفسك قليلاً, دع التيار يأخذ مجراه. كان ينظر إلي بحزن ويقول, لا أستطيع النوم, حاولت كثيراً لكني لا أستطيع. كيف تنامون, علمني كيف تستطيع أن تنام.

عندما مات نعاه حزبنا بسطر واحد يتيم.

أما الصديق مصطفى حسين فقد كان خائفاً طوال الوقت من الآخرين, من شخيرهم, سعالهم, حركاتهم أوسكناتهم.

كانت أرجل عبد الله قبارة مصابة بالضمورفي منطقة الساق من جراء التعذيب. لم يكن يستطع المشي إلا بصعوبة بالغة. طوال الوقت كان يشكي من الوجع في قدميه.

جميعنا خاض معركة البقاء على قيد الحياة من أجل حلم قادم.

كان المرحوم رضا حداد هو الآخر يمر في ظروف نفسية صعبة للغاية نتيجة وضعه الأسري العسيروتمزق الغضروف في ركبته. لقد ناشد إدارة المفرزة طويلاً من أجل أخذه إلى المشفى لإجراء عملية جراحية لركبته والتقاط العظام المفتتة فيها.

أسر كثيرة تفتت وبيوت كثيرة للمعتقلين تفكك شملها.

فقد نكر الكثير من الأولاد أبائهم, وتركت الكثير من الزوجات أزوجهن. حدث شرخ بين الزوج وزوجته نتيجة الفراق الطويل والمسافات الزمنية الطويلة بينهم. لم تستطع الأيام أن ترممها. الأخوة غدروا بأخوتهم المعتقلين, تصرفوا بأملاكهم وأرثهم. الكثير هربوا, والكثير هاجروا. ماتت الحميمية والعاطفة التي كانت تربط السجين بأهله بعد هذا الغياب الطويل. لقد تغيرالسجين كثيراً على الصعيد

النفسي والروحي والمعرفي ولكنه تأخر كثيراً عن التطورات التي طرأت على الحياة والناس والمجتمع. هذا الشرخ العميق, قاطع وطولاني والضريبة قاسية من الطرفين بين الداخل والخارج.

في المحن والأزمات الصعبة والقاسية يكتشف الإنسان قدراته الفعلية, مواطن القوة والضعف, في نفسه وروحه, تنكشف شخصيته وإمكاناته, كذبه وصدقه سواء كان على نفسه أوعلى الآخرين.

كانت الرياضة تحسن مزاجي وتعيد التوازن إلى نفسي. بين الفترة والأخرى تعود دورة الكآبة واليأس تغزو روحي. لقد علمتني التجربة أن ألجأ إلى أقرب صديق, أذهب إليه, أقول له صراحة أنا متعب أريد أن أجلس معك, أفطر معك أو أشرب المتة. أحاول أن أتكلم عن العشق والمرأة والتأريخ, السياسة أو الأخبار. روضت دماغي على الهروب من لحظات القهر والخوف والألم.

دماغ الإنسان مثل النهر تستطيع أن تغير مجراه وموقعه بتغيير المكان. عندما كنت أقع في مشكلة ما, أزيح المسببات جانباً, ثم أدخل في حوار مختلف بعيداً عن الهم الذي ألم بي. أناقش في جوانب مشكلة أخرى مختلفة حتى يتمرن عقلي وقلبي على نسيان المشكلة الأولى.

كان لي أصدقاء من جيلي مثل الصديق والأخ ياسين الحاج صالح ومازن علي شمسين وراتب شعبو وعماررزق وتيسير حسون والحارث النبهان وحسن النيفي وغيرهم.

زمن السجن طويل, نهاره ممل ومكرر ومتشابه. الأيام تشبه بعضها, ودائماً أحلامنا حدية بين أقصى الماضي وأقصى المستقبل. أما الحاضر فهو مرفوض.

كانت زيارة أهلي للسجن تتعبني, تذكرني بالأحبة والأهل والناس الطلقاء.

ما أقسى أن تجلس أمام مرآة روحك, تحاسبها وتؤنبها. ما أقسى أن تكون مداناً أمام نفسك. كثيرة هي المرات التي أجلس فيها مع نفسي ووجهي للشمس وظهري للحرية. أقول, كنت ضعيفاً ومرات كثيرة كنت جباناً لكني حاولت جاهداً أن أتحدى تلك اللحظات.

بين الفترة والأخرى تغزوني الأفكار السوداوية, تندس بين خلايا تفكيري تبعد عني الشعور بالراحة والاطمئنان. أحس بحالات الضعف التي كانت تنتابني بين الفينة والأخرى من أيام التحقيق. أتذكر تلك اللحظات الصعبة والمذلة عندما اعترفت على صديقي ورفيقي محمد خير خلف. اعترفت عليه من جراء التعذيب والخوف وقلة حيلتي وخبرتي. مع هذا أحس أن هذا الاعتراف محطة مخجلة في حياتي وذاكرتي لم أشف منها إلى الآن رغم مرور عشرين عاماً على الحدث.

هذا كان خطأي.. وكان على محمد خيرأن يحمي نفسه, خمسة أيام فترة كافية ليعرف أن وضعي في المعتقل مأزوم.

لأنني بيد جلاد لا يعرف النوم إلا على رائحة الدم. رغم ذلك تبقى الرياح تلفح وجهي وقامتي وتجعلني جامداً في مكاني.

لم أكن بطلاً على الاطلاق, أنا إنسان, أخاف وأحزن. تأتيني الكآبة واليأس في صرر ملفوفة في سلل, محملة فوق صدر الرياح السوداء الهاربة من مطرح إلى مطرح.

حاولت الهروب إلى الأماكن الأكثر دفئاً وسكينة في حياتي.. إلى الطفولة. اتحايل على نفسي, أكذب وألون الأيام الماضية والمستقبلية بأجمل الصورلأن هذا كان ضرورياً من أجل أن أبقى على قدمي. كان يجب أن أبعد لحظات الألم والوجع والرغبات الدفينة في مكان مجهول من روحي حتى لا أتمزق من الحزن والحرمان والفراق والألم.

استعيد المرأة في أجمل لون.

في الزيارات جاء إلى السجن الكثير من المحامين الذين تبرعوا في الدفاع عن المعتقلين منهم منير العبد الله, خليل معتوق وغيرهم. كما كلف التجمع الوطني الديمقراطي حسن إسماعيل عبد العظيم للدفاع عنا. بينما تبرع المحامي محمد سلام في الدفاع عن مجموعة أخرى. جل المحامين الذين تبرعوا في الدفاع عن المعتقلين كانوا من المستقلين ومن أحزاب معارضة.

في16/تشرين الثاني من نفس العام كبلونا بالسلاسل مرة ثانية وأخذونا إلى محكمة أمن الدولة, التحقيق الثاني. سألني القاضي الثاني عبد الله التلي الأسئلة القديمة, كررت نفس الإجابات. قال لي بسخرية مثل شخصيته التافهة, لماذا لا تنسحب من الحزب. قلت له, هذا ليس شغلك. أنت تسال وأنا أجيب. قال, من أجل مصلحتك. قلت, كلكم تفكرون في مصلحتنا, تريدون لنا الخير. منذ متى طرأ عليكم هذا التحول الإنساني الكبير, كلكم أصبحتم تعرفون مصالحنا أحسن منا. وعندما أردت الجلوس, قال, لا هذا غير مسموح لك. لا أسمح لك بالجلوس. كان ورائي رجلان من الشرطة السرية يحموه. كان كلامه معي استفزازياً ورددت عليه بنفس الأسلوب الاستفزازي.

لقد رفض كل أعضاء المكتب السياسي الانسحاب من الحزب وثبتوا أقوالهم.

كانت أيامنا تمضي داخل مخزن الأسوارالعالية, ننبش الجدران العفنة ونبلع رمادها المتكلس.

في هذا المكان تهرب السماء من الأرض وتموت الكلمات بين أهداب الحواجز. ونحن نمضي, نهرب من محطة انتظار إلى محطة انتظارأخرى والزمن قيد يلتف حول العنق والرقبة.

بعد أن حمل الخريف أوراقه الصفراء ونام الشتاء على أهدابه, عادت جرذان الحقل للتكاثر.

في عام 1993.

في شباط من هذا العام أخذوا الدفعة الأولى من رفاقنا, أحمد فايز الفواز وعمرقشاش, المرحوم حنا بيطار وعبد الكريم عيسى, محمد سيد رصاص وعادل أحمد, أمين مارديني ومصطفى حسين, المرحوم عبد الله قبارة وحكمت مرجانة. أدخلوهم القفص في محكمة أمن العليا. كان القاضي فايز النوري رئيساً وإلى يمينه القاضي عبد الله التلي وإلى يساره القاضي العسكري لا أعرف اسمه.

كان القاضي فايز النوري يطلب كل من معتقل المثول أمام القوس ثم يلقي عليه لائحة الاتهام:

- أنت متهم بجناية الانتساب إلى جمعية سرية بقصد تغيير كيان الدولة الاقتصادي والاجتماعي وأوضاع المجتمع الأساسية. والتهمة الثانية كانت كما أوردها النوري:

- أنت متهم بجناية مناهضة أهداف الثورة في الوحدة والحرية والاشتراكية عن طريق نشر أخبار كاذبة بقصد البلبلة وزعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة.

لقد سمح القاضي فايز النوري للمعتقلين بالتكلم.

لست مخولاً بالحديث عن أحد, ولا أريد أن أتكلم على لسان أحد حتى لا أنقل عن لسانه شيئاً ربما لا يريد أن أقوله. لا أستطيع أن أقول ما قاله كل واحد من رفاقنا في المحكمة. لكن أستطيع ان أقول باختصارما قالوه. لقد تكلموا عن مجزرة تدمر موجهين كلامهم للنوري:

- هل سمعت في حياتك عن دولة لها موقف عدائي من مواطنيها, تقتل وتسجن دون سبب. يقول الدستور السوري الذي أشرفت قيادتكم السياسية عليه, ووضعت كل بنوده في العام 1972:

- الحرية حق مقدس وتكفل الدولة للمواطنين حريتهم الشخصية وتحافظ على كرامتهم وامنهم.

- سيادة القانون مبدأ أساسي في المجتمع والدولة.

- لكل مواطن حق الإسهام في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وينظم القانون ذلك.

- يمارس المواطنون حقوقهم ويتمتعون بحرياتهم وفقاً للقانون.

- كل متهم بريء حتى يدان بحكم قضائي مبرم.

- لا يجوز تحري أحد أو توقيفه إلا وفقاً للقانون.

- لا يجوز تعذيب أحد جسدياً أو معنوياً أو معاملته معاملة مهينة ويحدد القانون عقاب من يعمل ذلك.

- المساكن مصونة لا يجوز دخولها أو تفتيشها إلا في الأحوال المبينة في القانون.

يا سيادة القاضي:

كيف تجهزون كوماندوس مسلح بأحدث الأسلحة وتستقلون طائرات هليوكوبتر تهبط في ساحة سجن تدمر في قلب بادية الشام. تخرجون السجناء العزل من مهاجعهم إلى الباحة ثم ترشونهم بالأسلحة الأوتوماتيكية وتقتلون أكثر من ألف سجين لا حول لهم ولا قوة. أين هي الدولة, قوانينها, محاكمها. من الذي أصدرالأوامر, من المسؤول عن هذه المجزرة؟ لماذا جرى قتل هؤلاء بذلك الحقد الأسود. هؤلاء مواطنون سوريون والقانون السوري كفيل بمعاقبة من يخطأ هذا إذا كان هناك خطأ. أما أن تقتلوا بدم بارد ثم تأتي لتقول لي إنني أريد أن أغير الدولة. أنت عن أية دولة تتحدث. الدولة مؤسسة وهيئة مستقلة وليس لها موقف عدائي من مواطنيها. ورجال الدولة وجيش الدولة وشرطتها ليس لهم موقف عدائي من أي سجين. أما أنتم فلستم دولة وما نريد أن نغيره هو إيجاد دولة توقف قتل الناس وتعمل على تداول السلطة بالتساوي من خلال انتخابات حرة ونزيهة. لم يرد النوري, بقي صامتاً وبقي ينظر إليهم بذهول. قال آخر عن مجزرة مدينة حماه:

هل سمعت في حياتك عن دولة فيها قوانين ومؤسسات تقتل ثلاثون ألف إنسان بالمدفعية والدبابات, ويدخل جيش كامل إلى المدينة يقتحمها وينهبها ويغتصب نساءها ويسرق أموال الناس ويخرب المساجد والكنائس ويسحل سكانها من الشيوخ والنساء والأطفال بأقدام الجنود مدة ستة أيام كاملة. يقتحم المنازل والدور ويفتش كل منزل ويقتل ويدمر كل من يقف في طريق. الدولة لا تفعل هذا الشيئ. عن أية دولة تتكلم؟

في سورية لا يوجد دولة على الأطلاق. ما دام لا يوجد دولة فيجب أن تلغي هذه الفقرة التي تديننا بها. لم يتكلم النوري مرة أخرى. واكتفى بالصمت التام. وتكلم آخر, أنتم لستم دولة الوحدة, ألم يشارك جيشكم مع الأمريكان في حفر الباطن. هل الأمريكان عرب! هل جاؤوا من أجل الوحدة العربية! إذاً لماذا أرسلتم جيشكم لمحاربة دولة صغيرة من العالم الثالث؟ مضى على وجودكم في لبنان ثمانية عشرة عاماً تحولتم خلال هذا الوقت الطويل إلى عراب الحرب الأهلية والطائفية فيها. أين الوحدة التي تنادون بها.

الوحدة ليست جيش وقوات مسلحة وبوليس سري وقتل المواطنين وانتهاك الأعراض.

ألم ترسلوا جيشكم لمؤازرة الكتائب في لبنان, من الذي قتل الفلسطينيين في تل الزعتر, في المخيمات, من حاول تفتيت منظمة التحرير الفلسطينية. هل كان هذا من أجل الوحدة العربية.

أين الحرية. المواطن في بلدنا يسجن ويعتقل لمجرد رأيه, ألسنا في السجن بسبب آرائنا ومواقفنا المختلفة عن آراء سلطتكم. لماذا نحن في السجن؟ والاشتراكية التي تتحدثون عنها جعلت المواطن يتحول إلى شحاذ.

لقد مضى على وجودنا في السجن ثلاثة عشرة عاماً سجناً عرفياً, أليس هذا مخالفاً للدستور الذي أشرف عليه رئيس الجمهورية حافظ الاسد في العام 1972, والدستور يقر بعدم توقيف كائن من يكون إلا بنص قانوني محدد. اليوم بعد مضي هذه المدة الطويلة تتذكرون إننا جمعية سرية معادية للدولة ونريد أن نغيرها. ثم متى كان الشيوعيون معادون للاشتراكية وفي صلب برنامجنا السياسي الدعوة للحرية والديمقراطية وتداول السلطة والوحدة العربية وبناء الاشتراكية.

وتكلموا عن مجزرة جسر الشغور ومجزرة حلب وغيرها من المدن السورية.

سمح القاضي لكل واحد أن يتكلم براحته, لم يقاطع أحدهم بكلمة إلى حين أن ينتهي من مداولة أقواله.

في النصف الأول من شباط، أعتقد في 13 شباط، أخذوا الفئة الثانية من المعتقلين من الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/ باستثناء المرحوم رضا حداد الذي كان في المستشفى من أجل إجراء العملية الجراحية لركبته.

كبلونا بالسلاسل كالعادة واحكموا قيدنا وساروا بنا إلى المحكمة. وضعونا في القفص بعد أن فكوا وثاقنا وتركونا ننتظر مجيء القاضي فايز النوري. كان هناك عدد من المحامين منهم حسن إسماعيل عبد العظيم ومنير العبد الله وخليل معتوق.

عندما اكتملت منصة القضاة, المهزلة, من القاضي فايز النوري والقاضي الثاني عبد الله التللي والقاضي العسكري، دعا النوري باسم عمر الحايك.

قال له مثلما قال لكل المعتقلين السياسيين.

مجرد أن بدأ عمر يتكلم, من أول كلمة اسكته ولم يسمح له بمتابعة الحديث. قال له عد إلى مكانك. لم يكن القاضي فايز النوري يريد ان يكرر ما حدث مع رفاقنا في المحاكمة في الجلسة السابقة.

كما لم يسمح لفرحان نيربية وعدنان أبو جنب وعدنان مقداد وياسين الحاج صالح ومحمد خير خلف أن يتكلموا. بمجرد أن يحس رئيس المحكمة القاضي فايز النوري أن المعتقل متمسك بقناعاته ومواقفه يعيده إلى القفص. يستفزه وأحياناً يتصرف بطريقة وقحة مثل أي رجل في البوليس السري.

عندما جاء دوري ووقفت أمام القوس, تلى علي نفس الاتهامات التي تليت على رفاقي. قلت له:

- أنا أدينك وأدين المحكمة والمحاكمة وكل القرارات التي تصدر عنها ومنها ولا أعترف على أي نص أو قرار يصدر من هذا المكان. قال لي, أذهب إلى مكانك.

عدنا إلى السجن مرة أخرى متعبين ومنهكين من وضعنا الصعب. من وضع بلدنا وشعبنا تحت قبضة سلطة قذرة.

إنه شيء مؤلم أن نخرج من المحكمة إلى الشارع ولا نرى خمسة رجال أو نساء في الشارع يقفون إلى جانبنا.

كنت أحس أنا ورفاقي السجناء إننا في معركة خاسرة.

الإنسان في بلادنا قبل على نفسه أن يكون هامشياً لا قيمة له, لا يريد أن يشارك في الشأن العام التي تمس وجوده. كأن قضية المعتقلين لا تمسه على الأطلاق. أنا لن أعاتب الناس العاديين ولكن أين بقية الشرائح الاجتماعية في المجتمع من كتاب, مفكرون, أدباء, شعراء, طلاب الجامعة وأساتذة الجامعة.

هل قضية الدفاع عن الحريات هي مسألة شخصية, قضية الأحكام العرفية وقانون الطوارئ وسيادة القانون وتداول السلطة تمس المعتقلين وحدهم. في غياب المجتمع عن المشاركة يتصرف النظام بهم, بنا على هواه, مثلما يريد. يخرب وينهب ويضع الأحكام دون أن يحسب حساب أحد. إنه حر وصلاحية رغباته لا حدود لها.

كنت أعرف مثل بقية رفاقي وأصدقائي في السجن أن بقاءنا مرهون بمزاج حافظ الأسد وحساباته الآنية والمستقبلية. لهذا كان كل واحد منا يضع خطط شهرية أو سنوية, برنامج عمل طويل لما سيعمله في الأيام القادمة من سجنه. البعض لديه موهبة في اللغات الأجنبية كالانكليزية أوالفرنسية أوالألمانية أوغيرها. يضع برنامج عمل لتعلم لغة ما ثم ينكب على دراستها لمدة ستة أشهر أو سنة او أكثر مع أشياء أخرى كالرياضة أو سماع الراديو أوغيره. البعض الآخر يشتغل بالخرز ويبيع إنتاجه عبر زيارات الأهل من أجل شراء بعض الحاجيات الأساسية من الدكان.

راحت الأيام تمضي ببطء شديد, كل عشرون يوماً أوشهر يأخذوننا إلى المحكمة يضعوننا في القفص مدة ساعتين أو أكثر إلى حين مجيء رئيس المحكمة فايز النوري. ثم نعود إلى السجن دون أن نتكلم مع أحدهم أو يسألنا أحدهم سؤالاً.

كانوا يبلغوننا ليلاً عن موعد الجلسة وفي الصباح بعد الساعة الثامنة يضعون السلاسل في أيدينا ثم يأخذوننا إلى المحكمة ونعود مثلما ذهبنا لا نعرف لماذا يأخذوننا ولماذا يضعوننا في القفص وما الغاية من ذلك.

الكثير من الرفاق في الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/ وحزب العمل الشيوعي كتبوا المرافعات وعينوا المحامين للدفاع عنهم والكثير أيضاً رفض ذلك.

أنا لم أعين محام ولم أكتب مرافعة, لأن المحكمة مهزلة حسب وجهة نظري.

لقد عينت المحكمة لي المحامي محمد فاروق الشهابي للدفاع عني وعن الأخ عدنان أبو جنب. قلنا له كلانا إننا لا نقبل التراجع عن مواقفنا ولا نريد منك أن تكتب أي شيء له علاقة بالتنازل أوالعفو. نحن لم نعين محامياً. المحكمة أرسلتك للدفاع عنا لهذا نطلب منك ان تلتزم بشرف مهنتك التي اخترتها وأن لا تطلب استرحاماً أو ما شابه ذلك من الكلمات. لقد قلنا موقفنا أمام القوس وأمام القاضي الأول والثاني والقوس وثبتنا موقفنا وهو الاستمرار في الحزب والعمل السياسي حتى التغييرالديمقراطي في بلادنا وتداول السلطة. قال لنا سأفعل ما تقولون. قلنا له شكراً وغير ذلك يبقى كلامك لا قيمة عملية له.

في 1994/4/21 أصدر القاضي فايز النوري الحكم علينا استناداً إلى ما جاء في حيثيات الحكم.

هذا ما جاء في نص المحاكمة:

((في مناقشة الأدلة والنيابة والدفاع والقانون:

حيث ثبت من مجمل التحقيقات وكافة اوراق الدعوى وبإقرار المتهمين الصريح في كافة مراحل التحقيقات والمحاكمات إنهم انتسبوا إلى الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/ ومارسوا نشاطاً لصالح هذا التنظيم الذي يعمل على تغيير نظام الحكم في القطر بالعنف، وحيث أن المتهمين اطلعوا على أدبيات الحزب وقاموا بتوزيعها بين الناس هذه الأدبيات التي تضمنت التهجم على سياسية القطرالدولية والداخلية وخاصة في المجالات الاقتصادية والأمنية والعسكرية وكان القصد زعزعة ثقة الجماهير بأهداف الثورة مما يجعل فعلهم منطبق على أحكام المادة 3 من المرسوم 6 لعام 1965 مع مراعاة قانون العفو العام رقم 11 لعام 1985 بحقهم وحيث من الثابت أن هذا التنظيم غايته تغيير نظام الحكم في سورية وتغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية بالعنف ويؤيد مشاركة هذا التنظيم في حوادث الشغب ووقوفه بجانب الإخوان المسلمين من خلال توزيع المنشورات وطرح الإشاعات المضللة آنذاك ورفض التنظيم الانضمام إلى الجبهة الوطنية التقدمية مما جعل فعل المتهمين بانتسابهم إلى التنظيم المذكور ينطبق على أحكام المادة 306 عقوبات عام. وحيث أن المناقشة فيها الرد الكافي على الدفاع والنيابة وحيث أن موضوع التقادم غير وارد في هذه القضية لكون المتهمين لا يزالون مستمرين في التنظيم ومؤيدين لأهدافه وذلك بجلسة الدفاع الاخيرة وحيث الادلة كافية للتجريم.

لذلك وعملاً بأحكام المواد 308 و309 أصول جزائية والمادة 306 عقوبات عام والمرسوم 6 لعام 1965 والمادة 204ع ووفقاً لمطالبة النيابة من جهة وخلافاً لها من جهة اخرى تقرر بالاتفاق الحكم على:

عمر الحايك, فرحان نيربية, عدنان أبوجنب, عدنان المقداد, ياسين الحاج صالح, يوشع الخطيب, رضا حداد جميع هؤلاء 15 سنة سجن, نقولا الزهر 14 سنة سجن, آرام كربيت 13 سنة سجن, محمد خير خلف حاج موسى 12 سنة سجن, بجناية الانتساب إلى جمعية أنشئت بقصد تغيير كيان الدولة وفق أحكام المادة 306 عقوبات عام والحكم على كل منهم بالاشغال الشاقة المؤقتة.

2- تجريم كل المتهمين المذكورين بجناية مناهضة أهداف الثورة في الوحدة والحرية والاشتراكية وفق المادة 3 من المرسوم التشريعي رقم 6 لعام 1965 والحكم على كل منهم مدة تسعة سنين أشغال شاقة مؤقتة.

3- دغم العقوبتين بالنسبة لجميع المتهمين وتنفيذ الاشد وهي الاولى عملاً بالمادة 204 عقوبات عام.

4 - حساب مدة التوقيف لكل منهم من أصل المدة المحكوم بها)).

حتى الحقائق زوروها, قالوا أننا حملنا السلاح. في برامجنا السياسية لا يوجد بند واحد يشيرإلى أننا حملنا السلاح. ولوكان كلامهم صحيحاً, بمعنى لو أننا حملنا السلاح لكان حافظ الأسد قد أعدمنا دون رحمة أوشفقة من اللحظة الأولى لاعتقالنا. لأنه سيجد المبررالسياسي لاعدامنا أمام الرأي العام الدولي

عدت إلى السجن وعلى ظهري ثلاثة عشرة عاماً من الحكم الجائر. كان قد مضى على وجودي في السجن لحظة النطق بالحكم ستة أعوام ونصف العام, ذلك يعني إنه قد بقي لي ستة أعوام ونصف العام للبقاء في السجن.

كنت متعباً وحزيناً, أحسست أن الزمن كومة أحلام صفراء مرمية على روحي. سأجر الأيام, يوماً بعد يوم إلى أن أصل إلى النهاية. رحت أعد الرفاق والأصدقاء الذين سيبقون معي إلى نهاية هذه المحنة القاسية. قلت, لن نبق سوى خمسة أفراد في نهاية مطاف اللعبة التي يلعبها النظام بنا.

لا اعتقد أن القاموس السياسي الحديث لديه القدرة على تحليل هذا الشكل من الأنظمة التي هي خليط من أخلاقيات المافيا وقطاع الطرق والدعارة.

قلت, ماذا سأفعل بهذه السنوات الست والنصف الباقية لي. من أين أبدأ وكيف.

ثلاثة عشرة عاماً أو خمسة عشرة عاماً لمعتقل سياسي في سورية لمجرد أن له رأياً مخالفاً للنظام السياسي, لا لشيئ اقترفناه على الأطلاق إلا لأننا ننتمي إلى حزب يناضل في أدبياته السياسية بالتغيير الديمقراطي وتداول السلطة بشكل سلمي.

إنه موقف للتأريخ والحياة من أجل أن يشهد أننا وقفنا في وجه الاستبداد, قلنا أن الغزاة لم يمروا مرور الكرام. حتى لا يأتي اليوم الذي يقول لنا أبناءنا ماذا فعلتم بنا ولنا, لماذا لم تحسنوا شروط وجودنا على الأرض التي نعيش عليها. أن ينصف كل الذين قدموا حياتهم من أجل حياة أقل قسوة وأقل مأساة في المكان الذي نعيش فيه.

أعلم, أن التجربة صارت من الماضي, لكن محكمة أمن الدولة عارعلى جبين كل من سكت ووقف متفرجاً.

ثم لماذا هو عار.. إذا تحول الوطن كله إلى جثة هامدة لا حياة فيها.

عندما اشتد المرض على رفيقنا مصطفى حسين تطوع المرحوم رضا حداد لمبادرة إنسانية حول وضعه. قال لي, كما تعرف, أبو مالك مريض بالانفصام, إنه يحتاج إلى العلاج وبأسرع وقت ممكن. قلت له, كيف سنعالجه ونحن في السجن. قال, سنلجأ إلى الجلاد من أجل علاجه. الجلاد ضرورة وحاجة في السجن. من خلاله نأكل ونشرب ونتنفس ونتعالج. نحن مجبرون على اللجوء إليه من أجل علاج رفيقنا, وضعه لا يحتمل. هل لديك خيارات أخرى.

قلت له بصوت منخفض وخافت, لا.. لا ليس لدي أي خيار آخر سوى ذلك. أضاف رضا, الانفصام لا يرحم, أنه يهد صاحبه, يدمره ويمزقه من الداخل. الهواجس والكوابيس الدائمة تفتته. قلت لرضا, لكني أخاف عليه. قال, هل لديك خيار آخر؟ هل تخاف عليه أكثر مني؟ قلت, بالتأكيد لا. لدينا المشاعر ذاتها. اعتقد أنك تعرف وضعه أكثر مني, لإطلاعك الواسع على علم النفس. رد علي, هناك الكثيرمن أمثالك لديهم شهامة لا معنى لها. قالوا كما تقول, ولكنكم واهمون. الجلاد هو الوحيد الذي لديه الإمكانات التي تحل مشكلته. قلت له, كيف. قال, سنخبر الجلاد عن وضعه. سنذهب إليه كلجنة ونتحدث معه, سأكون أولهم.

بعد أشهر أخذوا رفيقنا مصطفى حسين.

عند عودته من المشفى سألته إلى أين أخذتك دورية الأمن السياسي. قال, المخابرات لديهم وسائل متعددة للتمويه. تصور, أخذوني إلى فرع التحقيق, بناية كبيرة جداً, مكتوب على يافطة المدخل, مشفى الأمراض النفسية والعصبية. أنظر إلى أساليبهم ووسائلهم. أنا أعلم إنه فرع من فروع المخابرات. قلت له, ماذا سألك المحقق. قال, لا شيء مهم, هل تنام بشكل جيد, هل تأكل بشكل جيد, تخاف من شيئ محدد, تأتيك الكوابيس, تحس بشيء غير طبيعي. وماذا قلت لهم, قلت لهم أنا بخير, أكل وأشرب وأنام دون كوابيس ليلية أوغيرها. التفت إلي وقال, منذ متى كان جهاز المخابرات يهتم بنومنا وأكلنا وصحونا. أخذ لفافة وأشعلها. قال لي, ستشرب الشاي معي. قلت له, سأشرب الشاي معك.

وضع الإبريق على السخانة وراح يتكلم ولكنه كان متعباً جداً.

بعد فترة من الزمن أخذوه مرة ثانية وبقي عندهم حوالي ثلاثة أسابيع أوأربعة ثم عاد إلى السجن. قال, وضعوني في فرع من فروع المخابرات العسكرية تحت الأرض مع مجموعة أخرى من المعتقلين السياسيين.

يبدو أنهم وضعوه مع الذين لديهم حالات مماثلة أو مشابهة لحالته.

عندما تقدم إلى لجنة طبية عسكرية مؤلفة من عدد من ضباط المخابرات راحوا يساوموه على الخروج من السجن. سأله الضابط:

مصطفى حسين, لقد انهار الاتحاد السوفيتي وانهارت التجربة الشيوعية في الاتحاد السوفييتي والعالم, لماذا تتمسك بموقفك وفكرك. حلوا هذا الحزب وأخرجوا من السجن. فما كان من أبو مالك إلا أن قال للمحقق:

التجربة انهارت لأن الملاط الذي ربط أجزاء المبنى فيه خلل, سنعيد قراءة الفكر وفق أسس الحاضر من أجل بناء المستقبل. ثم لا علاقة لنا بانهيارالاتحاد السوفيتيي لأنه لم يكن مثلنا الذي نحتذي به. قال الضابط بحدة:

- أعيدوه إلى السجن, ما زال ذهنه يتحمل البقاء في السجن مدة أطول.

كان سريررسول الجوجو بجوار سريري. طوال الليل يبقى سهراناً لا يستطيع أن ينام. يفكر. القلق جزء من حبكة الأيام, يذهب بذهنه إلى وضع أسرته. لديه سبعة أطفال أصغرهم رضيع عند لحظة الاعتقال. لم يكن لديه معين يحمي أولاده من التشرد والضياع. القسم الأكبر منهم ترك المدرسة وراح يعمل في الشوارع, يبيعون العلكة والسكاكر للمارة.

كان أكبر أولاده الذكور في ذلك الوقت اثني عشر عاماً. كانوا يجلسون تحت جسر فكتوريا يعملون, يبيعون من أجل تأمين لقمة العيش لهم ولإخوتهم. كان أبو محمد يعرف ذلك, كاد صدره يتقطع على مصير هؤلاء الصغار الذي ضاعوا وتشردوا وتحولت أسرته إلى حطام.

عندما كنت أستيقظ في أنصاف الليالي, أراه يمسك الإبرة ويغرزها في جبينه, يبقى ساعات طويلة على هذا المنوال حتى تخرج الدماء الحارة منها.

في الصباح أرى الجروح التي يزرعها أبو محمد على خارطة جبهة رأسه. أراها كيف كانت مخيفه ومؤلمة. كان نوع من تعذيب الذات والروح من أجل النسيان وقتل تأنيب الضميرالذي حدث لمصير أولاده وبيته وأسرته. لدي إحساس أن هذا الرجل لم ينم ساعة متواصلة في السجن لإنشغال باله وذهنه. لكنه كان في نفس الوقت دائم الابتسام, لا يحمل الآخرين عبء وضعه وظروفه الصعبة.

لقد رأيت الدموع المدرارة على خد الصديق محمد دقو من التنظيم الشعبي الناصري لنسيانه أسم أحد أبناءه. حاول مراراً أن يتذكر, لكنه لم يستطع. فما كان منه إلا أن أنفجر بالبكاء على هذا المصير القاسي الذي كان يعيشوه, ونعيشه في ظل بعدنا عن أهلنا وأصدقائنا.

وكان لدينا القدرة أيضاً على لملمة جراحنا والتكيف مع شروط الحياة الصعبة.

كان لدى خير الدين غزالة وعدنان مقداد والمرحوم حمزة حبوس موهبة موسيقية, ولديهم رغبة شديدة في التعلم على آلة العود الموسيقية. لقد استطاعوا الحصول على علبة تنك فارغة/ علبة بسكويت دائرية/ ثقبوها في الوسط بقطر عشرة سمنتمترات ثم حصلوا على خشبة بطول متر وعرض عشرة سم وسماكة 2 سم. ربطوا الخشبة القديمة المهترئة بالتنكة وراحوا يطلبوا عبر الزيارات أوتار وأخشاب صغيرة لولبية تربط الأوتار بالتنكة إلى أن تحول إلى عود بسيط بصناعة بسيطة وقديمة.

قسم منهم كان يضع الماء مع المربى لمدة أربعين يوماً في علبة بلاستيكية في مكان مغلق إلى أن يتحول هذا المزيج العجيب إلى خمر مسكر, لكن لا طعم له ولا مذاق, خلطة غريبة لوضع غريب.

كانوا يجلسون مع بعضهم في أوقات يكون بقية المعتقلين في الباحة. يضعون المربى المسماة خمر في كأس ويعزفون, يتعلمون ويعلموا بعضهم العزف على هذه الآلة الموسيقية.

بعد فترة قصيرة من النطق بالحكم على مجموعتنا.

أفرجت السلطة عن الصديق سليمان أوسو من حزب /يكتي/ وأحمد حسو من /البارتي/. كما أفرجوا عن جميع أعضاء التنظيم الشعبي الناصري, من الأمين العام خالد الناصر ونائبه محمد دقو إلى بقية الكوادر. كما تم الإفراج عن السجناء الذين تخلوا عن مواقفهم وقبلوا الانسحاب من العمل السياسي والحزب الذي ينتمون إليه.

راح السجناء يعدون الأيام الباقية لهم.

صارت النفوس أكثر تسامحاً ووداً. خاصة الذين لم يبق لهم مدد طويلة في السجن.

بقي لأغلب رفاقنا مدة سنة ونصف السنة عند النطق بالحكم وثلاث سنوات ونصف السنة لرفاقنا في حزب العمل الشيوعي.

عند اشتداد المرض على رضا حداد. قال, أحس أن للمرض ذاكرة, جميع الأمراض التي ابتليت بها فيما مضى من الزمن عادت لي. وجع في الظهر والركبة وصداع فظيع في الرأس, نزف من الأنف ومكان أخر. لقد تحول لونه الأسمر إلى لون أصفر شمعي, ووهن كامل. أي قدر أحمق كان ينتظر رفيقي وصديقي رضا حداد.

لقد انتظر خمسة عشرة عاماً من أجل أن يخرج إلى الحياة, أن يعوض أبنته الوحيدة لبنى سنوات الحرمان الطويلة من رعايته لها. لقد كانت لبنى في رحم أمها عندما اعتقل رضا. كانت تأتيه إلى الزيارة من أجل ترميم الفجوة العاطفية بينهم, أن يكون بين الأب وأبنته علاقة رحمة وصداقة وقرب, لكن عندما زفت ساعة خروجه من السجن داهمه مرض خطيروقاس, لم نكن نعرف ما هو.

لقد علمت بوفاة رضا في منتصف عام 1998 عندما كنت في سجن تدمر من الأخ سلامة كيلة عندما حولوه مع جريس التلي ومحمود عيسى ومحي الدين شنانة ونعمان عبدو إلى ذلك السجن الكريه.

في تشرين الأول من العام 1994 أفرجوا عن الأخ والصديق نقولا الزهر, وفي الساعة الثامنة إلا ربع من صباح 1995/10/5, نادوا على أحمد فايز الفواز وعمر قشاش من أجل الإفراج عنهم. كانوا من أوائل الشيوعيين الذين اعتقلوا على أثر الحملة التي قام بها النظام على أعضاء الحزب الشيوعي المكتب السياسي في عام 1980.

وبعدها بدأ العد التنازلي. في 1995/10/8 أفرجوا عن أمين مارديني. وفي 1995/10/15 أفرجوا عن عدنان أبو جنب وفرحان نيربيه. وفي 1995/10/17, أفرجوا عن عدنان مقداد ورضا حداد. وفي 20 منه أفرجوا عن محمد سيد رصاص وفي 1995/11/21 أفرجوا عن عادل احمد. في 1995/11/7 أفرجوا عن الصديق ماجد حبو من حزب العمل الشيوعي الذي امضى أربعة عشرة عاماً في السجن.

في 11/22/ 1995.

جاءت لجنة أمنية مؤلفة من ثلاثة ضباط. العميد محمد سيفو, العميد وليد طه والعميد نزيه النقري. عرضوا علينا الانسحاب من الحزب, ومساومة جديدة, الخيار بين البقاء في السجن أوالتوقيع على التنازل والخروج من السجن.

التوقيع على الانسحاب من العمل السياسي يعني أننا نتحول بإرادتنا إلى رعاية, تبع.

كان اتفاق برشلونة على الأبواب بين الاتحاد الأوربي ودول المتوسط ومنها سوريا. من بعض شروط الاتحاد الاوربي للشركة مع دول المتوسط الإفراج عن المعتقلين. لقد وعدت السلطة السورية المجموعة الأوربية الإفراج عن ألفي معتقل في تلك الفترة. وعملياً أفرج خلال بضعة أيام من الاتفاق عن ألف سجين سياسي جلهم من سجن تدمر.

جرى تقديمنا إلى المساومة مرة أخرى, كل فرد على حدة. ثلاثة عشرة فرداً من حزب العمل الشيوعي وتسعة أفراد من الحزب الشيوعي /المكتب السياسي/ وثمانية من حزب البعث العربي الاشتراكي / العراق/.

لو تأخر خروج عادل أحمد يوم واحد قبل مجيء اللجنة لتقدم للمساومة مثلنا وراح معنا إلى سجن تدمر. لكن حظه جيد. لقد أفرجوا عنه قبل يوم من مجيء اللجنة الأمنية. قال العميد محمد سيفو, سنفرج عنكم ولكن بعد أن توقعوا. قلت, لقد حكمتم علينا من قبل محكمتكم المفصلة على مقاس نظامكم, لماذا المساومة إذاً. قال, نحن من يقرر, سنحاكمكم أولاً.. وبعدها توقعون على الشروط. نحن هكذا.. نفعل ما نراه مناسباً لنا. اسم دولتنا, دولة البعث, الاسد, من يريد أن يعيش فيها فأهلاً وسهلاً ومن لا يريد فليرحل إلى بلاد الله الواسعة, ليخرج من بيننا. واضاف, ما دمنا في السلطة سنفعل بكم ما نشاء أما إذا استلمتم السلطة أفعلوا بنا ما تشاءون. بهكذا منطق تحدثوا معنا. بهكذا منطق حكموا بلادنا. وقال, لم يأدبكم السجن إلى الأن, سنفرجيكم. كانت وجوههم صفراء مثل السم, من الغيظ والحقد.

لقد رفض جميع رفاقنا من الحزب الشيوعي/ المكتب السياسي/ الشروط كلها.

في 12/7/ 1995 أنهى الصديق ياسين الحاج صالح مدة حكمه وهي خمسة عشرة عاماً. في 1995/12/12 أخذوه إلى اللجنة الأمنية مرة أخرى. قال لهم, لقد انهيت فترة حكمي, خمسة عشرة عاماً, عاملوني مثل رفاقي.. أفرجوا عني كما أفرجتم عنهم. قالوا له, الآن, لدينا وضع جديد, محكمة وحكم وشروط وتوقيع. لقد رفض الصديق ياسين الحاج صالح الشروط فعاد إلى السجن, أخذوه معنا إلى تدمر وبقي فيها معنا مدة عام تماماً كعقوبة على رفضه.

يوم الأربعاء صباحاً, في 1996/1/3.

في الساعة السادسة دقوا أبواب المهاجع بقوة مع صراخ حاد, استيقظوا.. استيقظوا في الحال, أحزموا حقائبكم. جهزوا نفسكم من أجل الرحيل. لم تقل الشرطة كلمة أخرى, لم يكشف أحدهم السروراء هذا النفير الصباحي الغريب. قالوا جملة مبتسرة وناقصة, ستذهبون من هنا, لكننا لا نعرف إلى أين!

عندما دقوا الباب كنا نياماً في أسرتنا نحلم في تمرير يوم آخرمن الأيام المكررة في هذا المكان. دق قلبي بقوة في صدري من الخوف. وضعت الاحتمالات المختلفة مثل غيري لهذا النذير الفجائي الخطير, لطريقة دق الباب.

الخوف موروث كوني.

حزمت حقائبي مثلما فعل بقية السجناء. رحت أمشي دون إرادة مني, نظرت إلى وجوه غيري, رأيتها ممتقعة باللون الأصفر الذابل. كان البرد علامة فاقعة في ذلك اليوم الكانوني الأثول. يدخل النفس والروح دون استئذان. رميت كل الذكريات جانباً وسلمت نفسي للقدر من أجل أن يشكل ما يريد أن يشكله. الحقيقة لم نكن نصدق ما يحدث, طرحنا على بعضنا اسئلة كثيرة, هل يمكن أن ينقلوننا إلى سجن تدمر في هذا الشتاء البارد, هل يمكن أن يرحلوننا إلى ذلك السجن الخطير بعد هذه السنوات الطويلة من وفي السجون. بلعت ريقي ولعابي مرات كثيرة من شدة الجفاف الذي أصاب فمي وقلبي.

عدت إلى المهجع, مرة أدخل إلى الحمام, ومرة أخرى أجلس على السرير. لدي الكثير من الدفاتر الخاصة, أقلام وكتب, صور الأهل, لوحات شغل من النحاس ومقالات وملاحظات عن نفسي والحياة والسجن. قلت, ماذا أفعل بهذا الكم الممتد إلى ثمانية أعوام, إلى أين أذهب بهم. قال العقيد عبد الرزاق المطلق, المكان الذي ستذهبون إليه لا يسمح لكم إلا بأخذ الأشياء الخاصة جداً. قلنا وما هي الأشياء الخاصة يا حصيف. قال, الثياب والشراشف فقط. أخيراً نطق هذا التافه بالسر من وراء فمه الكريه. وقتها, رميت كل شيء على السرير الذي التحفني وغطى سنوات عمري. مضيت أبحث عن السبل التي ستبقيني على قيد الحياة في ذلك الصقيع القادم من الأيام.

عند الساعة الثامنة تقريباً, اقترب العقيد المطلق, بيده ورقة مطبوعة. راح يقرأ أسماءنا. وجهه الكريه كان جامداً, عيناه جاحظة, ينظر إلينا بتثاقل وقرف. ربما في سريرة نفسه كان يضحك من الفرح.

الكثير منا كان قد مضى على وجوده في السجن خمسة عشرة عاماً أو اقترب من هذه المدة. في هذه الفترة مضى على وجودي في سجن عدرا بدمشق قرابة الثمانية أعوام وثلاثة اشهر. لقد بقي لي تقريباً خمسة أعوام. كان علي أن أقضي بقية المدة في سجن تدمر, بعيداً عن زيارات أهلي.

كان بيننا الكثير من المرضى, أمراضهم مزمنة وغير قابلة للشفاء بعد هذا الوقت الطويل من السجن.

حملنا حقائبنا وسرنا إلى الشبك القريب من المفرزة. بينما في الطرف الأخر, كان السجانون منهمكون في تهيئة وتجهيز الجنازير والسلاسل. وقف المطلق منتشياً كالديك الفارغ. قال, كل واحد اقرأ اسمه يقترب مني. صوت إرتطام الجنزير بالأرض أشبه بلعبة الموت والغدر. وضعوا حلقة دائرية في كل معصم, ثم مرروا الجنزير في داخل الحلقات, بحيث صرنا كخيط أو حبل واحد, على طول حدود الدرج, من الأعلى إلى أسفل الباب المطل على ممرات الأجنحة الأخرى.

السجن غربة ومنفى بل أحدهما يتضمن الآخر ويلتصق به.

بعد أن ثبتوا الأقفال وتأكدوا من الربط المحكم, مسك أحدهم يدي, قادني إلى الخارج, والشريط المربوط بي من رفاقي وأصدقاء دربي يسير ورائي.

كان الطقس بارداً, الضباب والرذاذ صنو ذلك اليوم الأغبر, يهب علينا من كل مكان.

نزلنا الدرج, الحقائب ترتطم بنا وببعضها وتتدحرج. يد في الجنزير عاطلة عن الحركة والأخرى تتحمل كل المسؤوليات الملقاة على عاتقها.

وقف سجناء الحق العام, كل واحد في جناحه, يراقب القافلة المنكوبة, تسير مرغمة إلى جهة مجهولة الهوية.

فتحت الأبواب الحديدية الضخمة. قادونا إلى الباص البارد. الشرطة لفتنا من مختلف الجهات, على أكتافها بواريدها المخنصرة, كأننا في موكب رسمي أو جنازة ميتة. مضى أكثر من واحد من الشرطة يعد رؤوسنا, للتأكد من العدد.

كان الصديق راتب شعبو جالساً إلى جانبي داخل الحافلة, هادئاً كعادته, لم يتكلم, لم يصدر منه أي شيء يدل على اضطراب أو قلق. بقي متماسكاً طوال رحلة الوجع.

قلت في البداية إنهم سيرحلوننا إلى سجن تدمر. لكن في الواقع لم نكن نعرف إلى أين سيأخذوننا. البعض ظن إننا في الطريق إلى مركز ما من مراكز تجميع السجناء, للأفراج عنا, والبعض قال إنهم سيرحلوننا إلى سجن تدمر, والبعض الأخر اكتفى بالصمت ولم يدل بدلوه.

مالت رؤوسنا على المقابض الحديدية للمقاعد مدارة للتعب والإرهاق العصبي والنفسي المنصب علينا.

كنت متيقناً إننا في الطريق إلى سجن تدمر, نظرات الضابط الشريرة توحي بهذا الأمر.

خبئت وجهي مثل الآخرين في مرفقي, أغلقت عيني في محاولة أن استرخي, أن أبعد هذه اللحظات الكريهة إلى أجل آخر, أرسم لنفسي صور فاحمة وألوان مختلفة للقادم من الأيام.

لم أكن أدري لماذا كانت السماء تهذر بهذيان كئيب.

كنت أتمنى لو أرى وجه بومة أوغراب أحمق في السماء أوعلى الأرض أوعلى اسلاك الكهرباء والهاتف أوعلى اسطح المنازل. قلت لنفسي, لمّا اقفرت السماء من الطيور, لمّا هربت العصافير من أوكارها في هذا اليوم الضبابي الأحمق. أنظر إلى الأعلى فأرى الغيوم هاربة هي الأخرى, تتشابك وتتراكم مع بعضها وتتداخل كل الألوان في مزيج أسود قاتم.

أدار السائق المحرك. كانت الثواني والدقائق تمر ببطء كأنها دهر, مملة, قاسية. الأنفاس متهدجة, تعلو بصمت مخنوق ثم تنوس إلى أن تندثر ثم تتلاشى مع صوت المحرك القديم.

لم يكن خيط الأفق إلا لون أسود يرمي بثقله على البيوت النائمة في حضن وادي عدرا الثقيل. بيوت كئيبة متنافرة, ثقيلة الوقع على العين والقلب.

الخوف العتيق شدني إلى البقاء, فجر في نفسي الفراق القسري في محاولة لملمة البدايات وفض أسرارها.

تنهدت بتثاقل. فاتحاً الباب للوعة والحسرة, طارحاً أسئلة كثيرة على نفسي, كيف سأبقى على قدمي في هذا القطيع الصحراوي المشدود إلى العزلة. كيف سأبقى أنا؟ وكل شيء يمضي دون استئذان. يمضي محملاً بالحيرة والدهشة واللطخات الممهورة بالجنون.

في غمرة الرحيل.

بسطت عيني على سر هذه البشاعة الكامنة في حياتنا. أراقب هذه المدينة الرخوة, النائمة تحت أحضان جبل قاسيون. نهر بردى الجاف, حيطان بيوتها الرمادية الراسية عند حدود الكآبة والغم. كلما كانت تسيرالحافلة خطوة إلى الأمام. كانت حدقة عيني تتسع على مسارات الاسلاك الشائكة المرصوفة على عموم الطريق, مشرعاً حواسي لالتقط شيئ من الطبيعة, قبل أن يخندقوني في سرير أعزل.

في هذه الأطلال, تتلاشى الملامح الجميلة, تضيق لتصبح جزيرة مهجورة لا حياة فيها.

الحافلة تتابع سيرها البليد وعيوننا مسمرة على الطريق بحماسة خائبة, تسير على مفترق الطرق, دمشق أم تدمر, تدمر أم دمشق. بهذا الشكل من الأسئلة التراثية. بهذا الموروث الفائض عن التفكير صيغت حياتنا, كست الظلال والفيض الانفعالي على جباهنا.

في داخل كل واحد منا هوس مجنون, رغبة أن تتابع الحافلة سيرها إلى العاصمة, إلى دمشق الخيبات والهزائم المتتالية. أحد الشرطة أو ربما السائق كسر حالة الشك من اليقين:

أي طريق ستختارون, دمشق تدمر أم دمشق حمص تدمر.

وقتها أحسسنا أن سجن تدمر دوننا. استرخيا على وقع المصيبة وملامسة الحقيقة الجارحة. إذاً السلطة الحاقدة قررت في مرحلة الانعطافات التاريخية الخطيرة أن ترحلنا إلى سجن آخر, إلى ذلك السجن المثقل بالقسوة.

مات في داخلي كل حس جميل في تلك اللحظات. أيقنت أن السنوات الخمسة القادمة تعني فيما تعنيه الموت البطيء إلى حين, إلى إشعار آخر.

شددت رحال بصري على الطريق في محاولة عدم التصديق, طارحاً على نفسي أسئلة تراكمية, ما المبرر من ترحيل مجموعة من الشيوعيين إلى سجن تدمر, سجناء رأي, بعد هذه السنوات الطويلة من المكوث في سجن عدرا, الشيخ حسن, القلعة, التحقيق الأول والثاني والثالث, محكمة أمن الدولة, مؤتمر برشلونة, مؤتمر مدريد للتسوية في الشرق الأوسط. لماذا لا تتحمل هذه السلطة المنخورة كلمة لا من سجين أعزل حتى من محيطه وواقعه العياني المغلق. لماذا وضعت ثقلها على بشر أثقلهم السجن الطويل وأرهق أعصابهم وأجسادهم. ما الحكمة من سجن شاب في التاسعة عشرة من العمر مدة طويلة تصل إلى ستة عشرة عاماً مثل عدنان مقداد وراتب شعبو وياسين الحاج صالح وغيرهم.

سارت الحافلة. بقيت قامتي منكسرة ومكسورة في غمرة البحث عن الخلاص. الضوء الأملس يخب, يضيع تحت ثقل قسوة الطبيعة. الدخان الأسود قادم من أول مدينة مأهولة في التأريخ, أكبر عاصمة غزوات واحتلالات في التأريخ.

انشغالي يزداد في محيط الحافلة, وجوه الذين معي, رفاق وأصدقاء وزملاء, سجانون وبواريد وسلاسل وقيود وسائق عجوز, عاجز على حمل ثقل الطريق والحافلة والناس الذين فيها. كنت أتساءل من أين لهؤلاء السجانون هذه القدرة على التكيف والبقاء على الحيادية والتغزل بوجع الآخرين. من أية طينه عجنوا هؤلاء وكيف تربوا على التأقلم مع آلام الناس ومآسيهم. كانوا يضحكون ويقهقهون ويتسامرون بكلمات بذيئة ونكات تافهة. هل حقيقة أننا ننتمي إلى نفس المكان ونشرب من نفس النبع. أتساءل في دخيلة نفسي مرات كثيرة, لماذا تبني الناس أوطانها, مدنها, شريعة بقاءها. ما فائدة الوطن إذا كان منقسماً على كل الصعد, سواء كانت دينية أو طائفية أو قومية. هي أسئلة تتوارد على مدار رأسي

وذاكرتي. في وقت تشييع النظرات الصارخة للأمل المفقود والإحساس بانعدام العيش في جو آمن وسليم.

سجن عدرا تحول إلى كومة ضباب أسود, يذوب ويذبل. الشوارع تهرب هي الأخرى, تهرب تحت وقع هروب العجلات من تحت الطريق. الشوارع الضيقة والأزقة تلتف على بعضها كالأفعى الداشرة في بيئة ساخنة وحرارة لاسعة. كل شيء يلتف على بعضه, البيوت والحارات والشوارع, تتداخل في بعضها, تختصر في طريق أسود طويل, يقودنا إلى طريق أبو الشامات تدمر بغداد.

ودعنا المدينة الرخوة, المدينة المثقلة بالتعب. ودعنا ظلالها وفراغاتها وأمانيها المهجرة. الطريق الأسود الفاحم يرسم مسارنا, شوطاً بعد شوط. اتندر لتلك الأوقات التي مرت. حاولت أن استرخي قليلاً, لكن صاحب الليل الموغل في الظلمة يستيقظ فزعاً من الخشية على المصير المنصرف إلى غرابة.

المكان الذي سنذهب إليه معروف بقسوة حدوده العالية على الصعيد العالمي. كلمة تدمر تجعل الرؤوس تنتصب واقفة على محيطها وجنباتها, توقظ الجني الخرافي النائم في وهاد النفس والممرات الغافية. هنا, في هذه المقترحات قطع الشك باليقين. إذاً, الحكاية يقينة لا مراء فيها. علينا أن نستعد نفسياً وجسدياً لتحمل تبعات قرارنا الصعب. قلنا لا.. لا نرضخ لطلبكم. لا نقبل الخضوع لمساومتكم. أما أن نوقع ونخرج, نبيع حقنا في الحياة والحرية والجمال أو نبقى نتلقى اللوعة والحسرة والجفاف. قسوة ساطعة مثل لسعة الشمس الحارقة, لا خيار ثالث. أما أن نتحول إلى جثة هامدة وساكتة أو نتحمل قدرنا بروح كفاحية. أقول, يمكن للإنسان أن يخون العالم كلها, يكذب على العالم كله, لكن لا يمكن أن يكذب على نفسه على الأطلاق. عندما يجلس مع نفسه, عندما يختلي مع روحه, يدرك من هو وماذا فعل ويفعل. المهم أن لا يكذب الإنسان على نفسه ويهرب إلى الأمام من استحقاقات وجوده الواعي في هذه الحياة.

التفت إلى راتب بين الحين والآخر, أراه هادئاً كعادته. أعاود النظر مرة أخرى على الطريق. أمد بصري إلى بادية الشام المسكونة بالصمت والفراغ. الوجود العدم. أسئلة الوجود تطرق خيالي الداشر في هذه الأمكنة المثقلة بالحوارات الميتة. ثمانية أعوام في سجن عدرا بدمشق, لماذا لم تنطق الحيطان, لماذا سكتت, ثم لماذا لم تدافع عن حقنا في البقاء معها بشكل آمن بعد هذه السنين التي عشناها بين ظهرانيها. هل نستنا؟ أكسو هذه الكلمات ظلال الفيض الذي توغل في داخلي. اعود للقول, أشياء كثيرة تعتمل في داخلي تتوغل في سراديب تكويني.

غابت دمشق تماماً. بقي في فضاءها العالي خيط دخان أسود فاحم يهلهل فوق سماءها.

دمشق, يا دمشق, نحن هاربون من سديم الضباب, نبحث عن أرجوانة معلقة في قبة السماء, نسير في حافلة الريح العاتية, محملون بالفراق. عطشان, احتاج إلى نقطة ماء ابلل لساني وريقي الجاف في ذلك الصباح البارد. أليس غريباً أن يكون كل شيء عاقراً على هذا الامتداد الواسع والطويل لبادية من بوادي بلادي. على طول الطريق, الأرض خالية من الماء والزرع والشجر, من الأنهار أو التلال, من وجه كلب أو قط أو حمار, غنمة أو عجل أو خروف, حيوان بري أو أهلي. كنت أتمنى أن أرى طيراً من طيور الله السارحة في هذا الفضاء اللانهائي.

أين نعيش نحن؟

هل حقيقة إننا نعيش على هذا الكوكب المسمى الكرة الأرضية. ماذا أقول عن هذا الطريق المرصوف بالصمت والعتمة الداكنة في عزالنهار, في فضاء لا قباب فيه.

كان أحد الشرطة يشرب الماء من قربة في يده. تردد الحارث النبهان كثيراً قبل أن يطلب القليل منه. قال, حضرة الرقيب, هل لك أن تسقني القليل من الماء. رد عليه, لا.. لا أسقيك. أنت لا تستحق هذه النقطة التي طلبتها. عليك اللعنة, عليك وعلى الذين من أمثالك.

بهكذا حوارحكمت بلاد العرب من المحيط إلى الخليج, بهذا الحقد, بهذه وبتلك الكراهية الموروثة ترعرعت أجيال وأجيال, تناسلت في ظل سلطة قمع داشرة. من أين جاء هذا الجفاف كله إلى حياتنا؟ اسئلة متراكمة في خزائن صمتي.

أنظرفي وجوه رفاقي, تراث مثقل بالهموم, حزن معجون بتقادم السنين في مشهد بالغ الجفاف. اللون الأصفرهو الخيط المشترك بيننا, فيض من الوهن يرسم لونه على ملامح وجوهنا. جميعنا منحسري القدرة على التفاعل مع الحدث. لا محرضات على الهمس أو النظر. الأنفاس تخرج من الصدر بخفوت مكبوت أقرب إلى الخرخرة أو الحشرجة. كانت الأفعى, القيود, هي الفاعل النشط الذي يدب على الأرض, يتحرك ويحكي, والحافلة تشق طريقها غير عابئة بشيئ تسير تحت ثقل الزمن العاقر.

هدنا التعب والجوع والعطش, وصل بنا الأمر إلى أقصى ذراري الخلوة مع الروح المتعبة, المنتظرة نضاحاً من الأسى والألم. وجوه السجانون نضرة, ممتلئة بالفرح البليد. التفت مرة أخرى إلى رفاقي, أرى النقيض. من قال أننا ننتمي إلى نفس الأرض, نحمل الموروث الثقافي المشترك, ديني وقومي وروحي. الوطن, أي وطن, هوالعقد القانوني والحقوقي بين أفراد مكرهون على العيش مع بعضهم.

السجن هو الساحة الواسعة. السجن مكان الخلوة مع الروح, يراجع بها الإنسان حساباته الذاتية والموضوعية بشكل دائم. يطرح على نفسه دائرة واسعة من الاسئلة, تساؤلات كثيرة. يفرش أمام عينيه منظومة القيم التي يعتنقها. يقف أمام نفسه والجدران, يطرح ويحسب كل المنظومة الفكرية التي استند عليها, في زمن اهتراء واهتزاز القيم والمبادئ والأحلام والأفكار, ماذا نغير ومن نغير؟ من أين نبدأ وإلى أين نسير؟ من أية محطة أوخارطة ننطلق وأين سنحط رحالنا؟ ماذا نريد من أنفسنا ومن الآخرين؟ هل لدينا وطن؟ هل لدينا دولة؟ هل يمكن بناء وطن دون دولة معاصرة وكيف؟ من هي القوى الفاعلة التي لها مصلحة في هذا البناء؟ هل نحن وطن أم صدى وطن؟ هل لدينا دولة أم صدى دولة؟ هل نبدأ من التأريخ أم الحاضر؟ وإذا بدأنا من التأريخ فأي تاريخ سنختار, ما قبل الإسلام أم بعده؟ وإذا بدأنا من الحاضر فمن أي حاضر نبدأ؟ لقد علقنا كل مشاكلنا على مشجب الحل الديمقراطي, هل هذا الخيار يحل كل أزماتنا المستفحلة؟ علاقتنا بالآخرين, الولايات المتحدة كيف ستكون؟ هل نقبل العلاقة معها كفاعل مهم في حياتنا, نقبل بها من موقع التابع أم الرافض؟ هي أسئلة مهمة تمس صميم السجين السياسي واعتقد أن الجميع يعيش طقوس هذه التساؤلات الكبيرة والمهمة. إذاً, بقاءنا في السجن مرهون بجملة اعتبارات داخلية وخارجية, هذه الاعتبارات تؤثر على نفسية السجين وتجعله يقبل البقاء في السجن أو يخرج.

ربما يتساءل أحدهم, من أين لكم القدرة على الرفض, كيف تتحملون البقاء في السجن مدد طويلة في ظروف بالغة القسوة. لماذا وكيف وإلى أين تريدون أن تصلوا في مواقفكم.

أثناء الأزمات الكبرى, أثناء الأزمات القاسية, تبدأ الذات تحاسب الذات, تبدأ الذات في جلد الذات. ماذا فعلتُ, وماذا أريد؟ وإلى أين يأخذني الزمن بتياره الجارف؟ اسئلة داخل اسئلة. اسئلة قاسية كالنحت في الألماس أو الصوان.

رفضنا الشروط المفروضة علينا في ظل انهيار منظومة مفهومية كاملة على الصعيد العالمي. قلنا لا في ظروف بالغة القسوة, عراة حتى من ثيابنا, عراة من جلدنا, حتى الصمت لم يتعاطف معنا. وعينا هو المشكلة, بقدر ما يكون الوعي محرضاً بقدر ما يكون معذباً. عندما يزداد وعي الإنسان, عندما يدرك حركة التأريخ.. موقع بلده في الخريطة العالمية يعرف أنه يدخل في مكان صعب للغاية, لأن السجين أكثر الناس حساسية للتغيرات التي تطرأ على العالم, لأنها تمس وجوده المباشر. سيسأل البعض, لماذا رفضت والسيف على رقبتك, ما دمت تعرف إنك خاسر تماماً,

بالتأكيد لم ترفض لقدسية الرفض. يمكن القول, بالحسابات العادية, بحسابات الخسارة والربح, الرفض هو نوع من أنواع الجنون. لكن، من قال أن الجنون ليس جزءاً من لعبة الأقدار, جزءاً من حسابات التغيرات العظيمة في حياة الشعوب والأمم.

مضت الحافلة المنكوبة تشق طريقها ببطء شديد. لم يكن لدي القدرة على النوم, مرتبكاً, عاجزاً لا أستطيع أن أخرج الكلمات من فمي لشدة الضغط العصبي الذي يحاصرني. ساعات طويلة من السفرالمشغول بالهم والعزلة. أصداء محملة في أصداء, في وسط هذا كله, في وسط الطريق تعطلت الحافلة. فامتزج إحساس الخوف بالإرهاق والتعب, الجوع وانعدام الأمان.

رحت أتشاغل بالنظر إلى الجنزير والسلاسل التي تقيدني, أراقب السيارات المسرعة على طول الطريق. سيارات قادمة وأخرى راجعة, يسيرون في اتجاهين متنافرين غير مبالين بشيئ. هم في عالم، ونحن في عالم آخر. من قال إننا نعيش في زمن واحد؟ من قال إن الوطن يتسع الجميع؟

اعلم أن والدي ووالدتي سيأتون إلى دمشق يوم الاثنين من الأسبوع الأول من السنة الجديدة الواقع في/1996/1/8/ من أجل الزيارة. كيف ستستقبل والدتي النبأ, كيف ستتعامل معه؟ كيف سيقطعون رحلة الألف كيلومتر ثم يعودون خائبين؟ بالتأكيد سيلتقون بالوجوه الخبيثة.. الخائبة. سيلتقون الجلاوزة من أجل الزيارة. بالتأكيد سيكذبون عليهم, سيقولون لهم, لا نعرف أين هم؟ اذهبوا وابحثوا عنهم في مكان آخر.

ستبكي والدتي ووالدي وأخوتي على هذا النبأ. لكن من قال أن القردة في دمشق, الحكام, سيتأثرون ببكاء الأمهات والآباء. فهم لم يفقدوا عزيز, كما لم يخسر أحدهم طوال وجوده على الكرسي أي شيء. تجار الموت يكسبون على الدوام. باعوا بلادنا بسياسات مأجورة, بالبترودولار. باعوها لمن يشتري, لمن يدفع أكثر. باعوا الأرض وما عليها بأرخص الأثمان وما زال المشتري يتستر على هذه الصفة المربحة حتى لا يفضح البائع.

حاولت جاهداً أن أبعد صورة والدتي عن ذهني. قلت, لي حزني المدفون في قلبي ولها حزنها العميق المنسوج من جمر ونار. كل واحد يتكفل في حمل العبء الذي وقع على كاهله. حاولت أن أبعد صورتها حتى لا يكون حزني حزنان. حزن على نفسي ومصيري وحزن على والدتي وأحزانها التي تتسع الكون.

وضعت وجهي على وجه النافذة الباردة, أراقب الحصاة والرمال الناتئة على حدود الحواف. كيف يغسلها ماء المطر ثم يودعها ليدخل شرايين الأرض. أقول, لماذا تحبل الغيوم, لماذا تمطرالسماء, لمن؟ أعاود النظر إلى السائق العجوزالذي أصلح الحافلة المريضة.

عاودنا السفر, وكل شيئ يودي إلى افتراق. العقيد عبد الرزاق المطلق, يسير أمام الحافلة في سيارته المرسيدس. هدير محرك الحافلة عالي ومتعب. لزمت السكينة والصمت مثل البقية. الساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر, أغلبنا اجتاز ذروة التعب والجوع والإرهاق العصبي, بانتظار بدء مرحلة جديدة على مشارف الوجع.

دخلنا مدينة تدمر ممسكي الأنفاس, راقبنا الشارع الرئيسي في المدينة. الناس تنظر إلى الحافلة ببلادة. ينظرون إلينا قليلاً ثم يميلون بأبصارهم بلامبالاة إلى جهة أخرى. كل واحد يلتفت إلى مصالحه وعمله ومسيرة يومه العادية.

فتحت عيني على وسع, منصتاً إلى وتائر قلبي. الرحلة بدأت الآن, لكن متى ستنتهي, وفي أية محطة. وأي جسامة من النكوص والخيبة ستمتلئ بها روحي.

عبرنا الشارع الرئيسي, دكاكين ومطاعم على الجانبين. سكان المدينة يدركون معنى وجود حافلة تمر من هذا الشارع. مع ذلك لم يكن الأمر يعنيهم. لم يكن السجن يبعد عن المدينة سوى بضعة مئات من الأمتار. أنه يقع في الجهة الشرقية الشمالية منها.

ما أن صرنا خارج المدينة حتى لاح لنا سور السجن لا يتجاوزارتفاعه أكثرمن المتران. مثل أسوار المدارس والدوائر الحكومية, مكتوب على الجدران الكثير من الشعارات مثل, أمة عربية واحدة. لا حياة في هذا البلد إلا للتقدم والاشتراكية. البعث طريقنا. الاسد قائدنا إلى الأبد. أغلب الشعارات لها طابع الديمومة والاستمرار.

ما أن توقفت الحافلة حتى طلبوا منا النزول.

صرنا بين فضاءين, الحافلة والسور وفصيلين من الشرطة إلى أن تمت عملية الاستلام والتسليم/ البضاعة كما كانوا يقولون/ بين عناصر الأمن السياسي والشرطة العسكرية بمنتهى الهدوء والصمت. منذ اللحظات الأولى قالوا: الأحزاب اليسارية تأخذ جهة اليسار والأحزاب اليمينية تقف في الجهة

المقابلة. بعدها لم أعرف ماذا حدث. قالوا كل واحد يضع العصابة على وجهه وعينيه ويخفض رأسه. وقتها أظلمت الدنيا تماماً.

في الساعة الرابعة بعد الظهرالتف العسكر حولنا من كل الجهات كالذئاب الجائعة. قال أحدهم بإيعاز واضح, أحمل حقائبك, ضع يدك في مؤخرة بنطال الذي أمامك. إلى الأمام سر.

رحنا نمشي مطأطيئ الرأس والجدع, الكيبلات المطاطية تغرز انصالها في لحمنا. صفعات على الرأس, صفعات على الوجه من الجانبين, بينما نحن نسير. الصفعة تأتي مرة من اليمين ومرة من اليسار. شتائم غريبة وعجيبة لم ألفها ولم أسمع بها من قبل. من أين لهم هذا الرصيد الهائل من البذاءة والوقاحة. أين تعلموا هذا الكم الهائل من الإذلال للناس من أبناء جلدتهم. كيف نموا في نفوسهم هذا الكره الأحمق للآخر, كيف غرزوا الحقد في قلوبهم نحونا. حقدهم علينا لكوننا سجناء ومعارضون للنظام.

الصفعة تأتي مرة على رأسي، ومرة على وجهي. أحياناً كثيرة ألسع بالكيبل على ظهري. كل دقيقة يقولون وطي رأسك في الأرض يا ابن الشرموطة وطي رأسك يا أبن القحبة, يا ابن المنيوكة وهكذا دواليك. ارفع رجلك إلى الأعلى يا منيك. نمشي ونرفع أرجلنا ونحن مطمشون. نسير ولا نعرف إلى أين. لا نعرف ماذا يفعلون. لا نعرف إلى أين يأخذوننا.

قلت لنفسي في هذا المكان نهايتي, بالتأكيد سيصفوننا مثلما فعلوا بالإخوان المسلمون والبعث العراقي.

كانت حقيبتي قديمة, أقفالها مكسرة وصدئة. صارت هذه الحقيبة اللعينة عبئاً علي, لا أعرف كيف أداريها. كل دقيقة تفتح الحقيبة من تلقاء نفسها, أقف فيقف الطابور معي من أجل أن أغلقها عبر اللمس. يزداد جنون الشرطة علي ويزداد ضربهم لنا جميعاً.

هدنا التعب والخوف المركب والغريزي. يد تمسك مؤخرة بنطال الذي أمامي, ويد تمسك الحقيبة الكبيرة المهترئة التي لا تصلح لشيء. كثيرة هي المرات التي كانت تتناثر المحتويات. الارتباك والقلق والخوف ومحاولة السير تحت لسع الكوابل المطاطية والكلمات اللاسعة يكون في الذروة. لهاثي ولهاث رفاقي وأصدقائي يصل إلى عنان السماء. أصوات الأقدام التي تخبط الأرض دون هدى يشبه دبيك الخيول الراقصة على لفظ أنفاسها وملاقاة حتفها. لا أعرف من أين تأتي اللسعات. نرزح تحت ثقل ثقيل, نسير على صف واحد.. على خط واحد. يسيرالجمع في تأهب تام فوق أرض مملوءة بالحصى والرمال. ندخل أبواب ضيقة، عليها مصاطب عالية, نترنح ونتمايل ونقع أحياناً وندوخ أحياناً أخرى. عين مغمضة وأخرى منصتة إلى وتائر اللكمات والكبل. لقد نسينا الجوع والبرد وركزنا جهدنا على الاجتهاد الجديد, على الهروب من الضرب. ربما مرت ساعة أوأكثر ونحن نجوس وننوس في المكان. ندور وندور ضمن دائرة مغلقة. يعود الصوت الغاضب, أسرع من هيك يا أبن الزانية. أسرع من هيك يا ابن القحبة, ولكم أن تتخيلوا الكم الهائل من الشتائم التي تتصاعد مثل متوالية هندسية.

تلاشى حزني وغضبي في هذه اللحظات لعدم قدرتي على تملك إرادتي. قلبي يدق ويخفق بقوة بين جنباتي صدري. الروح متوثبة من سرعة الإيقاع الذي حملونا إياه.

كان جسدي قوياً بالقياس لغيري, مع هذا كنت أقاسي عناء التعب والإرهاق, فما بال أولئك الذين لا يستطيعون حمل أجسادهم المريضة والهرمة

استولى علينا القلق والحيرة والإرهاق. رحنا نقطع رحلة الوجع الطويلة, ننتقل من أسى إلى آخر إلى أن بلغنا تيار الدهشة الأقرب إلى الذهول. نمشي دون هدى على الأرض الوعرة, المنفرة, المتموجة.

كنا أقرب إلى حالة التشنج العارمة. الصدمة التي بقت تحت ذاكرتنا المتجددة, ما أن تنام حتى تفيق على الصراخ والألم. نتدحرج مرة ونقع مرة ثانية. نطلق الآهات الحارة من حناجرنا المتألمة دون إرادة منا.

صارت حياتنا ملك مجموعة من الحمقى, العسكر, يفعلوا بنا ما يريدون. إيعازهم الدائم, أمشي يا عرس, أمشي يا ديوث, أمك قحبة! الضرب والركل والبصق والرفس مترافق مع المشي القاسي. العرق يتصبب من أجسادنا بغزارة في هذا الشتاء البارد. النفير العسكري مستمر, أمشي يا خائن, يا فاسق, يا خسيس.

من تحت الطماشة كنت أرى أحذيتهم الكبيرة, الجزء السفلي المدلى من الكرباج الذي يضربوننا به.

قلت, هذا الوطن غربة, إحساس خانق بالضياع.

كنت موقناً أن الدم سينفر من شراييني، شاقاً لنفسي روافد لها منافذ متعددة, تتسع لنبضي المتدفق.

بعد معاناة طويلة وإجهاد ممل توقفنا ورؤوسنا على الجدار, حقائبنا في أيدينا نلهث وننتظر, مستغرقين في الصمت والهدوء الكامل. لم يقولوا لنا كلمة واحدة ماذا سنفعل بعد الذي حدث. أصواتهم الهادرة اختفت بسرعة كما بدأت قبل ساعة ونصف الساعة أو نحوهما. رؤوسنا منكسة على الجدار, مستغرقين في البحث عن موطئ آمن, بعيداً عن أنفاسهم الداكنة وأغلالهم القاسية. كنا متوتري الأعصاب, لا نستطيع أن نقوم بمبادرة أو حركة لا تحمد عقباها. ماذا نفعل. هل نبقى في مكمننا أم نتحرك. لكن.. إذا تحركنا إلى أين نذهب ونسير, هذه الطماشة أو العصابة اللعينة على أعيننا ماذا نفعل بها. يا إلهي ما هذا؟ مر وقت طويل ونحن وقوف في حالة صمت وعرة, تأخذ منا المآخذ. توقف الضرب وتلاشت الشتائم وهدأت المفأجاة والدهشة المثقلة بالفزع والغربة والغرابة بعد رحلة طويلة من الصدمة التي لحقت بنا. قال حكمت مرجانة, نحن في مهجع. انزعوا الطماشات من على وجوهكم وعيونكم.

كانوا كالملح أوكضباب صيفي تبخر وذاب. أين الشرطة العسكرية, كيف ذهبوا, لماذا لم نسمع صوت إغلاق الباب, لماذا لم يقولوا لنا أننا في مهجع. هل هذا سر؟. لماذا تركونا وقوفاً مدة طويلة على الجدار ومضوا. لماذا تركونا نكتشف الأمر بأنفسنا.

الأشياء التي تحدث في هذا السجن الخطيرلا يمكن تفسيره على الأطلاق, لا يمكن معرفة أي خطوة من خطواتهم. لماذا يبالغ كل شرطي في إظهارعدائيته وعدوانيته لنا, لماذا يفعلوا ذلك, هل هذا الأمرصادر من مسؤولي السجن أم هو خوف مركب أو كره وحقد دفين وأحمق.

فتحت عيني على وسع فرأيت مكان أشبه بدهليز كبير, جدرانه عالية تصل إلى سبعة أمتارأوأقل أوأكثر, لا أدري. عرض المهجع سبعة أمتار في طول أربعة عشرة متر. المياه تغطي مساحة المهجع الواسعة. رفعت رأسي إلى الأعلى, رأيت فتحتان في السقف, طول كل فتحة متران في عرض متران تقريباً, مركزتان في وسط السقف. يا إلهي لماذا هذه الفتحات في هذا السقف العالي. رحت أضع الاحتمالات البريئة مثلي مثل رفاقي. قلت ببلاهة, ربما من أجل التهوية والشمس. أردف آخر. قال, في السابق, كان السجن مكتضاً بالسجناء, يصل العدد في كل مهجع إلى المائتين أو الثلاثمائة سجين, لذلك فتحوا هذه الفتحة في السقف, من أجل دخول المزيد من الهواء والضوء. وتابع, حتى لا يمرض السجناء! رحت أتساءل, لماذا هذا الارتفاع العالي للجدران, المطر الذي يدخل من هذه الفتحات السماوية كيف يمكن منعه, كيف يحمي السجناء أنفسهم من سطوة المطر والبرد والحر. بوجود هذه الفتحات لا يشعر السجين إنه تحت سقف, لأنها تجعله عارياً تماماً, مراقباً من السماء والأرض, كأنه مزروع دون إرادة منه في غابة مطيرية أو صحراء. رحنا ننظر إلى السماء المملوءة بالغيوم والضباب, لونها المائل تدريجياً إلى الأسود الداكن.

كانت الجدران سميكة, نظيفة, مكلسة باللون الأبيض الناصع. لا كتابة ولا شخبطة ولا أي شيء يدل على وجود غيرنا في هذا المكان الخطير, وأرض المهجع مستوية تماماً, سماكة بيتونها المسلح نحوعشرين سنتمتراً. ايعقل أن نكون وحدنا في هذا السجن الخطير والمعروف على الصعيد العالمي بقسوته ووحشيته؟ هل فرغ من المعتقلين؟ أسئلة كثيرة تنتابنا ولكن لا جواب عليها. يبدو أن هذا المهجع وغيره بني بعد أحداث حماه أو قبله بقليل.

اقتربنا من الجدران, وجدنا عليها شباك من النايلون العادي ولكنه قاسي جداً, مشغول على طول المهجع على ارتفاع متر من الأرض تقريباً, من الباب إلى فتحات الحمام, ثم يدور ليصل إلى الباب مرة أخرى من الجهة المقابلة له, على طابقين. الغبار يغطي هذه الشباك. عندما دققنا عليه هرت الغبار على الأرض. قدرنا أن هذا دلالة على أن المهجع كان فارغاً مدة طويلة. كيف صنع أخوتنا السجناء الذين قبلنا هذا الشباك, أي رياح عطرة دخلت إلى عقولهم ودفعتهم على القيام بهذا العمل. لكن من أين أمنوا المواد الأولية لصناعتها, وكيف؟ من أين جلبوا الأدوات التي تساعدهم على تركيبها. المنظر طاغي,

يتوهج بلمعان عجيب. كيف استطاعوا أن يثقبوا الجدران على عمق 2سم من الطرفين, كيف أدخلوا الحبال في الشقوق, كيف سمحت الشرطة العسكرية بذلك؟ من أين لهم الجرأة في طلب صعب كهذا؟ عمل يتميز بتقنية عالية وجودة وخبرة. صنعت في مكان لا يسمح باستخدام أي وسيلة حديثة من وسائل العصر كالحديد أوالخشب.

هذه الشباك صنعت من أجل وضع الثياب والحاجات الأساسية عليها وعلى خطين متوازيين, على طول مسارالجدار. عمل يحتاج إلى نفس طويل, صبر وشغل حرفي عالي.

ما أذكى الانسان, لديه القدرة على استنباط الوسائل والأساليب التي تساعده على تكييف الواقع الصعب لشروط عيشه, حتى لو كان قاسياً وهداماً.

في صدر المهجع مدخل إلى الحمام والمراحيض. كل الأدوات الموجودة صنعت من أكياس النايلون/ أكياس الخبز/.

عند توزيع الطعام, مرق أوبعض اللحم مع العظم. يخرجون قطع العظام, يحفونها على الجدران بهدوء وصمت ومنها يصنعون الإبر. بعد إخراج الخبز من الكيس, يقطع على شكل شرائح بعرض 2- 3 سم ثم يمط إلى الأمام. تجدل هذه الشريحة إلى أن يتحول إلى خيط متين وقوي. يدخلوا هذه الخيطان في الإبرالمصنوعة من العظام, يخيطوا بها حاجاتهم الأساسية كالجوارب أو ترقيع الثياب. من هذا الخيط المجدول باليد صنعت منه الحبال والشباك. كما أجرى بعض الأطباء الجراحين السجناء الكثير من العمليات الجراحية لإخوتهم من السجناء كالزائدة الدودية أو غيرها.

يقف أحدهم, يمسك المريض من يديه, بينما الآخر يمسكه من قدميه. يقف أحد الرجال عند رأس المريض وبيده خرقة أوقطعة قماش يضعها في فمه, حتى إذا أشتد الألم عليه أثناء إجراء العملية, يضغط على القماش, حتى لا تتكسر أسنانه أويصرخ من الوجع أويصدر صوتاً ينبه الحراس. يتم تعقيم الجروح بعد العملية بالدهون والشحوم الحيوانية القادمة مع الطعام.

بهذه الطريقة صنعوا الكثير من الأشياء المفيدة والضرورية لحياتهم الطويلة في السجن التي تمتد إلى عشرات السنين.

خزان الماء من النايلون, طوله متران وعرضه متران وارتفاعه متر. الحنفيات التي يخرج منها الماء مصنوعة من السرنكات/الحقنة/ وكلها مربوطة بالجدران. الحوض يتسع تقريباً لكمية كبيرة من الماء, يعمل على تلبية حاجة المئات من السجناء وقت انقطاع الماء في هذه البادية المعزولة عن العالم.

وضعنا حقائبنا على الشباك ووقفنا جانباً نتقي البرد والماء المسكوب على الأرض. كنا أحد عشر فرداً في هذا الدهليز الكبير. أين ذهب رفاقنا؟ أين البقية؟ سؤال لا يمكن أن نطرحه على أحد.

هنا الغربة قاتلة والعزلة على أشدها. تتجسد في هذا المكان ثقافة الموت البطيء والفراغ والعزلة الخانقة عن العالم.

لا يوجد راديو, لا متابعة للتطورات العالمية, لا كتب أو أقلام أو دفاتر, لا موسيقى أو صوت شجي. استبدلوا صوت فيروز بصوت العسكر والضرب والشتائم. لا زيارات ولا ضحك, الكلام ممنوع, البكاء والحنين واليأس ممنوع. يتبعها توتر وحشي قاتل, توتر يعصرالقلب, يحرق الأعصاب والأوردة.

لم نكن نعرف ماذا نفعل. الباب الحديدي, كبير ومطلي هوالآخر باللون الأسود الفاحم واقف في وجوهنا. كتلة صماء خرساء موجعة. مجرد أن ننظر إليه نحس بطوفان الكآبة, طوفان يحلق حول العين, يجعل الأسى يكبر وينمو باضطراد إلى أن يصل إلى مرحلة القرف من الحياة ومن هذا العالم.

في سجن تدمر, يحس الإنسان نفسه مثل أهل الكهف في الأساطير لغياب صور الحياة, حركة الأحياء, الواقع اليومي للبشروالكائنات الحية الأخرى.

بقيت خمسة أعوام في هذه الأصقاع, لكم تمنيت خلال هذه الفترة أن أرى وردة برية أو زهرة, وجه امرأة أو قرد. طغيان الصمت والسكون المترافق مع الإرهاب اليومي المنظم يجعل أقوى إنسان على

سطح الأرض ينهار من تلقاء ذاته. العزلة في هذا المكان الصامت يرزح ما بين الكمد والهم. عرفت زمني في هذا الطوفان الجارف من السوداوية المرة, عشت على ألحان قديمة ونغمات طافحة من دون أمل.

دعم النظام الدولي لحافظ الاسد, لهذا البدوي القادم من الجبل جعلته يكشرعن أنيابه الخفية وينفرد بنا. هذا الدعم كان جزءاً مهماً وراء إحجامنا ونكوصنا وقبولنا بالأمرالواقع, لأننا عزل والزمن ليس معنا, إنه علينا, بوعورته وقسوته.

عندما يحل الخوف, عندما يصل إلى درجة الرعب, ينسى الإنسان أحزانه وهمومه الخاصة, يبدأ التركيز على مسألة البقاء على قيد الحياة, لأن طاحونة القمع تسحق كل من يقف أمامها أو في مؤخرتها أوعلى الجانبين. طاحونة تأكل الأخضر واليابس مثل الجراد الصحراوي, الذي يفكك كل لون له بهجة الحياة. جراد يأتي على كل شيء, يشمل كل المخلوقات, يطمس كل معالم الخير والجمال والحب.

كانت رياح كانون تزمجر, تدفع هبوبها للتسلل إلى المهجع, فترتج الجدران وتهتز, يرافقها ثقل صوتي محسوس وعاتي. رائحة الهواء البارد المندفع من الخارج يرافقه ليل أسود معتم, إحساس بالخطر, أن تنشق الأرض وتخرج منها أبخرة حارقة ممزوجة بالمغما الخارجة من الأعماق.

رحت أتجول داخل التعاسة والتمزق, يشغلني التوجس والانزواء. يا إلهي! يا وجع الوجع, ما هذا الذي نحن عليه.

ماء المطر يتسلل عبر الفتحات الكبيرة التي في السقف إلى داخل المهجع, ونحن نبتعد.. ننزوي إلى أن صرنا إلى جوار الباب. تتجمع المياه وتستقر في الساحة المنخفضة القريبة من الباب. المكان داشر ومفتوح على الريح والهواء والمطر والزمهرير والصمت. ماذا نفعل وأين نقف, ومن أين نبدأ. رحنا نصرخ من أجل أن يأتي أحدهم لمساعدتنا. رحنا نتساءل, هل يمكن أن يتركوننا في هذا الوكرالوعر لوحدنا دون أن يقدموا لنا الطعام والفراش والمكانس من أجل جرف الماء وشطفه. كيف يمكن أن نمنع دخول العتمة والمطرإلى هذا المكان, أين سنقف, ما نفعل, أين سننام في هذا الدهليز الكبير, كيف نتدفأ؟ يحتاج المرء إلى خمسة لحف وفرش ووسائد تقيه من هذا البرد القارس.

طفقنا ننطوي على بعضنا في زاوية كامدة. ضوء الليل ينزلق بغتة, ينتشر منفصلاً عنا, يبتلع كل من يقف في طريقه. تيار جارف من التعب والقلق والألم يدخل إلى أعماقنا.

تتلاحق الدقائق والثوان كأنها دهر. تدور أفكارنا وتصب في صور بعيدة لتنساب كشعورآخذ بالإندثار, مغلولاً في قيود, مشلول التأثير على مجرى الأحداث, كأننا نخوض في الأوحال العميقة متعثري الخطى. بعد فترة فتح الباب بغتة. صاح أحدهم بلهجة أمرة وقوية, ليخرج اثنان منكم من أجل إدخال الفوارغ والمكانس.

خرج محمد خير خلف أولاً ثم تبعته. قال لي, يا ابن القحبة يا ابن الشرموطة, أدخل الفوارغ. عندما هممت بإدخال الفوارغ, لبن ولحم مع عظم وتفاح رفسني الشرطي رفسة قوية كدت أقع. ما أن بقي محمد خير بينهم حتى تناهى إلى سمعنا صوت صفع على الوجه مع لكم وضرب مترافقة مع كلمات نجسة, وطي رأسك يا أبن الزانية, وطي رأسك يا أبن, شتائم لا تعد ولا تحصى. وطي رأسك عندما تتكلم مع اسيادك, وطي رأسك يا ذليل. الضرب المبرح تناول الرأس والظهر والوجه مع شتائم رخيصة إلى أن دخل زميلنا مورماً ومعه المكانس والطشوت ولحاف لكل واحد منا مع بطانيتان قديمتان مهترئتان وعازل. ما أن أغلقوا الباب حتى سمعنا صوتاً يتكلم من أعلى السقف, رفعنا رؤوسنا, لم نرإلا العتمة وصوت الشرطي الذي على السطح يصراخ بأعلى ما يكون, وطي رأسك يا ابن القحبة, يا ابن الشرموطة عندما تتكلم. ليبقى رأسك ملازماً للأرض, لا ترفعه على الأطلاق.

كان الظلام دامساً, كيف عنّ له أننا نراه. لم يوفر شتيمة لم يقلها, محاصرون من الباب والسطح, الطقس البارد والظلام, الشتائم والضرب. كيف يمكن لنا أن نصمد ونقف على أقدامنا. من أين لنا القدرة على التحمل وفي كل يوم نفقد قدر كبير من الطاقة والإحساس بالأمان ونشرب الذل جرعة وراء جرعة. قال

لنا, جهز الشرشف, افتحه, افتحه بسرعة يا ابن القحبة, يا ابن.. وهكذا. ركضنا بسرعة, فتحنا أحد الشراشف التي جلبها أحدنا معه. رمى الشرطي لمبة صغيرة على الشرشف. عاد للقول, ليصعد أحدكم على كتف الآخر, ليصعد حتى يصل إلى اللمبة ويضعها في السوكة. عملنا حلقة دائرية من خمسة أفراد, ثم حلقة أخرى من ثلاثة أفراد بعدها حلقة من فردين. صعد عمار رزق إلى الأعلى ووضع اللمبة في السوكة. قلنا للشرطي بصوت واحد, يا أخي, كيف نقي المهجع من المطر. رد بصوت جهوري, أنا لست أخاكم يا أولاد القحبة. نبرة لم نألفها من قبل. تابع كلامه, أنتم أولاد المنيوكة, أولاد الشرموطة, أمكم لم تربيكم يا منايك. ثاني مرة يا أولاد الوسخة لا تستخدموا هذه الألفاظ. عندما يطلب أحدنا منكم شيئاً أو يطلب أحدكم منا شيئاً لا تستخدموا هذه الألفاظ القذرة. ثم قال, عليكم أن تقدموا التحية, ثم تقولوا حاضر حضرة الرقيب أول ثم تعرضوا ما تريدون أن تطلبوه. هل فهمتم يا أولاد المنيوكة. ومضى يرشقنا بالشتائم والسباب مرة أخرى. ثم مضى يعلمنا كيف نستخدم الحبال المتمفصلة والمتحركة ما بين السقف ومكان وقوفنا. صفيحة من النايلون على شكل صفحة مستوية مثل الطائرة الورقية التي تطيرلارتفاعات عالية. صفيحة متحركة تتحرك حسب توجيه الخيطان لها. جزء منها ثابت مربوط بالسقف عبرلاصق والآخر متفصل ومتحرك.

حركنا الحبال مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال إلى أن راحت الصفيحة ترتفع إلى الأعلى رويداً رويداً مثل لعب الأطفال. مضت ترتفع إلى أن اقتربت من السقف وسدت الفتحة. صفيحة النايلون هذه اسمها الشراقة استطاعت أن تمنع المطر من الهطول علينا.

أضحى كل شيء يسمى شراقة في سجن تدمر.

كيس الخبز يسمى الشراقة, الشباك التي نضع عليها ثيابنا تسمى الشراقة. الكيس الذي يملؤوا به الأشياء التي تجلب كالدواء أو الخضار تسمى الشراقة. الصفيحة المصنوعة من النايلون التي تغلق الفتحة التي في السقف اسمها الشراقة. جميع المواد المستخدمة في السجن أسمها الشراقة. جميع السجناء لا أسماء لهم. جميع السجناء لا أرقام فردية لهم.

جميع السجناء يلقبون باسم المهجع الذي ينتمون له, هذا إذا كان خارج مهجعه أما إذا كان داخل مهجعه فيسمى من خلال لون حذائه أو ثيابه أو بيجامته. كأن يقولوا, أنت يا أبو الحذاء البني, أوأبوالبيجاما الخضراء. أنت يا مريض أو أنت يا قصيرأو يا طويل. يا منيك, يا أبن الشرموطة, يا شراميط, يا شرموط.. وهكذا.

الشرطة كلها, من مدير السجن إلى المساعدين, إلى الرقباء, إلى العرفاء والشرطة العادية يسمون حضرة الرقيب أول.

اختصرت اللغة العربية كلها بجمالها وغناها في بضعة كلمات لا غير.

عندما يخرج السجين, عندما يقف أمام الشرطي, يحييه ويتسمر في مكانه. رأسه مطأطئ إلى الأسفل, ومغمض العينين, ويقدم نفسه, يقول حاضر حضرة الرقيب أول. هو وحظه, ربما يضربُ أو يبصق عليه, أو يطلب منه أن يقبل أحذيتهم أو يأكل الطعام من تحت أحذيتهم, أو يبطحوه على الأرض ويضعوا أحذيتهم في فمه أومؤخرته أو يصعدوا على ظهره أو يرفسوه أو يتركوه مسمراً في مكانه. أويطلبوا من بقية الشرطة أن تعذبه أو تشتمه أو يضحكوا عليه. أو يطلب منه أن يزحف على كوعه وركبه مع الضرب بالكبل على ظهره ومؤخرته مع بصق وشتائم, أو يضعوا ثلاثة أوأربعة بيدونات/ البيدون عشرون ليتر من الماء/على ظهره ثم يطلب منه أن يزحف.

كثيرة هي المرات التي يطلبوا من السجين أن يغمض عينيه ثم يعطوه الإيعاز من أجل أن يمشي إلى الأمام. عندما يمشي يصطدم رأسه بالجدار بكل قوة, يضحكون ملئ أفواههم الكريهة. يقولون كأنهم اكتشفوا شيء ثمين, العمى في عينوك ألا ترى أمامك. ومرات كثيرة نسمع شرطياً يطلب من مسؤوله المباشر, يقول له, أبوس يدك, أبوس رجلك, أبوس طيزك أن تسمح لي أن أخرج أحدهم/ يقصد سجيناً ما لا يعرفه على الأطلاق/ أن أجلده وأبرد قلبي به.

تخيل نفسك أن هذا الوحش كبلك ومضى يضربك إلى أن يشبع ويشفي غليله. هذا السجان مجرد مجند إجباري, أي غير متطوع, يقوم بالخدمة الإلزامية, عمره لا يتجاوز الثامنة عشرمن العمروفي أقصى الحدود عشرون عاماً. أتساءل,

لماذا سكنت هذه العدوانية المنفلتة من عقالها, الخالية من أي مبرر في قلب شاب صغيريتمنى أن يجلد إنساناً محجوز الحرية لا يعرفه ولم يسبق له أن رآه.

بهذه الطريقة تفتتح العلاقة المشوهة في بلادي ما بين الجلاد والسجين, أحدهما يملك حذاءً كبيراً وطويلاً وملمع الشكل, بينما الآخرمنخفض الرأس والجدع. بهذه الطريقة المشوهة شوهت شعوبنا وبلداننا. هذه العلاقة المؤطرة مؤشرعلى الاحتقار المتبادل ما بين المجتمع والسلطة. لا يظن كائن من يكون إنه خارج هذه المعادلة الصعبة حتى لو كان جالساً في بيته. الجميع تحت الطلب مهما حاولوا أن يقنعوا أنفسهم إنهم في أمان.

يبقى الجلاد ينظر إلى ضحاياه بازدراء واحتقار وفوقية, من شأن أن يرفع من شأن دونيته ووضعه الوضيع ومقامه الهابط. إن احتقار الجلاد لضحاياه, هو نتيجة لاحتقاره لذاته ومنشئه الوضيع والمنحط.

الجلاد إنسان تافه في تكوينه النفسي والخلقي والأخلاقي, في منشأه النفسي ونفسيته وحياته وتربيته. إن وصول هذه البضاعة التافهة إلى الحكم لم يغير في تكوينهم أي شيء, إنما بالعكس, السلطة عملت على كشف الغطاء الذي كانوا يتسترون به, عن الثوب الرخيص الذي كانوا يلبسونه.

لهذا تسعى السلطة في سوريا دائماً على إصباغ كل حركة من حركاتهم وكل فعل من أفعالهم بصبغة الحضارة, للتأكيد على أنهم ليسوا من أصل وضيع ومنحط.

رحنا نشفط الماء بالمكانس. توقف المطربعد أن سدينا السقف بالشراقة, وراح ينزل على الصفيحة المصنوعة من النايلون. مددنا العوازل على الأرض, ثم وضعنا البطانيات المهترئة عليها. سألت, كيف يمكن أن ننام في هذا المكان البارد, كيف يمكن لهذا العازل المهترئ والبطانيتان القديمتان المهترئتان أن تحمينا من البرد القادم من الأرض. لم يعطونا وسائد. /الوسائد دلال زائد عن اللازم/. أما اللحاف فلا يمكن أن يدفئنا.

فتحنا حقائبنا وأخرجنا ثيابنا وفرشناهم فوق العوازل. قسم كبير منا لم يجلب معه إلا منشفة فقط لاعتقادهم إننا في رحلة قصيرة, لعدم إدراكهم طبيعة المكان الذي سنذهب إليه. كما كان بيننا الكثير من المرضى, أجسادهم ضعيفة لا تقوى على الصمود والمقاومة, لذا توجب أن توزع الثياب على المرضى والأصدقاء والرفاق الآخرين من الثياب الموجودة. وصنعنا من الثياب وسائدنا. أغلب أفراد مجموعتنا الأحد عشر كانوا من المرضى وكبار السن.

بعد قليل جاء الشرطي وتكلم من على السطح. راح يصرخ علينا, هل فرشتم العوازل, مددتم فراشكم يا أولاد.. شتائم بالجملة والمفرق. قلنا بصوت واحد, نعم فرشناهم حضرة الرقيب أول. قال, إذاً يا أولاد الشرموطة ادخلوا في فراشكم وناموا. وتابع, النوم يبدأ من الساعة السابعة مساء إلى الساعة السابعة صباحاً/ كنا نستيقظ في الساعة السادسة صباحاً لكن لا أدري لماذا/. الحركة ممنوعة أثناء النوم. يجب أن تناموا على سيفكم/ على جنب واحد/ ولا تتحرك على الأطلاق. أي واحد يتحرك في فراشه سيجلد في الصباح, ممنوع دخول المرحاض خلال فترة النوم, ممنوع شرب الماء أو تناول الدواء إذا وجد في الليل. باختصار يجب أن تتحولوا إلى جثة هامدة من أول المساء إلى الصباح. ثم قال: أي واحد منكم يا أولاد الوسخة نراه يتحرك أو يقوم بحركة ما سيجلد في الصباح. وأضاف, كل ساعتين يجب أن تتبادلوا المناوبة, يجب أن يبقى واحد منكم مناوباً, حارساً, أن يقف تحت الشرقة/ الفتحة التي في السقف/ باستعداد تام, أن لا يتحرك على الأطلاق, وكل ساعتين يتبدل واحد. التبديل يتم مع تبديل الشرطي الذي على السطح. ثم قال اسم مهجعكم الرقم/ 38/. أنتم المهجع الرقم /ثمانية وثلاثون/. هل فهمتم. وقال, تابع.

عندما يقول الشرطي /كلمة تابع/, سواء تكلم معنا من السقف أومن وراء الباب أو عند فتح الباب نحييه بالقدم اليمنى, نخبط بالقدم اليمنى بقوة كبيرة وقاسية, أن يفيق على أثرها كل النيام في السجن.

تسللنا إلى /الفراش/ كما كان يسمونه. برودة الأرض تتسلل إلى الجسد من خلال العازل والبطانيات التي لا حول لها ولا قوة في منع هذا البرد من الوصول إلينا. كما أن الثياب لم تفي بالغرض. النوم في هذا الدهليز الواسع لا يبعث على الاطمئنان, ولا يترك المرء يخلد للراحة أوالنوم. لم أستطع أن أغمض عيني على الأطلاق. هربت ملكة النوم من جفوني وعيوني وغابت, وليت وجهي نحو جهة اليمين مستغرقاً. حاولت النوم, قلت لنفسي كيف يمكن للمرء أن ينام في الساعة السابعة مساءاً, إنه شيئ صعب وقاسي للغاية. لم تمض خمسة دقائق حتى أحسست أن رجلي كلها تتمل من الخدر والاستلقاء على جهة واحدة. ماذا أفعل, هل أقلب على صفحة أخرى, وإذا قلبت, سيراني الشرطي, عندها ماذا أفعل. يا إلهي أحس بالوجع يتسلل ببطء إلى كل أنحاء جسدي. تكلمت مع الذي بجانبي بصوت منخفض جداً قلت له, هل نمت. قال, لا.. لا أستطيع النوم. أحس أن البرد سيأكل عظامي. قلت, هل تحس بالتنميل في رجلك وكتفك. قال, نعم, رجلي منملة ومخدرة بالكامل بالإضافة إلى كتفي وصفحتي. قلت, وما نفعل والليل في أوله. قال, لا أدري, لكن لا مفر من الصبر والجلد والتحمل.

وقف يوشع الخطيب مناوباً في مكانه. البرد الكانوني يلسعه ويهزه من كل الأطراف وهو متجمد في مكانه. بعد قليل جاء الشرطي وراح يخبط بحذائه على السطح بمنتهى القوة. بعد عدة شتائم متتالية كافتتاحية لمقابلة أوللقاء ما. قال,

يا ابن الشرموطة, يا ابن.. لماذا لم تضعوا الطماشات على عيونكم. ليضع كل واحد من النائمين طماشة على وجهه وعينه. ثم أردف, بعد دقيقة واحدة سأرى الجميع مطمشين. بسرعة يا ابن.. شتائم.

فتح كل واحد حقيبته ووضع قطعة من القماش على عينيه يقي بها وجهه وصورته وعينيه.

عاد الصوت أقوى من السابق مزمجراً واثقاً من نفسه, يجب على الجميع النوم والطماشة على رأسه وعينيه. من اليوم لا أريد لأحد منكم أن ينام بدون طماشة. فهمت يا أبن النذلة.. شتائم متتالية. ثم قال, تابع.

حياه يوشع الخطيب بقدمه اليمنى بهدوء. استشاط الشرطي غضباً, راح يشتم ويلعن ويتوعد ويهدد, قلت لك أن تضرب رجلك في الأرض بقوة, هل أنت في حضن أمك يا منيوك وتلعب في كس أمك يا ابن القحبة.

منذ تلك اللحظة بدأنا الانفصال عن العالم, ومضت أيامنا في تحلل. نحلل تفاهات الأمور, التحية, قوتها أو ضعفها, ماذا قال الشرطي, ماذا تكلم, ماذا شتم. لهجة الشرطي, هل هو من الحسكة أم دمشق, من حمص أواللاذقية. هل هو عدواني وحاقد جداً أم أقل. رحنا ننسى إننا سجناء سياسيون ولنا حقوق في بلدنا ووطننا. تغيرت اهتماماتنا ورغباتنا وأمالنا وأمانينا. لم نعد نتكلم في السياسة لأن الكلام ممنوع. لا نفكر في الغد لأننا نريد أن نمرر كل دقيقة بأقل قدر من الوجع والقهر والشتائم والضرب. صار اهتمامنا منصباً على نوعية الطعام وكميته. الضرب, نوعيته, بالكبل أم صفع على الوجه, شدته, عدد الكوابل التي يرشقونا بها, عدد الصفعات التي يضربوننا بها. رحنا نعطي اسماء لكل سجان من خلال قوة طرق حذائه على السطح. نقدر حقده وكرهه من خلال الطرق أو الشتائم. نعطي أسماء أخرى للشرطة نسبة لما قاله لنا, كأن نعطي للشرطي أسم أو لقب الصرصور, لأنه قال لنا صراصير, وآخر قرد, لأنه قال لنا يا قرود, وذاك أسمه الهادي لأنه تكلم معنا بصوت هادئ ومنخفض, والآخر أسمه الغدار لأنه عذبنا من الشراقة أو الفتحة التي على السطح أو قال لنا يا غدارين.

حركة الشرطي وتنقله على السطح, اعطانا انطباعا عن تكوينه النفسي والروحي, انتمائه المذهبي والطائفي أيضاً, هذا علوي وذاك سني, هذا مسيحي وذاك كردي. لكن الجميع يخاف من الجميع, الشرطة تخاف من بعضها, كما أن الشرطة تخاف من السجناء, السجناء يخافون من السجناء ومن الشرطة. كما يوجد في بعض المهاجع مخبرون لصالح الشرطة تجعلهم في حالة هياج وخوف وقلق في

حال أبدى أي نوع من أنواع التعاطف. أنها الطاحونة القاتلة, طاحونة القمع والخوف التي تأتي على كل أخضر وجميل ويابس وملون أيضاً.

تتدفق دفقات المطرعلى الشراقة المصنوعة من النايلون, طرق.. طرق برتابة وكآبة وملل مثل دقات الساعة الراحلة إلى زمن لا محدود, ثم تتبعها رشقات موجعة على شكل موجات متتابعة.

المكان فارغ, الصدى يملأ الفراغات الفارغة. المسافات الزمنية تسير ببطء, تنقلنا من مكان إلى آخر, ونحن نغرف من معينها كل يوم خراب نفسي دافق. انفصال عن المكان, عن التوق للأمل, للحب, للحياة. آه لم نعد نلمح أي ملمح للجمال. تزايدت كثافة الانتماء إلى البعد عن الحياة وحركتها وجنونها الجميل. غابت الوجوه التي كنا نحّن إليها. لم تعد في الذاكرة إلا بقايا صور في صور داشرة ومرمية في سلة الغياب. غاب الخابوروضاع في غربة الانفصال عن الحياة وغابت معه حقول القمح وسريرالسنابل المضطجعة على حواف التلال النائمة على كفي. اختفت النجوم والقمر وألوانهما وعيدهما وبهجتهما. رحت ارتحل موقناً أن البعد بعيد, ارتحل من لهاثي إلى لهاث بعيد, إلى لهاث يطاردني. أبحث عن ملجأ, طاقة أمل استند عليها, أحكي فيها عن هواجسي وهوسي وإحساسي بالانقطاع والانقلاع من الجذور.

لأول مرة أرى الموت أملاً ورغبة وحقيقة واقفة أمام عيني.

حاولت النوم, لكن غرفة الليل طويلة, تمتد وترتد على جسدي المتسكع على أبواب الغربة. لم يستطع النوم أن يأخذني إلى مملكته, إلى مأدبة الوجود. بقيت روحي ترنو سارحة, ترفرف مع الدهشة والقلق. حاولت الرحيل, الهجرة فوق جسور الصمت إلى الصدى الآخر, انوس بخفوت منعقد اللسان, امشي فوق الشهقات على كفوف القدر, على الأخاديد المملوءة بالنتوءات. لم أنم تلك الليلة الليلاء, خطواتها نبع من غابات اللهاث.

لم أكن انتظر شيئاً سوى تمرير فرص الخيال إلى النقائض, انقل النجوم المنقوشة فوق مئزر الليل إلى موضع آخر.

يا إلهي كيف يمكننا أن ننام على هذا البيتون الأحمق, في هذه الجَّبانة, المضطجعة على كتل البرد القادمة من زعفران

الشتاء والليل, من كانون المشتعل بالهيجان.

كل عشرة دقائق ينهرنا العسكري الذي على السطح, يمطرنا بالشتائم, يسرق منا رقصة الحلم بالشرود إلى الحلم الآخر. صراخ الشرطة وزعيقهم, عوائهم ونباحهم يستمر طوال الليل/ طوال الليل ينبحون, عوعو.. عوعوووو/. يبقون مستيقظين يدورون ويراقبون المهاجع وأنفاس السجناء, من أجل الإجهاد عليها وتدميرها وتخريبها من الداخل. دورياتهم تبقى سهرانة ومنشغلة على الدوام في إبقاء أعصاب السجناء مستنفرة ويقظة طوال الإحدى عشرة ساعة. كل عشرة دقائق يقترب العسكري من الشراقة, يدق على شباكها المعدنية المصنوعة من قضبان فولاذية محلزنة بحذائه القاسي والقوي, ويصرخ, ماذا تفعل يا ابن الشرموطة, يا ابن القحبة. يكرر, هل لديك أحد في المرحاض, هل الجميع نيام, هل لديك شيء تريد أن تبلغ عنه.

لا اعتقد أن السجين في تدمر خلد للنوم مدة نصف ساعة متواصلة. الحلم بالنوم حلم وردي بعيد المنال, أمل يصعب الوصول إليه. الأعصاب مشدودة, الحواس في حالة استنفار تام, أسوار الأذن منتصبة, مشنفرة, مشدودة التيقظ, متجهة نحو قدم الشرطي, حركته على السطح, تنقلاته, محل طرح الكثير من الأسئلة, هل هو في محرسه؟ هل هو فوق الشراقة؟ ماذا يفعل الأن؟ هل يراقبنا؟ هل سيجلدنا في الصباح؟ هل يكتفي في رؤيتنا نياماً؟ هل سيتركنا لشأننا ويذهب؟ هل يهم في الذهاب إلى الرحيل؟ هل سيدق على الشراقة أم يكتفي بوضع قدمه على القضبان المحلزنة؟

يزداد الوجع والخدر لرجلي وجنبي الذي استند عليه. آه لو أستطيع أن أقلب قليلاً, لو يذهب الشرطي إلى مكان آخر. أتمنى لو أسمع صوته, صوت حركة حذائه حتى اتنفس قليلاً. البول يحاصرني, كيف

أفعل؟ ماذا أفعل؟ كيف ساجتاز هذا الوقت العصيب؟ هل لدي القوة والصبرعلى التحمل؟ أنا متعب من الاستلقاء الإجباري, إلى متى أبقى هكذا؟ أتخيل الناس في بيوتهم كيف يذهبون إلى المرحاض بحرية كاملة دون أن يراقبهم أي إنسان, دون أن يحصي أنفاسهم ودموعهم. أبقى في مكمني أراقب أنفاس الشرطي, الدررالرخيصة التي ستخرج من بين شفتيه النتنة. آه.. إنه يمرر قدمه على القضبان, يلعب بهم, يدق قليلاً.. قليلاً, الآن سيشتد الخبط, لا لن يخبط. يخبط بقوة ويزمجرعلى السجين المناوب من أجل إدخال المزيد من الخوف في قلبه وقلوبنا, يزداد قلبي خفقاناً, إلى متى سيستمر هذا الوضع على هذا المنوال. أحلم بالحرية, أحلم بها طويلاً, ما أجملها, ما أحلى أن يعيش الإنسان في بلد آمن وحر, لا توجد فيه أحذية كبيرة.

لكم تمنيت أن أعيش في وطن يكف الحذاء العسكري أن يقرر مصيرنا.

تناوب كل واحد منا ساعتين في هذا الجب. كنا أشبه بجثث ملفوفة باكفان مرمية على أرضية هذا المخزن الكبير, منتظرة قدرما يدفعها إلى مصير آخر.

الضوء المنبعث من اللمبة الصغيرة كان خافتاً للغاية.

في الصباح, في الساعة السابعة صباحاً استيقظنا مشوشي الذهن, متعبي الجسد.

رحنا نمشي مع بعضنا داخل المهجع لإحساسنا أن العالم كله اختصر في هذه البقعة التي نعيش فيها. نتكلم على غير هدى. لا نعرف ماذا نفعل وماذا يخبئ لنا هذا اليوم وغيره من مفاجآت. دخل عمر الحايك إلى الحمام وراح ينظف الدورات من الأوساخ المرمية في داخلها. فتحنا الحنفيات المصنوعة من الحقن/السرنكات/ فتدفق الماء المأكسد المسترخي مدة طويلة داخل الأنابيب القديمة. طوينا الفرش ووضعناهم على طرف الجدار. لم نستطع أن نأكل لقمة نتيجة القلق والترقب. لم يكن في ذهني أية فكرة على أنهم سيعذبوننا مدة طويلة. كنت أقول لماذا يعذبوننا؟ ماذا فعلنا؟ لا شيء يستوجب هذا الفعل؟ المسألة لن تتعدى بضعة أيام أوشهرثم يعيدوننا إلى سجن عدرا في دمشق. لقد قفزعن ذهني الحقائق الماثلة أمامنا, حقائق مرسومة بقوة أمام الجميع. لقد قتل هذا النظام ودمر مدن لسبب أقل من ذلك, لماذا لا يقتلنا أو يعذبنا؟ ما الذي يمنعه؟ الاخلاق مثلاً! هذه مسألة بسيطة, السلطة لا أخلاق لديها ولا ضمير يحكم سلوكها, أما عن الردع, فمن يردعه؟ الشارع مثلاً, مجتمعنا! هذا أيضاً لا يدخل ضمن حساباته وهواجسه, الأمريكان والأوربيون كانوا وما زالوا يباركون سياساته الداخلية بالمطلق. المهم تحالفه المبطن مع اسرائيل وتنفيذ سياسات الأمريكان الخارجية سواء في لبنان أوالشأن الفلسطيني أوالعراقي, المهم إدارة لعبة المنطقة مع الكبارباقتدار دون ان يضر بقواعد اللعبة في إدارة شؤون المنطقة بما يضمن نتائج إيجابية للراعي الأمريكي.

إذا نحن بيديه, يفعل بنا ما يريد ويرغب.

في الصباح في الساعة التاسعة تماماً, فتح الباب بهدوء, مط العسكري أوالشرطي رأسه وقال بهدوء وأدب مختلس, ليخرج الجميع إلى الباحة مع الحقائب.

حملت حقيبتي وخرجت. في نظرة خاطفة, رأيت باحة يمتد طولها إلى حدود الخمسة عشرة متراً وعرضها بحدود الثمانية أمتارمملوءة بأعداد كثيرة من الشرطة العسكرية بكامل لباسهم الميداني, البيرية الحمراء والبوط الملمع والثياب الخضراء المكوية والنظيفة. كانوا في حالة استنفار كامل, كأنهم على بعد خطوة من حرب عظمى. قال أحدهم, قف بجوارالجدار, وجهك نحوه, لا تلتفت نحو اليمين أواليسار. كنت أول من خرج وإلى جانبي محمد خير ثم مازن علي شمسين وهكذا دواليك إلى أن خرج الجميع. ردد آخر, ليبقى رأسك في الارض. صيغة موجهة لنا جميعاً.

بعد أن وقفنا ووجهنا نحو الجدار وظهرنا نحو الشرطة, ساد صمت مكتمل. لم اسمع أية حركة أو كلام, كأن الباحة خالية تماماً. ما هي إلا لحظات حتى رأيت يداً قذرة حطت على أعلى كتفي, جرني إلى مأدبة غريبة. قال, ضع الحقيبة على الأرض, ثم أردف, أفتحها. فتحتها ووضعتها أمامهم. امتدت الأيدي القذرة إليها وراحوا يخرجون ثيابي وأشيائي الخاصة الموجودة فيها. ثيابي الداخلية, حذائي,

سواربنطالي, لوحات نحاس, صور أبي وأمي وأخوتي البنات وأخي. راح الشرطي يفتشها ويرميها على الأرض المملوءة بالحصى المدببة والرمال الصغيرة والتراب الناعم. ثم طلب مني أن انزع ثيابي كلها من على جسدي, وانزع حذائي وجواربي من رجلي. وقفت بينهم عارياً تماماً كما خلقتني أمي في ذلك البرد القارس, خجلاً من نفسي ومن زمني, لا أعرف ماذا أفعل. إلا أن رعباً غريباً وغربة غريبة تسللت إلى نفسي. قلت, ماذا يريدون منا, كل شيء يسير بسرعة هائلة, لماذا يريدوننا عراة في هذا الصباح البارد, على هذه الحصى المدببة. لم يكن في المكان إلا صدى الهواء والريح وهما يلسعان الجدران والجسد الممدود. الشرطة منتشرة في المكان ومعهم خدمهم من البلدية/ عسكريون فارون من الخدمة العسكرية تقوم بخدمة الشرطة مجاناً/. تصدمني دائماً كلمة, وطي رأسك في الأرض يا ذليل, لا ترفعه على الأطلاق.

المكان بغيض وكريه, غابة مملوءة بالوحوش, واقفة, تريد أن تلتهم كل ما يقع بين يديها وفمها. شيء ثقيل يرزح فوق صدري في مكان موحش, بارد, خلق ليزحف إلى قدمي ويصعد إلى شفتي ووجهي. الصمت طائر ثقيل يرفرف هبوطاً فوقي. يبدوأن الشرطة في حالة استعداد تام في حضرة رتبة كبيرة, خلق حولنا حالة دوران دائري مزنر بالخوف. كلهم يرزحون تحت حذاء الأوامر. قال, أحمل ثيابك, وأدخل المهجع. حملت حوائجي وسرت. لقد صادروا الحقيبة والصور واللوحات والسوار, تركوا الثياب فقط.

بعد أن أخذوا غيري, بقيت واقفاً على الجماد الجامد, على البرد المصمط, شعرت بالاندثاروالهلاك والرغبة بالإقياء, منتظراً عما ستجلوا عليه الأمور. بعد أن انتهوا من تفتيش الجميع. قال أحدهم, دع كل شيء في مكانه واقترب. أبقى عارياً, وجهك بأتجاه الجدار. يد رشيقة, يد قوية, امتدت الى فروة رأسي وقادتني الى وسط الباحة.

لفتني حلقة دائرية من الشرطة والبلدية وعزلتني. رأيت الإطار الخارجي للسيارة على الأرض/دولاب/ بجانبه الكثير من الكيبلات المطاطية السوداء المصنوعة من إطارالدولاب الخارجي للسيارة بالإضافة إلى قسطل من الحديد المحلزن فيه مرسة غليظة مرمية على الأرض. قال كبيرهم بلهجة أمرة وحازمة, انبطح على الأرض.

انبطحت على الأرض العارية عارياً تماماً, أصبح جسدي مشدوداً ومستسلماً, على الحصى المدببة والرمال الناعمة.

بهدوء وثقل مررت قدمي الى الأمام ورفعتهما الى الأعلى كما أمروا. قال, أدخل في الدولاب, بعد أن دخلت وثتبوا جسدي قال, أرفع قدميك الى الأعلى بشكل جيد, قربهم من بعضهم. بعد أن صارت أقدامي إلى فوق, تحولتُ الى شكل حرف U بالإنكليزية, كتلة لحم معجونة داخل الدولاب المطاطي. رحت اهجس داخله, أكاد اختنق, قفصي الصدري يلتحم بأفخادي, الهواء يحتبس داخلي لا أستطيع أن أزفره, كما لا أستطيع استنشاق الهواء المتجدد.

بقي الصباح مسبلا جفنيه على مائدة الكون, يمشي في دورانه الهادئ, يجدف ويبكي منزويا عند جدع الأفق.

ازداد الارتباك والإرادة المأسورة في داخلي, مصلوباً, مرمياً تحت أقدامهم.

جسدي مستنداً على فقرة واحدة أو فقرتين من عمودي الفقري, الحصى والرمال تلتصق بي وتدخل بتأن وهدوء الى ظهري دون مقاومة. شعرت بالوخز الجارح, سكاكين حادة تدخل بتأن من المكان الذي تريد, معجوناً بالوحل على الأرض الموحلة, جزءاً من المكان الشرير.

الرياح كامدة في مكانها, لا يسمع منها إلا صفير منفر, تضرب الجدران العالية وترتد على نفسها على شكل صوت حزين, لتعود إلي محملة بالثقل.

كنت مكبلاً لا حول ولا قوة, حولي دائرة من الشرطة, وضعوا المرسة الغليظة المربوطة بالقسطل في رجلي إلى أعلى الكاحل. ثم راحوا يلفونها, ويشدوا عليها بقوة من أجل أن يثبتوا الأقدام في الهواء, حتى

لا تتحرك. قرصة المرسة وحدها كافية أن تنزف الرجل. بعد بضعة ثوان بإشارة من كبيرهم تغير كل شيء.

اثنان من الشرطة, كل واحدة بيده كيبل طويل يصل إلى المتر وعرضه عشرة سنتمترات وسماكته واحد سم تقريباً. من أول كيبل على قدمي أحسست بسيالة عصبية حارة تسيل في لحمي أومثل سيخ محمر يخترق جلدي. قلت, آه ما هذا, نار تشتعل في قدمي, ثم رحت في غيبوبة مفاجئة, ملفوفاً في ظلام دامس. تحول الغلاف الدائري للأرض من اللون الأزرق الفاتح الشفاف الى اللون الرمادي المسود.

كنت اتنفس بصعوبة بالغة, صدري يخرخر وينشج, حشرجة وراء حشرجة. ما هي إلا لحظات حتى تغيرت أشياء كثيرة داخلي, صارت أقدامي كتلة ملطخة بالدم والوحل والتراب, التقرحات منتشرة في كل موضع من جسدي. يشاركني البرد في زيادة اللون الممتقع باللون المزرق, في صوتي أنين مبحوح.

لا أعرف كيف انتهى الضرب والجلد, كما لم أعرف كيف فكوا وثاقي أو متى نزعوا الدولاب من حول جسدي والمرسة والقارس من حول كاحلي. لم أعرف متى انتهوا مني أومتى تركوني لشأني, لجراحي العميقة. بعد الضرب لم يعد احدهم يعرني أي اهتمام, تركوني مرمياً على الأرض تحت أقدامهم. علمت بعد حين أنني وحدي, أئِنُ مع جنون الألم المتسلل إلى حواسي كلها, مفروشة الزاد على مساحة الأهداب الدموية النافرة من جلدي المشروخ. كان هذا الجنون قريباً مني, نائماً على فوهة بركان راقد، في لحظة استنفاره, في لحظة تحفزه، ناشراً القشعريرة الموجعة فوق وسائد الحيرة ومواقده.

لم يبق مني إلا صوت الأنين الممزق الخائر. أنين مبحوح, مخنوق. أنين رخو وضعيف يخرج بشكل متقطع من حنجرتي بخواء متعرج ناء. حواسي كلها مشدودة إلى هذا الطيف اليقظ القادم من الوجع والألم.

بقيت مسمراً في مكاني كالتائه السكران، لا يعرف ماذا يفعل، ولا يستطيع الحركة والمشي. لم أستطع أن أقف على قدمي. كانت أقدامي في حالة خدر غريبة, تنمل, كأن ملايين من النمل انزلقت بغتة عليها، جاءت على شكل أسراب مرفرفة من مكان ما واستقرت في عقبها. أحسست أن الطبقة السفلة منها لم تعد ملتصقة بجسدي، كأنها قطعة لحم مفصولة عني. جلست على مؤخرتي لا أقوى على حمل نفسي, كل شيء فيّ يرتعش. حاولت أن أمسك قدمي لكني لم أحس بها. كانت قواي خائرة تماماً. لم أكن أدري أن جسدي لديه كل هذا المخزون المخبأ من الألم وهذه القدرة على اختزان الوجع ونشره في كل مكان مني

لم أستطع المشي, رحت أزحف على مؤخرتي، منعكفاً مرة داخل روحي المتعبة، وأحبي مرة أخرى، متكئاً على يدي وركبي. أمد إحدى ركبي إلى الأمام مستنداً على راحة يدي ثم أتبعها بأخرى، بينما أقدامي في الهواء لا أستطيع تركها تلامس الأرض من كثرة الألم. بهدوء.. قليلاً قليلاً، أمد الخطى على الركب، فتتسلل الرمال الناعمة المذببة إلى جلدي, تتسلل من الأطراف النافرة، لتستقر في طيات جلدي.

في مسيرتي الطويلة، اسمع صوت أنيني كموسيقا مهتوكة الأوصال، مرمياً على بيادر صدئة. صوت يرتطم بالجدار فيرتد علي. أتابع مشواري, الهث وأتاوه, لكني أتابع بالرغم عني. تابعت سيري الطويل إلى أن وصلت إلى قرب الجدار. بهدوء, وهدوء, بهدوء وتأن, رويداً, رويداً مددت أصابعي المرتجفة على الجدار, فرشتهما ببطء وتركتهما يتعرشوا كشجرة مكسورة القامة، متمايلة الأغصان والفروع, متهالك بتمامه, لكني أريد الوقوف. استندت على الجدار الأخرس، ثم فرشت يدي المرتعشة عليه. في البدء رحت أتحسس قدرتي, قدرة جسدي على حملي. بدأت ارتقي قليلاً قليلاً في محاولة البقاء واقفاً، لكني لم أستطع. عدت ثانية للجلوس على مؤخرتي أنقب الرمال العالقة بين، وفي الجراح في عقب قدمي وداخل اللحم المهروس.

أسئلة كثيرة تتوارد في خاطري في تلك اللحظات, تبقيني في حدود السوداوية والصمت المطبق, رحت أقول للزمهرير والصدى والهواء:

آه.. آه يا أماه, لماذا أنجبت مولودك في بلاد الوجع والضياع. أية سعادة كان يحملها قلبك بين كفيك حين حلمت بمولود تنتظره المواجع. أنت تعرفين أن بلادنا بلاد عابرة للمتاهة والسراب, والقوافل الراحلة, بلاد مفتوحة على الريح والضباب والموت المنقوش على السلالم المعوجة والأغصان المكسرة. بلاد مفروشة على أكوام العواصف والهبوب المتناثرة المرمية هنا وهناك. لماذا كنت تظنين إنني مولود من الحب, أين كنت تريدين أن أقف, على أي رصيف من أرصفة العمر, في أية لحظة من لحظاته سأقدم كقربان مدمس, مسفوح الدم ومهتوك الروح والقلب مثل سنبلة جافة. هل كنت تعلمين على أي قربان كنت سأمدد, إذا, لماذا بقيت يداك مرفوعتان إلى السماء تناجي أن يخففوا عني استباحة دمي أمام أقدامهم. كنت تعلمين يا أماه أنني ولدت على الجمرالمشوب بخضرة عينيك.. أشتعل بينهما مطوق الساقين والقلب, إذاً.. لماذا كنت تبكين ما دمت تعرفين إننا قرابين منذورة للسماء والماء والأرض والتراب كما للطلاسم والظلمة السكرانة والضياع.

وقتها, أحسست أن جذوري مقطوعة وأنني في مهب الريح. بقيت مسمراً على الأرض، أفتح فمي على وسع، استنشاق المزيد من الهواء، اشهق وازفر دون إرادة مني. أحاول أن أرمم النفس الغائرة في البعد. لم أعد أحس بالعالم المحيط بي. نسيت رفاقي وأصدقائي الذين ينتظرون وجبتهم المرصوفة على عمامة الصباح الباردة في انتظارموقد النارالتي ستشتعل في وهاد أجسادهم الغافية. حالة أشبه بالغثيان والهذيان المكثف، غلفتني، تركتني بعيداً عن حالة الوعي.

استدعيت لحظات الهم قافزاً. قلت, كنت في مضافة الوجع, غريباً, لم أعد أحس بالانتماء إلى شيء إلا إلى الألم.

تركوني وحيداً, لم يعد يلتفتوا إلي، مضوا ينشغلوا بغيري. عندها كان الصمت ثقيلاً, زوبعة من الصدى النافذ حركت ذاكرتي التائهة أعادتني إلى جدول الحياة.

في استقالتي عن الأشياء المحيطة بي, في استلقائي على الأرض المتعبة، رأيت الجلاد وجه في وجوه متشابهة.

في هذه الأثناء فرت العصافير من هذه السماء إلى أطراف أخرى من عمارة العالم. بالتأكيد أنها تزقزق في مكان ما، تطير بعيداً عنا، تسخر من الألوان الداكنة والوجوه الرمادية النافرة في بلادنا. ربما تمرمن حولنا، لكنها لا تحط على أشجارنا وجداولنا. تطير في أهداب السماء الواسعة، تسرح ترحل إلى مكان انزلاق الضوء الشفيف والألوان الفضفاضة والمبهجة من أجل إعلان بوحها للفضاء الواسع والجمال والتمدد.

فتحت فمي مرة أخرى من أجل تمرير غروية الوجع وحرارته عبر اللسان والفم, أحّسست بالوحدة للحظات وبالحرية أيضاً. قلت لنفسي, لقد ثملوا مني, شبعوا, لن يهتموا بي، لهذا تركوني، لينشغلوا بغيري. لاشيء يشغلني الأن إلا البحث عن استراحة الألم التي ترافقني وتبحر في مرافئ حياتي. وجهي يلاصق كياني، مرتقياً سلالم المنفى والغربة.

حملت نفسي المتعبة كانبعاث ميت, كأمتعة ثقيلة، منطوياً على نفسي، كصرة مصرورة في كيس صغير، ملفوفاً من كل الجوانب. سرت بعيداً, رحت أهرب وأهرب, نسيت كل شيء, الكون والعالم ورفاقي والشرطة. تحولت إلى طائر فينيقي طليق، يحلق فوق أجنحة العالم، يلامس أتون الدم، كأفعى جريحة. عدت ثانية إلى المكان المحاط بي، كأنما أفقت من حلم املس، اتلمس لفائف بقائي على الأرض الباردة. أبلع ريقي الجاف ممعناً النظرفي الحرارة الصاعدة من لهيبي, من النار التي تلفحني من كل مكان, مسمراً في طرق الارتعاب، متخذاً تعابير متناقضة. وبنظرة خاطفة وسريعة كأنها البرق, دخلت وديان اللاشعور مني فوجدت بقية رفاقي وقوفاً على موازاة الجدار، رؤوسهم وعيونهم مطرقة في الأرض، خائفون، يسمعون ويصغون إلى صوت الكيبلات وهي تلسع أحدهم. أنهم ينتظرون مصيرهم الذي لا فكاك منه, كل واحد ينتظر عبوره إلى الضفة الأخرى بفارغ الصبر. شعور صعب وقاس ومؤلم للغاية.. انتظار لسع البرق على الجسد الأعزل, لحظة تساوي دهراً, تبقى الأعصاب ساهرة, يقظة, تراقب أدق التفاصيل. مع كل كبل ينهال على القدم، يرافقها انكماش واستنفار كامل.

ربما لا أحد يعرف هذا الشعور المتعب والمرهق إلا الذي جرب القذى والمرارة.

بالتأكيد, دقات قلوبهم تتسارع في صدورهم, متحفزون، يشربون الصباح البارد مراً كالعلقم, مراً كومض كئيب, ومض ثقيل.

كان بجانبي رفاق وأخوة وأصدقاء, قضينا مع بعضنا في السجن، زهرة أعمارنا، سنون طويلة، نعرف بعضنا في أدق التفاصيل. نعرف مشاعر الخوف أوالحب أوالكره التي تنتابنا. لحظات الحزن أواليأس أوالقهر التي نحس فيها لفقد صديق أوعزيزأو أب أو أم أو أخ. كنا مع بعضنا أقرب من الأهل لبعضهم لأننا كنا في محنة واحدة قاسية وأليمة. رحلة كفاحية طويلة ضد الاستبداد والحكم الفردي الكريه. عندما كان يجلد أحدنا، أو يضرب على وجهه، نحس بسيول الوجع تتشبث بصدورنا وأفئدتنا.

الجلاد، هذا الصنم الجاثم على قلوبنا, سارق الجمال والحرية والدفئ من أيامنا ولياليناِ, لا يميز بين زيد أوعبيد من الناس, كل معارض لسلطته الداشرة هو عدو, لا فرق لديه بين مسيحي أو مسلم, شيعي أوسني, درزي أوعلوي, الجميع أعداء إلى أن تثبت براءتهم, أليس هو أول من قال, من ليس معنا هو عدونا.

هناك على مقربة بسيطة مني، رجال مطويو العزيمة، مكبلون، يخلدون للصمت الجرار، يحيون في أقسى الظروف من أجل أن يحيا الإنسان كإنسان, يدفعهم الغضب من الحاضر المرللعمل من أجل مستقبل أفضل. كل واحد لديه دزينة من المشاكل الصحية، نتيجة المدد الطويلة في السجن. كلهم واقفون بوجوم على الجدار في انتظارالانتظار.

بقيت في مكاني فترة طويلة، منتظراً أن يفرغوا من جلد رفاقي وأخوتي، مستظلاً بالصمت المقيد والساخر، ساخراً من روحي المتيقظة, المتململة, المغلوب على أمرها. اختلس النظر لما يجول حولي من شعور غامض, شعور مغلف بالتوتر المقلق الذي يداهمني بين البرهة والأخرى.

أخذ خدرالألم الممهور بالوجع يجري من الأسفل الى الأعلى, يبدأ من القدمين الثابتتين، يجري الهوينة.. الهوينة الى الساقين، يرتفع ويمتد إلى الركبة فالفخذ ثم إلى أن يتجمد في المفاصل. يأخذ الدم فسحته، درزته البطيئة في التخثر، يسير في حركة جريانية ثقيلة عبر الأوعية الدموية المتقدة.

تمايلت قليلا، ثم حاولت مرة أخرى أن أقف على قدمي. استندت على شاطئ الجدار المائل بكل قواي، فارشاً راحة يدي عليه, رحت أحرك قدمي ببطء شديد من أجل تمرير الدم ونقل كميات الألم إلى مطارح أخرى من الجسد والبحث عن أماكن أخرى لتبديده.

قال الشرطي سليل اللصوص وقطاع الطرق بلهجة قاسية وأمره, قف مكانك يا حشرة! وقفنا بذبول أخرس، موزعي النظرات الذابلة. بعد أن انتهوا من جلدنا, حملوأمتعتهم وأدوات عملهم المغموسة بالدم ومضوا. عاد صوت آخر يقول, ادخلوا إلى المهجع بسرعة يا قردة.

تمايلنا يميناً وشمالاً، سرنا باتجاه المهجع، ننثر الرمال والحصى برؤوس أصابعنا، ندوس عليهم متجاوزين حرارة البرد, نركض تحت ثقل وطاة الخوف الذي يشدنا إلى طريق الرحيل. ما أن دخلنا حتى أعاد الكرة مرة أخرى, عصب عينيك جيداً يا أبن الشرمومة, شتائم.. وشتائم. ثم قال, لا تتحرك من مكانك.

رحنا نعصب أعيننا بالأقمشة المتوفرة لدينا. عاد الصوت ساخراً, أسرع من هيك يا أبن المنيوكة, أحمل ثيابك وفراشك على ظهرك وتقدم إلى الأمام, إلى عندي, أسرع من هيك يا ابن المنيوكة, أسرع من البرق يا ابن الشرمومة.

حملنا أمتعتنا, الثياب المرمية على الأرض، الأحذية واللحف والبطانيات والعوازل على ظهورنا. كان الوقت صباحاً منهمراً على الدنيا كندف الثلج، يجر وراءه سمت الشرق إلى أعالي السماء، ليحطها في الغرب، من أجل دحرجة الزمن الى الفلك الآخر.

وكانت الشمس أكثر وحشة وخيبة.

صارت أحمالنا مضاعفة, نلهث من الألم والوجع. عاد الصوت الخشن يخرش مسمعي, رأسك في الأرض, أبقيه في الأسفل, لا ترفعه على الأطلاق يا ابن الشرمومة. لا تلهثوا, لا تتململوا, لا تصدروا أي صوت, أمشي يا ديوث ابن الديوث. ترافق هذا الصوت النحس مع الضرب المبرح. لقد تناول الضرب، كل مطارح الجسد. أمشي يا ابن الشرمومة, لا تتثاقل في الحركة، لست في رحلة سياحية أو استجمام, لست في حضن أمك. بينما ينهال الكبل على الظهر، يرتفع الصوت من مكان آخر، من شرطي مجاور, سنخرب الصوت الكامن في حلوقكم، لتجفوا وتموتوا وسط صمت أنينكم. صوت شرطي آخر يلعن بثقة وثبات, أمطرهم بالبصاق.

مع كل خطوة على الرمال المدببة يصدح الألم في رأسي ويثور ويطلق العنان لحواسي بالاستغاثة. روابي اللحم تطقطق تحتي وهي تمط الخطى السريعة عبر مصادمات مهتوكة مع الحركة والثقل والوزن الزائد.

كنت أرمي قدمي على غير هدى، أسير على جراحي النازفة. تكبر مساحة اللحم المهروس وتكوى من صفيح النار الحامية القادمة من تلال الأرض المعوجة والنافرة، تدخل الجلد كالأبر المدببة. الجسد يندفع في سيرانه تحت ثقل الخوف غير أبه لما يحدث في الملمات في الأسفل. الذهن مشحون ومسمراليقين، راحل إلى مطارح أخرى، يركز على الكوابل وهي توسع فجوات الأماكن الأكثر لهفة من أجل الهروب من الضرب على الرأس والرقبة والوجه المغطاة بالطماشة. نتمايل ونتأوه ونندفع ونكمل الرحلة إلى أن ساد صمت خامد، طويل.

الباب يغلق الآن, صوت المزلاج يطق, طق. طق مرتين. المفتاح يخرج من القفل بتأن, الباب مغلق ومقفول, صوت الإغلاق ينذر بأننا في الزنزانة من جديد. قال أحدنا, نحن في مهجع جديد, نحن أحرار إلى إشعار آخر. ضعوا أحمالكم على الأرض, وارتاحوا قليلاً قبل أن يتفتق ذهن الأوباش عن شيء جديد. ثم أردف, لنستفد من هذه المساحة الصغيرة من الحرية المسافرة، نلبس ثيابنا، نداوي جراحنا، أمراضنا والرضات التي خلفها القارس والدولاب، والبرد والأكبال.

وضعت أحمالي على الأرض ورحت أتنفس مثل غيري الصعداء. مشى كل واحد إلى جانب أغراضه المرمية، فتش عن حاجياته، أشياءه الخاصة المكومة فوق بعضها البعض بشكل مبعثر. أخذ كل واحد منا زاوية وراح يلبس ثيابه.

تبدلت ملامح الوجوه بسرعة كبيرة, صار لها لون غريب!

أسندوا حكمت وصفوان وبكروعبد الكريم رؤوسهم وظهورهم إلى الجدار، مدوا أيديهم إلى الأمام، في حيرة وحسرة وتعب. تنفسوا بشكل متقطع, الشهيق والزفير من الفم بسرعة، نظروا إلى الجدران القريبة من العين, إلى الحجز العالي. دخل عمر ومازن إلى الحمام, فتحوا الحنفيات الصدئة والماء الصدئ، والمرحاض الأزلي.

لملم كل واحد ثيابه في زاوية، وراح يصرها كبقجة بعد أن صادروا الحقائب، باستثناء الحذاء والجوارب والألبسة.

مساحة الحرية ضاقت, اختصرت بالشراقة/ الفتحة في السقف/.

من هذا المكان ستكون علاقتنا بضوء الشمس وضياء القمر، الهواء المتجدد والقديم، الهدوء والضجيج، الخير والشر، الحياة وأسرارها، بؤسها وجمالها. من هذه الفتحة سينفث السلطان سمومه وسطوته, لسانه السليط علينا. من هذه الشراقة اللعينة سيلتقط أحدنا، يلسعه ويدس سمه فيه، يكزه ويزرع كلاباته في قلبه وروحه ثم يعيده ويتراجع بعد أن يكون قد حرق كل ذرة جميلة فيه. سيهز الأرض والسقف بقدميه، سيدق السطح ويهز الجدران ويزلزل المكان.

قال حكمت، الشمس تختفي وتعود، علينا أن نفعل شيئاً مفيداً.

رحنا ننظر في وجوه بعضنا البعض بعد التغيرات الجديدة التي حدثت علينا بين ليلة وضحاها. القسم الأكبر منا لم يستطع أن يلبس الحذاء لأن الأقدام تورمت ولم يعد يتسعها الحذاء القديم كما أن سيالة الألم لم تسمح بالتمدد داخله. لهذا بقي الكثير منا فارداً قدميه أمامه إلى حين يهدأ الورم قليلاً.

لنفعل شيئاً! قالها أحدنا مرة أخرى، ثم مشى على أطراف قدميه إلى أن وصل إلى السجائر, مد يده إليها وأشعلها.

كنا أشبه باستراحة محارب مهزوم ومتعب, كل واحد مستنداً على الجدار في زاوية لا يقوى على حمل جسده. قال, هل تتوقعون أن تكون معاملتنا بهذا السوء طوال السنوات القادمة في السجن. أجاب آخر بطريقة حاسمة, لا تحلم في ظروف أحسن على الاطلاق. أنا أعرف هذا المكان.. هذا السجن! أعرفه من خلال رفاق لنا سبقونا إلى هذا المغطس المغمس بالقيح. ستبقى الصور المخيفة والمبعثرة مدفونة بيننا إلى حين رحيلنا من هنا, هذا إذا رحلنا! سنبقى في هذه الإتجاهات المرعبة، تحت سطوتهم. الأمر سيطول، يجب أن لا تتوهموا غير ذلك.

أعرف أن في داخلي ألف شيطان رافض, جني كبير، سعدان نشيط وحيوي، يرقص ويقول لا.. لا, لكن حقيقة واقعنا المرأصعب وأقسى من رفضي لشروطنا القاسية. تلك الشروط، جعلتني أشرب مرارة العلقم بالرغم مني.

قوة السجين السياسي، صموده في السجن، يأتي من مجتمعه، محيطه, هي التي تمده بشروط البقاء على قدميه سليماً معافىً.

على المصطبة الشاحبة لمضافة الوجع، أتكأت وجوهنا على الضوء الخافت القادم من سياج الأفق البعيد، زارعاً نوره الباهت على ملامحنا المحملة بالتوجس, كل رجل متكور على ذاته, غارقاً في نبش مراميه من أجل الإنصات للصمت. أحد عشررجلاً يحاولون الغوص في الحديث بحذر وقلق.

الأيدي المتحررة من القيد والزرد المؤقت تتحرك في الهواء بمرونة. البعض استند على الفراش فارداً قدميه إلى الأمام، والبعض الآخر جلس على مؤخرته، والبعض جثا على ركبته أو حبا على ركبتيه ويديه أو دخل إلى الحمام. قسم منا راحوا يعرجوا ويمدوا أقدامهم ببطء شديد, على الأطراف والزوايا التي لم يصلها الكبل, فتحوا الحنفية، فتدفق الماء ذي اللون البصلي المأكسد. تركوه مفتوحاً إلى أن تحول إلى اللون العادي المثقل بالكلس. وضعوا أقدامهم تحت الماء البارد المتدفق من الحنفية من أجل أن يكوي الجروح ويوقف سيلان الدم.

الماء ملوث وغير معقم. الكثير منا أصابه الإسهال الشديد من جراء ذلك.

خبط الشرطي على الشراقة بقوة, وقفنا جميعنا بصعوبة بالغة, كأننا في حالة خدر كامل, قال, من منكم رئيساً للمهجع.

لم نجب، لم نكن ندري ونعرف ماذا يعني كلامه. بقينا صامتين، لم نتكلم. كرر الشرطي كلامه، من منكم رئيساً للمهجع. قال صفوان, لم يعينوا لنا رئيساً للمهجع. لم يعلق الشرطي, قال, اسم مهجعكم, المستوصف. ثم أردف مرة ثانية, المستوصف! هل حفظتم الإسم يا أولاد القذرة. وقال, هل لديكم ماكينة حلاقة, هل أعطوكم ماكينة حلاقة. قلت, لا.. لا ليس لدينا ماكينة حلاقة, لم نحصل عليها بعد.

غاب الشرطي مدة قصيرة, ما أن هممنا في الجلوس على المصطبة حتى عاد وخبط مرة أخرى على السطح. قال, هاتوا البطانية بسرعة يا أولاد الشرموطة, تحركوا بسرعة يا أولاد الوسخة. هل أنتم في مضافة أمهاتكم، اركضوا بسرعة قبل أن أنزل عليكم وأعمل بكم ما لم تسمعوا به. بعد أن جلبنا البطانية. قال بصوت جهوري, افتحوها. رمى الماكينة اليدوية عليها ثم مضى قائلاً, يجب أن تحلقوا الشعر والشوارب والدقن على الصفر. هل فهمتم يا أولاد القحبة, يجب أن تحلقوا كل شيء اليوم, قبل أن يودع النهار مواويله. يجب أن أراكم مثل الحقول الجرداء, ضعوا مؤشر الماكينة على الصفر، ليحلق كل واحد منكم رأس وذقن الآخر. كنا وقوف باستعداد تام، رؤوسنا منكسة وجذوعنا منحنية. ثم قال, أعذر من أنذر.

مضى الشرطي إلى سبيله وتوزعنا على محيط المصطبة للمهجع.

صوت خطوات أقدام الشرطي تطقطق السطح والجدران, حركة حذائه تنتشرعلى محيط السقف لمهجعنا والمهاجع الأخرى. خطوات ذي رنين قوي، فيها خلاخيل السلطة المجلجلة التي تطرق الأذن بموسيقاها الصاخبة والكريهة. كل خطوة لها رنين، مع كل رنين قرقعة، كل قرقعة تتناغم مع سابقتها التي تسبقها. كنا بدون إرادة منا، نلاحق إيقاع عقب حذائه المفتوح على احتمالات كثيرة ومتعددة.

مشى إلى الزاويا الجنوبية, راح يلقم بارودته أربعة مرات أو خمسة مرات. قال الشرطي متفاخراً وموجهاً كلامه للشرطي الواقف على سطح المهجع الآخر, في جعبتي مئتان وستون طلقة جاهزة للأطلاق. كان يلقم البارودة ويتكلم, كل من تسول له نفسه بالحركة، سأطلق هذه الرصاصات كلها في رأسه. رد الآخر عليه قائلاً, وأنا عندي نفس العدد، بالإضافة إلى الحربة والسكين التي في خاصرتي, لن يفلتوا منا أبداً, علينا أن نكون حذرين منهم.

ثم راحوا يخبطوا على المهجع بقوة, يرقصون أو يدبكون. يمسك أحدهم صخرة نائمة بجانب حذائه، يرفعها إلى الأعلى ثم يرميها على الطرف الآخر من السطح، فيرتج المهجع ويزلزل. يقوم بهذه الحركة بطريقة متواترة وسريعة، ثم يسحبها سحباً ثم يحركها، يجرها من مكان إلى مكان وهي ترتطم بالسطح، فتصر الصخرة صرياً في احتكاكها بالبيتون. الصوت الخشن يكوي الأعصاب ويتلف الخلايا. نبقى في حدود مكاننا، ننتظر بفارغ الصبر، أن ينتهي صاحب المهمة من الأمر، ويصل إلى إطفاء هذه الوهجة الظالمة.

لم يأت الجلاد من قدر عابر, لقد صنعنا الصنم بأيدينا, من متاهاتنا وعمائنا المفتوح.

جلست على المصطبة العارية أتأمل توريقة الجدران المجروحة والمنخورة, ذاكرتي راحت في شرود, جاءني وجه رشا الطفولي البريء، ذات الخمائل السائحة وراء الدمع، نائماً على صفحة خدي ووجهي. لا أنسى ملامحها الغاصة بالشهقات, نظراتها ذات النبرات الخائفة. رشا ابنة أختي, الطفلة ذات الأحد عشر ربيعاً, بطّلتها النضرة، ببوحها النائم على تخوم الخيال، مصفوفة كوردة، كباقة مزينة على هديل الريح، محمولة على سواعد الصباح.

جاءت، تسبقها ثيابها الجميلة المهفهفة, تركض مسرعة، تتطلع، تبحث عن وجهي بين الوجوه المأسورة, تفتش عني، تسرح في البحث عني، من أجل رؤيتي. سنوات طويلة لم تكن قد رأتني, منذ أن كان عمرها ثلاثة أعوام ونصف العام. ما أن وقعت عيناها على عيني في الزيارة عندما كنت في سجن عدرا، حتى ملكتها الدهشة المغلفة بالحيرة والخوف. كان بيني وبينها شباك، حدود وحواجز، مسافات وأزمان, عيناها مشوشتان، وجهها وشفتيها ترتعشان وترتجفان من الصدمة والخوف. ما أن وقفت أمام الشبك، حتى بادرتني بلوعة السؤال المر، والدموع المدرارة تتساقط من عينيها بغزارة وحرقة, تبكي والألم يعتصر فؤادها, مطت رأسها وعنقها الممسوس بالغرابة والدهشة من أجل أن تبقى على حافة التواصل. قالت, خالو, لماذا أنت هنا؟ لماذا وضعوك هنا؟ ماذا فعلت؟ قلت متمتماً، مصعوقاً من رعشة السؤال، فجائيته، فجاجته عندما يخرج من فم طفل صغيرلا يقوى على هضم الكلمات وفهم مردود السؤال, لم أفعل شيئاً يا رشا.

ـ إذاً. إذاً لماذا أنت هنا، في هذا المكان! لماذا أنت في السجن، وراء القضبان، الشباك الحديدية المحلزنة ذات الثقوب الصغيرة المقطعة. قلت في حيرة وحذر:

ـ الحكاية طويلة يا رشا, حكايتنا حكاية. الآن، لا أستطيع أن أشرح لك, أخاف أن يقترب الجلاد منك ويأكلك. إنه يأكل لحم الأطفال الصغار يا رشا، دموع الأطفال، عظام الأطفال الطرية، الطازجة. عندما يخمن الجلاد أن وراء السؤال سؤال، غيوايات تستولد حكايات، وحكايات تستولد تساؤلات لا تدخل في جوف الطفل كثمرة عابرة، أو حدس فيه تورية. الجلاد يعرف أن الطفل لا يتمرن على معرفة هكذا نوع من الأسئلة العميقة يا رشا. أصبري يا صغيرتي، قليلاً أو كثيراً، حتى تكبري وتعرفي, الأن لن تفهمي ندائي، وكلامي المحفور في ثنايا قلبي.

لم أكن أعرف كيف أشرح لها، كيف أفهمها أنني لم أفعل شيئاً, كل ما فعلته، إنني كنت أفكر في صور الممكنات، في الأعاجيز، في الوطن الآخر الجميل.

لم أكن أعرف شكل الجمال في هذا الآخر، لكني حلمت به كثيراً.

كان هذا الآخر، الوطن، الممكن، معي, أحلام متداخلة بالذكريات، مسترخية معي في الزنزانة، في قلبي ودمي, أنذر له الشموع والقرابين من بقايا دمي، من أجل أن يبقى فرحاً، أن تبقى قامته عالية. لم يكن يعنيني أن أكون أرمنياً أوعربياً, مسيحياً أو مسلماً, كنت أنساناً, ولد في هذا هذا المكان، عاش وترعرع على ترابه الأسمرالجميل, أكل من خيراته. كنت وما زلت أريد أن أعيش كإنسان له الحق في الحياة والحرية والجمال. كان بيننا رفاق وأخوة وأصدقاء، أكراد وعرب وشركس, علويون وسنة، دروز وإسماعيليون, مسيحيون ومسلمين. لقد جمعنا هذا الجميل، الحلم، الوطن، الأرض، الآخر، لهذا بقينا وتحملنا أقسى الظروف والمآسي من أجل أن تبقى هذه الأرض الجميلة للجميع ومن أجل الجميع. أقول, الإنسان هو زمن، مسيرة لحظات، جملة لحظات أو كتلة لحظات مكثفة. يجب أن لا يكون منتمياً لهذا الطيف أو ذاك, أن يكون انتماؤه إلى ذاته، إلى شروط زمانه ومكانه، إلى حريته.

كان الوقت شيخاً عجوزاً طاعناً في السن، طاوياً عباءته القديمة تحت عبه استعداداً للرحيل. جلست على ركبتي أنظر إلى ثنايا وجهه المتجعد، أفكر، قلت, يا شيخ إنت دائم التجدد، لا تفنى ولا تموت.

مسك محمد خير الماكنة اليدوية, قال, تعال كي أحلق شعرك وذقنك. وقف الجميع بصعوبة بالغة, ننظر في وجوه بعضنا، كأننا نراها لأول مرة أو نودعها لأخر مرة، أو كأننا نكتشفها للوهلة الأولى. ننتظر لحظات الانتقال من شكل إلى آخر. قلت, أصبر علي قليلاً من أجل أن اشلح ثيابي. بعد أن شلحت الجزء العلوي مني, راحت الماكنة الحقودة، طائر الليل العجول، متهيبة، تسرح في مراعي رأسي، تأكل زادها من سنابلي. راح ليل الشتاء يمضغ جلدي، يدرس خرائطه فوق رأسي. الشعر الأملس الغريب، يتساقط بحياء على شكل أكوام أكوام. نظرت إليه بحسد أقرب إلى الفجاعة، قابعاً على الأرض بحيادية باردة، منفصلاً عني، كأنه لم يكن مني.

بقي الشتاء جالساً فوقي، يلسعني ببرده الكاوي. في ذلك الفصل القلق، في تلك المساحات المفتوحة على شرارات البرد، وقفت مثل شجرة هرمة لا تقوى على التصدي لهذه اللفحات القادمة من وراء الرياح العاكسة لجذوري. لبست ثوب الحزن مرغماً، أنظر إلى قصاصات الليل، وهي تتناسل وتتنزل ببطء من على كتفي، تسقط كيفياً من على رأسي. مخموراً بالوشوشات الخافتة التي تتصدرأنفاسي، مسترخية, ممهورة بالقهروالعار.

آه.. وآلف آه من هذا الليل الطويل.

ما أن وصلت ماكينة محمد خير في جرد نصف شعري، حتى سمعنا صوت فتح أبواب، إغلاق أبواب، تسبقها حركات غريبة، مترافقة مع صراخ عالي يصل إلى عنان السماء. تنتشر في محيط الفضاء الأهليلجي للمكان، رائحة أحذية عتيقة، رائحة واخزة كالزرنيخ، رائحة صنان متماسك، أو عفونة قديمة تلسع مكامن الشم في الدماغ، بالإضافة إلى حركة هرج ومرج غير منتظمة.

أصوات متوعدة، أصوات متقافزة, متنافرة، تتقافز بين خلائط الجدران وأذاننا، تترفل بالقلق المتوعد، تمشي في حضرة الصدى، متنقلة، خارجة من كل حدب وصوب. ضجيج وشتائم. بعد فترة ليست طويلة، فتح باب مهجعنا بقوة مترافقاً مع صراخ حاد وعالي, وجهك في الأرض يا ابن الشرموطة, رأسك في الأرض يا ابن القحبة, أغمضوا أعينكم يا أولاد الوسخة, قفوا خمسة خمسة يا منايك, قفوا بجانب الحائط، لا تلتفتوا إلى اليمين أو اليسار, قفوا باستعداد تام, لا تتحركوا يا أولاد الزنى. العشرات من الأحذية اللامعة، السميكة تتقدم عدة خطوات رشيقة إلى الأمام. الشرطة العسكرية دخلت المهجع. أنا لم أستطع أن أحصيهم، لكن روائحهم الكريهة سبقتهم، روائح متنافرة، متنوعة، مختلطة مع عطوررخيصة. كنت أحس بخيال أحذيتهم القاسية وهي تدب على الأرض بثقة. راحوا يضربوا كل من يقف في حدود طريقهم، على الرأس والوجه، الظهر والبطن، مع شتائم لم ينزل بها سلطان من قبل.

أصبحنا مثل الأرانب الهاربة، نركض هنا وهناك, نعود دون أرادة منا إلى أنياب الذئاب الشاردة. يصرخون, إلى الجدار، قفوا بجانب الحائط.

ركضنا من مكان إلى آخر ضمن المهجع, دون أن نعرف أين نقف. حاولنا بكل الوسائل أن نتقي، نحمي أنفسنا من اللكم والرفس والصفع التي تأتينا على المؤخرة والرأس والظهر والوجه.

أصبح المكان أشبه بساحة تهريج صغيرة أوميدان مصارعة من جانب واحد، نتلقى الضرب القاسي والجارح كلما حاولنا الفرار من التسديدات العبثية القادمة من هنا وهناك. هربنا إلى الزوايا, إلى خلاء الزنزانة الضيقة, لكننا لم نفلح. أصوات الأقدام، تتمازج مع أصوات الأنفاس العالية، المترافقة مع الزعيق، الشتم واللكم. نبرات الأصوات العالية، أحالت الفراغ الى قرقعة, صرخات عالية وشكوى، أوجاع تتقشر بسرعة، وجوه تتورم وألم نافرمن الحناجر المندهشة، الممتزجة باللوعة.

كان صوت صفوان عكاش أقوى وأعلى الأصوات, صوته يرتطم بالسقف، ثم يرتد ليصطدم بالأرض، تمتصه الجدران السميكة، ثم تعيده إلى أسماعنا، بصوت كصوت البكاء على الأموات أوالأحياء.

لم نعد نعرف إلى أين نذهب، إلى أية زاويا من الزوايا نلجأ. في محاولة الهروب، كانت الجدران تتكفل بردنا إليهم، والبدء من نقطة الصفر. نعود إليهم مثقلين باليأس، فنتلقى ضربة أخرى أقسى وأمر. القلب ينبض بسرعة هائلة. كنت أجنح للهروب, بشعر نصف محلوق ونصف راعش وكثيف، في كينونة مغلقة ومقفلة. أركض إلى هنا أو إلى هناك مثل الغمام المتعرج الهارب الذي لا يعرف إلى أين.

حشرونا مع بعضنا، إلى أن أخذت الأشياء، الأمور، اصطفافاتها. استطعنا أن نعرف ماذا كانوا يريدون منا، وإلى أين يريدوننا أن نقف. اللهاث الحاد والمر يعلو ويهبط, العيون مغمضة، الرؤوس والجذوع مطاطئة ومنحنية. وقفنا بجانب الجدار, خمسة، خمسة زائد واحد. التفوا حولنا. كل ثانية، يقترب أحد الشرطة من واحد منا, واحد لا على التعيين, ينظر إليه، ليعرف من أين سيضربه. يدوزن وجهه بعينيه، يتأمله برغبة شاذة، يجهز يديه، يفتح كفه على وسع، ثم يلسعه بضربة ماكرة وماهرة. يأتيه الصفع من تحت, الصفعة تتناول الفم والأنف والعينين والوجه, ثم يعقبها بلكمة أو رفسة ماهرة أوتسديدة ملعونة على المؤخرة, بعدها يذهب في التلذذ, تعال إلى هنا يا ابن الشرموطة, أغمض عينيك يا ابن القحبة، أرفع وجهك إلى الأعلى يا حلو. يمرر يديه على الوجه كما يفعل الحلاق عندما يشحذ شفرة الحلاقة على الجلد. يمسك وجهه بكلتا يديه، ثم يطلق تنهيدة مفتوحة, آه.. ما أجمل صفحة وجهك يا ابن المنيوكة, أبق كما أنت. يضع يده بتحبب على بشرة الوجه، يمررها عليها مرة ثانية، يقلب كفه على الوجهين، ثم يرفع يده بكل ما يستطيع من قوة وبطش، يصفعه صفعة قوية يوقعه أرضاً. على أثر ذلك تطلق الصفعة طنيناً عالياً في الأذن والخلايا.

تتوالى الصفعات على الجهتين، على الخدين، إلى أن يمل الجلاد من الضرب. الكثير منا كان يضطرب ويرجف من هول المفاجأة وشدة وضوحها.

بعد أن هدأت العاصفة بعض الشيء من الضرب واللكم، الرفس والصفع. راح كبيرهم، يتناول أحدنا بطريقة انتقائية مدوزنة, يمسكه ويضربه أو يرفسه، مع بصاق وشتائم, كل ثانية تسمع صوت آهات تخرج من فم مبحوح من هنا أو هناك، مع حركة سقوط الجسد على الأرض. مسك أحدهم عمار رزق وراح يضربه قائلاً له, هل أنت رئيساً للمهجع! لم يجب, ضربه مرة ثانية. كرر السؤال مرات كثيرة, إلى أن قال أخيراً, لا.. لا لست رئيساً للمهجع. استلموا بكرصدقي، بعده صفوان عكاش، عبد الكريم عيسى، ضربوهم بقسوة, مكررين السؤال عينه، وتلقوا الرد ذاته. عندها تناولوني, قالوا, هل أنت رئيس المهجع, قلت, لا. قالوا لقد عينا لكم رئيساً للمهجع من هو؟ قلت, لا أعرف. لكن، لست أنا.

كنت نصف عار في ذلك الشتاء البارد من الثياب والشعر.

تناولوني بالضرب من كل الجهات, التموا علي، كل واحد يمسك معوله، يحفر في كل مكان مني, صفع على الوجه، لكم في البطن، على الظهر والصدر، على الرأس، رفس على المؤخرة، بالكفوف والأيدي والأرجل. كان للضرب صدى، حرارة ولون. رموني على الأرض، جعلوا وجهي موازياً للبلاط،

صعدوا على ظهري، رقصوا, ثم قلبوني على الصفحة الأخرى، صار وجهي في وجوههم, صرخوا فيَ, أغمض عينيك.

راحوا يضربوني بأرجلهم على بطني وخاصرتي وفخذي ورجلي. صارت اللكمات والرفس والصراخ والضرب يأتيني من كل جانب. أكثر مكان تناولوه كان وجهي. أصبح وجهي مشكلة لهم, لم أعد أعرف من أين تأت الصفعات الكثيرة لي. تدفق الدم من وجهي وفمي, تورم كل مكان مني. الوجه صار أحمر اللون، الأنف نزفت والأذن تخرشت وجرحت، توزعت الكدمات على كل مكان من محيط رأسي. رغم أن لوني أصبح أحمراً, لكنهم لم يشبعوا مني، لم يرتوي غليلهم. مسكوا أقدامي، راحوا يسحلوني على أرض المهجع مع الضرب والشتائم، مع صراخ مختلط بضحك رخيص. كنت أصرخ وأصيح, لكنهم كانوا يزدادون شراسة كلما تألمت أكثر، كلما تفجرت بقعة دم مني. أصبحوا أكثر توحشاً وهمجية من قبل.

أكثر شيء كان يؤلمني ويخيفني أن يشوهوا وجهي وجسدي. كنت أخاف أن يفقأوا عيني، أن يثقبوا أذني، أن يشلوني بالكامل. استسلمت لمصيري وبقيت بين أيديهم يشكلوا صورتي الجديدة, صرت تحت رحمة أقدامهم يفعلوا بي ما يشاؤون.

تساءلت كثيراً, كيف يستمتع هؤلاء الناس بضرب إنسان في كل مكان من جسده، في وقت لا حول له ولا قوة.

لم يتكلموا أي كلمة خارج حدود عملهم الرخيص, كما لم أستطع أن أرى وجوههم. كما لم أعد أسمع لهاثهم الحقودة المختلطة بلهاثي الموجوع. كنت أطوي جدعي وأضع يدي على وجهي ورأسي لحمايتهم من الضرب, لكنهم كانوا يبعدون يدي بقوة من أجل التحكم باللكمة في المكان الذي يرغبوا أن يصلوا إليه. كانوا طوال القامة، ممتلئي اللشة والجثة. صفحة الكف لأحدهم تساوي ثلاثة كفوف لرجل عادي. قالوا, من الأن وصاعداً, أنت رئيس المهجع, لم أرد على كلامهم, تناولني أحدهم برفسة أطاحتني أرضاً مترافقة مع بصاق, بعدها قالوا قم واقفاً يا ابن الشرموطة, وقفت كما أمروا. قالوا, قف باستعداد تام، رأسك منحنياً إلى الأسفل, أنت رئيساً للمهجع. كرر ما نقول لك. قلت, أنا رئيس المهجع. قال أحدهم, لم تتعلم بعد، تعال إلى عندي يا ابن القحبة, ذهبت إليه مغمض العيني، مشيت إلى مصدر الصوت. قال, أبقي عينيك مغمضة، أرفع رأسك إلى الأعلى, أبقى باستعداد تام. وقفت كما قال وأمر. راح يصفني بكل ما يملك من قوة. مع كل صفعة أقع على الأرض, تترافق مع صدى طنين قوي ينفرمن أذني وينمل وجهي ورأسي. يمسكني أحدهم ويقربني إلى مصدر الصوت، يثبتني لأتلقى الضرب والصفع المنظم مرة أخرى.

بعد أن شبعوا من جلدي، ساد هدوء كامل.

وقفت منحني الرأس والجدع بينهم، معفراً بالتراب، ممتلئاً بأوساخ الأرض وأثار أحذيتهم القذرة, صامتاً، موجوعاً، الهث بصعوبة، أعمل على استعادة أنفاسي المتعبة.

التفوا حولي، يراقبوني دون أن يتكلموا أو يشتموا أو يصدروا صوتاً. ربما أحسوا أن هذه الوجبة تكفي لهذا اليوم. غادروا بهدوء وكأن شيئاً لم يكن. واجب قاموا به، وظيفة أنجزوها. قالوا بعد أن صاروا خارج المهجع, تعال شد الباب. رحت بأتجاه الباب، مسكت الحبل المربوط بالحديد وشددت الباب.

دخلت الحمام منطوياً على نفسي، معتمداً على رفاقي وأخوتي في المهجع. غسلت وجهي ورأسي بالماء البارد, نظرت في الوجوه الكسيرة, قرأت المرارة والحزن في أحداق الجميع, إنكسار عميق، مغرق في العمق. كأنهم يقولون, ستبقى بلادنا نائمة تحت الضباب. كنت دائخاً، متعباً مهموماً. قلت للرجال العشرة, ماذا نفعل، إننا ندخل في نفق مظلم, ليس لدينا شيء ندافع به عن أنفسنا, هل نبقى تحت رحمتهم، يشكلوا تأريخنا وحاضرنا بالطريقة التي يريدونها أويرغبونها، أم لديكم اقتراحات أخرى. أجاب الكثير, لن نفعل شيئاً, ليس لدينا خيار آخر سوى التحمل. ذهبت إلى جانب فراشي، جلست عليه لأخذ قسطاً من الراحة. خبط الشرطي الذي على السطح, ابن الشرمومة, يا رئيس المهجع, خبطت بحذائي المهترئ، علامة على التحية، قلت, حاضر حضرة الرقيب أول. قال, يا ابن القحبة, لا تقتربوا

من الباب الخارجي كثيراً. هل حلقتم أشعاركم. قلت, إننا نحلق يا حضرة الرقيب أول. قال, عندما أخبط على السقف, تقف باستعداد تام يا ابن المنيوكة, بينما الآخرون يبقون في أماكنهم. خذ وضعية التمرين التاسع يا ابن الزنى, واحد اثنان, واحد اثنان. رحت أنفذ هذا التمرين الصعب بصعوبة كبيرة. ثم قال, منبطحاً على الأرض, واقفاً، منبطحاً.. واقفاً.

ازحف على بطنك يا ابن الشرموطة على الأكواع والركب يا ابن القحبة, رحت أنفذ ما يقول لي. ثم طلب من الجميع أن يزحفوا, على الأيدي والركب. قال, أنت الذي لابس البيجاما الصفراء. أجلب بيدوناً من الماء سعة عشرون ليتراً. ثم أضاف بلهجة واثقة, سبح كل واحد بالماء, ثم سبح نفسك. راح الذي يلبس البيجاما الصفراء يملأ الماء فوقنا، بينما نحن جاثمون على ركبنا.

صار الشتاء وكانونه شتاءان مركبان في شتاء واحد. الهواء البارد يهب من الشراقة المفتوحة، من النوافذ الصغيرة المطلة على الغرب، يلفحنا. ثيابنا مبللة، أجسادنا مملوءة بالماء والتعب والتعذيب. كنت أقول, عندما كنت أتنقل في ربوع بلادي، أينما تنقلت، أجد ناس لطفاء، رحماء, أما هؤلاء البشر، الشرطة، من أي كوكب جاؤوا. ألا يحس هذا الشرطي العادي، والأعزل بآلام الآخرين. كيف يتمتع بتعذيب بشر تعرضوا قبل قليل لمختلف أنواع التعذيب، ويكمل ما انتهوا منه.

عندما بدأ النهار يخفق جناحيه استعداداً للرحيل، عادت عصافير البوادي من الحرية، من السماء المفتوحة على السماء، حاملة على أجنحتها الجميلة مواسم الفرح والضباب وبقايا نور. جاءت تحمل في قلوبها أنشودة الوجود البارع، ملفوفة بجمرالريح المسكون على الريح، في عينيها سحر الحياة وبهائها. تتناهى إلى سمعها اللهفة لغابات الماء والعرائش المتكئة على الصدى المعقود على الكون. في أفئدتها الحنونة روائح المطروالحقول وعطش المواسم للضوء. جاؤوا إلى أعشاشهم الشتائية المركونة في مهجع المستوصف المهجور، يأوون إلى عباءة الليل والسكينة المرصوفة على الصمت في هذا الفراغ المعتم.

فاجأها وجودنا غير المحسوب في هذه الأوقات العصيبة من الزمن العصيب والغريب, أيقظنا جنبات السكينة من المكان، حركنا الصمت النائم بضجيجنا العالي.

كانوا خائفين، قلقين، مجبرين على المكوث بيننا لتراكم البرد في البراري المفتوحة على المدى، لانهمار ماء السماء على أجسادهم المكشوفة.

بسطوا ريشهم الرمادي المظلل على القضبان النافرة من الجدران وجلسوا. راحوا ينظرون إلينا باستغراب، يتأملوا خيباتنا وعرينا المكشوف لهم. أعينهم الجميلة لا تمل من التحديق فينا، مستنكرة، كأنها تقول لنا, ما الذي جاء بكم إلى هذه الخرائب المسكونة بروائح الجن والشيطان! لماذا جئتم، من فعل بكم هذا، من الذي قيدكم وحلق شعر رؤوسكم، لحاكم وشواربكم، وبلل ثيابكم وخرب لون الحياة الجميلة في أعينكم.

طوال الليل لم تنم العصافير، مثلنا، من الخوف، من القلق، من الضوء المسلط على وجوهها. يتململون، ينقلوا مواضع أجسادهم المتعبة الصابرة من مكان لآخر، هرباً من صوت الشرطة وزعيقهم عبر ومن الشراقة القريبة من أماكن استلقائهم. أعينهم مفتوحة، تراقب بانتباه عميق ما يحدث حولها من هول وغرابة.

صار قدرهم مثل قدرنا، قاسياً، كل خمسة دقائق يستيقظوا مثلنا، على وقع الصراخ والشتائم.

الشتاء فرض شروطه عليهم للمكوث معنا في الليل.

كانوا يحاولون الاسترخاء، لكن المكان الجديد المشكل من آهات ووجع لم يسعفهم. يناموا دقيقة ويستيقظوا دقيقة. أقل نقرة على الأرض تقطع السكون الهش وتمزقه.

كانوا موزعين على محيط المهجع، في وسط الممر، على مقربة من باب المهجع المصنوع من الحديد الصلب، المصبوغ باللون الأسود, على المصطبة الكبيرة, المصطبة الصغيرة, في الجهة الغربية, على جدران الحمام والمرحاض.

في الصباح كانوا يشقشقوا مع لون الضياء القادم من وراء الضوء, فرحين, وجههم موزعة نحو القيافي، وقلوبهم نحو الحرية، وظهورهم لنا. كوكبة من الألوان المبهجة كانت في انتظارهم عند أبواب الرحيل.

أما نحن، فنبقى على أرصفة الخراب، ننثر المساء على وجوهنا، مرغمين على البقاء مع الصدى والصديد.

المستوصف يقع في الباحة السادسة, وجهه باتجاه الغرب والمدينة والآثار، ظمأه ينحو نحو المغيب، وظهره ينبض براحتيه نحو الشرق والسجن والفلاة المفتوحة على الفلاة.

مبنى قديم, جدرانه من الأجر المحروق، متعب بفعل تراكم السنين. سماكة الجدران في بعض الأماكن بحدود المتر، وعشرون سنتمتراً في أماكن أخرى. لقد بني هذا المهجع في زمن الانتداب الفرنسي على بلادنا. سمي باسم المستوصف, لأن مواصفاته تشير إلى أنه كان في يوم من الأيام مستوصفاً طبياً يستقبل زواره في هذا المكان. تقطيع الجدران، توزيع الغرف، تقسيم البناء بشكل هندسي متناسق يدل على ذلك.

ما فعلته الأنظمة المسماة وطنية! إنها أزالت الجدران، فتحت المبنى على بعضه، ليتحول إلى مهجع للسجناء. عند الدخول إليه من الباب الحديدي الأسود الفاحم، يتلقفك ممر طويل، على يمينه غرف ذات جدران مزالة. تمشي إلى الأمام مسافة تمتد إلى تسعة أمتار تقريباً، تجد نصف حاجز، خلفه تقع غرفة كبيرة، طويلة الأبعاد مفتوحة على بعضها، على يسارها غرفة صغيرة مركونة ضمن الجدران مخصصة لمعاينة المرضى.

يطل هذا المكان على باحة صغيرة غير مستوية، بيتونها الرقيق قديم، فيه شقوق طولانية نافرة، قادمة من الأسفل، تنبعث منها روائح المراحيض الكريهة المتلاقحة مع المجاري المكسرة.

يقع المستوصف على حدود السور الخارجي للسجن، من جهة الغرب، القريب من المدينة. نوافذه الصغيرة العالية مطلة على الغرب. هواء البادية والبراري المفتوحة يأتي مسلوقاً بالبرد والزمهرير، يدخل بدون استئذان, مقشراً وطازجاً.

على المحيط الدائري للسجن، لواء من الوحدات الخاصة، جيش نظامي، مدرباً تدريباً عالياً. يتدرب هذا الجيش المسلح بأحدث الأسلحة كل يوم بعد الساعة التاسعة مساءاً أثناء خلودنا للنوم على النظام والضم. يطلقون أثناء المارش العسكري شعارات صبيانية فارغة لا قيمة لها، إلا أنها تحشو عقول الناس البسطاء. مثل, لأكتب على الدبابة يا أبو باسل يا بابا, حافظ حامينا, باسل شهيدنا, بشار أملنا, سوريا الأسد الله حاميها, من بعدك يا أبو باسل سوريا وين تروحي، بالروح بالدم نفديك يا أسد. وهكذا. يمشي المارش كل ليلة على هذا الإيقاع. هذا الجيش, الوحدات الخاصة وجد وجهز لبقاء هذا السجن بأمان من التهديد. لخوف السلطة من اقتحامه من قبل المعارضين وتحرير السجناء منه.

السجن مقسم إلى باحات كثيرة, في كل باحة مجموعة من المهاجع القريبة من بعضها. جميع المهاجع مبنية من طابق واحد. أغلب الأبنية، ومنها غرف الإدارة، قديمة، مبنية على الطراز الفرنسي. لكن منذ بداية ثمانينيات القرن العشرين بنوا مهاجع جديدة وكثيرة للاعتقالات الكبيرة التي تمت في سوريا. السجن مقسم إلى قسمين، القسم الشرقي كما يسمونه، مخصص للجنود المخالفين، الذين عليهم تنفيذ الحق العام كالفرار من الجيش أوالقتل العمد أوالقصد أوأعمال أخرى, والقسم الآخر, القسم السياسي الذي نحن فيه.

لا أعرف عدد المهاجع، لكنني أقدر.

يفتح الباب، صوت طق المزلاج يأتي ساخراً إلى أسماعنا، ثم يردفها الشرطي بطقة أخرى علامة على إغلاقه. بعد لحظات قصيرة يتحرك صوت ارتطام القارس بالأرض منذراً بجولة كئيبة من الوجع.. جولة جديدة من التعذيب اليومي المباشرة. يوم أخرمن الهوس المقيح المخزن في عقل السلطة بدأ. وجبة صباحية في طريقها إلى التنفيذ.

يبدأ الضرب ساخناً ممدوداً على كتل المكان المنحوس, صوت الكيبلات يرتفع بإيقاع مدوزن /طرق.. طرق/ طرقات فجة وقاسية، تصوب على الأقدام بلسعات حادة، تهشم الجلد واللحم. صوت متناغم مع بعضه البعض يخرج بانتظام وترتيب/ طرق، طرق/ مثل ضرب المطرقة على السندان. صوت السجناء وصراخهم يأتي هو الآخر عبر صلصال الأثير البلوري النقي حياً مملوءاً بالوجع والغم، طازجاً عميقاً, ممهوراً, محمولاً على شرائح الهواء عبرالصمت المسترخي في تدمر. صراخ السجين يقول, دخيلك يا حضرة الرقيب, داخل على عرضك, دخيل الله, داخل على الله وعليك يا حضرة الرقيب أول, من شان الله. كلمات السجناء واستغاثتهم تصل إلى عناء السماء، مترافقة مع بكاء مر وموجع. لكن، لا من يسمع ولا من يشفع. كلمات فيها الكثير من الترجي وفيها الكثير.. الكثير من الوجع والآهات المسكونة في المكان وكامنة بين وهاد البراري والروابي والتلال والبادية.

ما أن يبدأ ليل تدمر بفرد جناحيه على رقعة السماء حتى تضج الحركة في السجن. يبدأ عواء الشرطة ونباحهم الليلي الطويل. يتحرك الرقباء، ليراقبوا أنفاس السجناء، وخلودهم للنوم. يبدأ النوع الثاني من التعذيب، ضرب على الأسطح بعقب أقدامهم، بالحجر. أجفان الصمت وجدرانه يتمزيق من الخبط على الشبك الحديدي للمهاجع، بعدها يبدأ التعليم.

عندما يعلم السجين يبقى خائفاً الليل كله، تكوى وتشوى أعصابه إلى حين مجيئهم في الصباح.

في الصباح يتم إخراج سجين واحد أواثنان أوثلاثة أوأكثر من المعلمين حسب الطلب الذي يقدره الرقباء من كل مهجع، بعد أن يكون قد نقع الليل كله في بحر الخوف وغرق في حالة من الرعب الكامل الذي وضع فيه. أنها عملية سيكولوجية مدروسة بدقة من أجل أن ينهار السجين ويسقط من تلقاء ذاته مع مرورالأيام. لأن هذه العملية الصعبة تتلف الأعصاب وتدمر الروح والجسد. مع مرور الأيام الطويلة ينهك السجين ويصاب بأمراض كثيرة ومتعددة.

بعد خروج السجين من المهجع يغلق الباب وراءه.

الحد الأدنى للضرب، للجلد، مئة وخمسون كيبلاً للإخوان المسلمين وحزب البعث العربي الاشتراكي /العراق/ ويمتد صعوداً إلى الأعلى ليصل إلى خمسمائة كيبل أوأكثر. لقد بدأ هذا الشكل من التعذيب منذ الثلث الأخير من شهر نيسان عام/1997/. وحتى أيار عام /1998/. يومياً بدون رحمة أو شفقة.

شيء لا يمكن أن يصدق/ لم يحدث في تأريخ العالم كله أن يمارس التعذيب اليومي الممنهجع على السجناء أنفسهم مدة عشرون عاماً ونيف/. الكثير من السجناء أصايب بالغرغرينة ونزف إلى أن مات. الكثير.. الكثير منهم شل بالكامل. لقد رأيت ورأى جميع الذين معي من ثقب الباب الصغيرالذي لا يتجاوز/2مم/ العشرات منهم يحملون على البطانيات وهم في حالة شلل كامل. الكثير.. الكثير منهم أصيب بالسرطان والسكري وأمراض القلب والسل والربو. إنها كارثة إنسانية كاملة حلت بسوريا، وطني الذي لم يعد جميلاً، منذ الثامن من آذار. لقد استولى مجموعة من المجرمين على الدولة واغتصبوها، خربوا مؤسساتها وسرقوا أموالها وفتكوا بشعبها تحت راية شعارات براقة وكاذبة. المحاكمة الأولى يجب أن تتم لهؤلاء، للجريمة التي اقترفوهه بحق بلدنا، للانقلاب العسكري الذي قاموا به، لسرقتهم للدولة وتعطيل عملها وأن يدان كل من ساهم بهذا الفعل المنحط.

كنا نبقى كامنون في أماكننا، مسمرون خائفون.

عندما يبدأ الجلد، نبدأ العد. نعد صوت الكوابل التي تلسع أقدام إخواننا السجناء في المهاجع الأخرى. نتشاغل بها من أجل نسيان دورنا. يصل الجلد إلى أسماعنا قاسياً، صعباً، هادراً للأعصاب والقلب والروح. نبقى في حالة قلق وتوتر وانتظار. الأنفاس تخرج من حلوقنا متعبة على شكل خرخرة. صراخ السجناء واستغاثتهم تصل هي الأخرى واضحة.

ننتظر دورنا، نبقى في حالة استنفار نفسي وجسدي كامل. الأذن مسمرة على الكوابل، على صراخ السجناء الذين يتعرضون للتعذيب، على حركة الشرطة فوق الأسطح والباحات.

عندما كنت اسمع فتح الأبواب، يبدأ جسدي بالتشنج، تخرج من أعماق صدري نفثات من الإعياء وشعور عارم بالضيق يكاد يطبق على روحي، يرافقها اضطراب في دقات القلب، ترتفع وتدق بقوة، أنفاسي تخرج من صدري بصعوبة بالغة، يرافقها تقطع في صوتي، ثم يتهدل ويبح داخل حنجرتي، تبدأ أعصابي تتشنج وتتصلب وتتمسك ببعضها. لم أكن أستطيع القيام بأية حركة، كما لم أطق أن أرى أي حركة أمامي. أطلب من الجميع أن تلزم أماكنها وأن لا تأتي بأية حركة. حتى زقزقة العصافير كانت تدخل الاضطراب والقلق والتعب على روحي وأعصابي المستنفرة. كل شيء فيّ يتخشب ويصمت، يرفقها ارتخاء في مفاصلي.

أقدرعدد المهاجع في ذلك الوقت ما بين الأربعين إلى الخمسين. عدد السجناء في كل مهجع ما بين الثلاثين إلى ستين.

أغلب السجناء كانوا من الإخوان المسلمين والبعث العراقي.

إحدى المرات، بينما كانوا يجلدوننا، يضربوننا بالكوابل على أقدامنا. كنا خمسة، صفوان عكاش والحارث النبهان وعمر الحايك وعمار رزق وأنا. كنت أصرخ وأبكي وأصيح من الوجع. تقافز إلى فمي كلمة دخيلك يا حضرة الرقيب أول، دخيل عرضك يا حضرة الرقيب أول، دخيل ناموسك يا حضرة الرقيب أول. أمر الرقيب أول أن يوقفوا التعذيب. قال, هذه لم أفهمها، ماذا تعني بكلمة ناموسك. قلت, المقصود فيها الشرائع السماوية. قال, أعيدوه للدولاب, ليجلد مرة أخرى تحت قبة السماء.

يتم إدخال الطعام عبر فوارغ بلاستيكية كبيرة, يتولى إدخال الطعام ثلاثة سجناء، كل واحد يدخل فارغة. فارغة للشاي البارد والبايت، فارغة للقليل من المربة، وأخرى للجبن أو شاي مع زيتون وحلاوة. تقسيم الأكل يأتي مكرراً بشكل روتيني دائم على مدار الأسبوع والشهر والسنة. أثناء إدخال الطعام يتعرض السجين للضرب ضرب على ظهره بالكبل أوعلى رأسه، يرفس بالحذاء فيقع بينما هو داخل إلى المهجع حاملاً الأكل أو يبصق عليه أو يصفع على وجهه، مستخدمين أية وسيلة من وسائل التعذيب المتوفرة. بعد إدخال الفطور يطلب الشرطي, يقول, رئيس المهجع, أقول, حاضرحضرة الرقيب أول. يرد علي, ليخرج المَعلمون الذين عندك/ المَعلم هو المؤشرعليه أثناء النوم، أوأوقات النهار، لا لمخالفة قام بها، بل لأن التعذيب مباح في هذا السجن الخطير والصعب. في هذه الحالة يتفق رئيس المهجع مع رفاقه داخل المهجع على إخراج السجين وتحضيره ليقدم كأضحية للجلاد/. في أغلب الأحيان يكون السجين جاهزاً، رامياً حذائه جانباً، ويبقى حافياً، وواقفاً بجانب الباب منتظراً أن يطلبوه للتعذيب. قلبه يدق في صدره بقوة من الخوف. عندما يخرج، يغلق الباب عليه من الخارج، بعدها يستلموه، يربط السجين بالمرسة والقارس ثم يبدأ الضرب على قدميه بالكوابل.

كان الضرب الذي نتعرض له أقل بكثير من الذي يكال لإخواننا السجناء من الانتماءات السياسية الأخرى كالإخوان المسلمين أوالبعث العراقي. كان سقف الضرب الذي نتعرض له لا يتجاوز المئة والخمسين كبلاً. كنا مدللين حسبما كانت الشرطة تقول. لهذا كانوا يحسون بالغيظ المدور منا، كنا نراها في حركاتهم وسكناتهم تجاهنا.

بعد تقديم الفطور، يغلق الباب علينا من الخارج, تذهب الشرطة فرحة, تغني وتصفروتضرب الكوابل على الحيطان.

نغسل أقدامنا بالماء البارد من أجل تبريد الجرح وتسكينه. ننظر في وجوه بعضنا الشاحبة الأسيرة، نُقبل رأس الذي جُلد، نحضنه ونضمه إلى صدرنا، نقول له شد حيلك.. ستفرج يا أخي /لا غرفة التوقيف باقية ولا زرد السلاسل/ تخرج الكلمات من أفواهنا متعبة هي الأخرى. كنا متضامنون مع بعضنا في تجربة سجن تدمر في السراء والضراء. نحمي بعضنا. يجلس كل واحد على كومة الفراش المرمية على الأرض، أو يمشي داخل المهجع. نبقى في حالة انتظار وترقب. لا يسمح لنا القيام بأي عمل مثمرإلا بقص أكياس النايلون القادمة مع الخبز. لقد استطاع تيسير حسون وراتب شعبو وعمار رزق أن يفكوا شيفرة صناعة الشباك. راح القسم الأكبر منا يقص النايلون بيديه ويجدله، يصنع منه أكياس من الشباك وبعد الانتهاء منه ترمى في الزبالة.

عند اقتراب الساعة الواحدة ظهراً نقف استعداداً للتفقد إلى حين مجيئهم. ليس بالضرورة أن يأتوا في الساعة الواحدة أو الثالثة أو الخامسة, لكن بعد الساعة الواحدة نبقى في حالة استنفار وترقب إلى أن يدخلوا بشكل جماعي. نبقى باستعداد تام، رؤوسنا منكسة وعيوننا مغمضة. بدخولهم إلى المهجع يضربوا أقرب واحد إليهم برجله أو يديه أو يشتم أو يسب. ينطق أعلاهم رتبة, كم العدد عندك يا رئيس المهجع. أرد عليه, أحد عشر في المهجع حضرة الرقيب أول، مترافقة مع تحية بقدمي اليمنى. يشد الباب ويغلق المهجع. بعد ستة أشهر جلبوا رفاقنا وضموهم لمهجعنا. صار عددنا اثنان وعشرون فرداً.

كان لدى الجميع الرغبة في التمرد على شروط السجن، أن يكيف الواقع ويخضعه من أجل قتل الوقت وتمريره, تحدي الواقع الصعب من خلال التمرد على قوانينه القاسية. قال لي بكر صدقي إحدى المرات, سنلعب الشطرنج في المهجع. قلت, كيف، أين ومتى وفي أي ظروف. إذا رأك الشرطي تلعب الشطرنج سيجلدوننا جميعاً. وضعنا يا بكرلا يحتمل اللعب في هذا المكان الصعب, دع عنك هذا اللغو الفارغ. لا تتمرد على شروط الواقع من خلالي ولا تعرض الآخرين للتعذيب، لدينا الكثير من المرضى لا يقووا على هذا العمل. قال, سأصنع الشطرنج وإذا سألوك من فعل ذلك قل لهم إنني صاحب الفكرة. قلت, أنت تعرف يا بكر إنني سأجلد ولن أتكلم، لن أبلغ عنك، لا تضعني في هذا الموقف الصعب. لكن إذا كان لديك الشجاعة تقدم منهم وأطلب هذا الطلب. أردفت قائلاً, أين ستلعبون الشطرنج, إنهم يراقبون المهجع كل الوقت، الليل والنهار, كيف ستحصل على المواد والقطع, كيف؟ قال, ليس مهماً كيف نؤمن القطع، المهم أن تقبل. شلح بكر لباسه/ فانيلا/ وراح يخيط عليها خطوط الشطرنج الطولانية والعرضانية بالخيطان المجدولة من النايلون. بالإبرة مضى عمار رزق يثقب الورق المقوى/ كرتون من بقايا علبة محارم لونها أخضر/ صور للحصان، للفيل، للملك والجنود والقلاع. غرزة وراء غرزة بالإبرة, صارلدينا شيء جديد نقطع الوقت به. في البدء كنت خائفاً جداً من أن يكتشف أمرنا فنجلد, لكن مع مرورالوقت نسيت هذا الخوف وصرت أتفرج على اللاعبين الذين يجلسون في الجهة الغربية بعيداً عن الشراقة وبحماية الآخرين الذين يمنعوا رؤية اللاعبين. ما أن يغلق الباب وننتهي من الأكل والتفقد حتى يلجأ الجميع إلى إشغال وقتهم بالوافد الجديد. في النهار يلبس بكر فانيلته تحت القميص وبعد الظهر تتحول إلى مائدة للشطرنج والتسلية.

دق الشرطي على الباب. قال, هل لديك مرضى. قلت, نعم حضرة الرقيب أول, لدي مرضى. قال, جهزهم. قلت, حاضر حضرة الرقيب أول.

دب الفرح في أوصالنا, لاعتقادنا أن ظروفنا في طريقها إلى التحسن, مجيء الطبيب ومعاينة المرضى علامة إيجابية وتطور كبيرعلى وضعنا. صرنا نضحك ونمشي بخطوات واسعة ضمن المهجع. نحلل هذا التطور الجديد, الوافد القادم على حصان أبيض. أصبحت أحلامنا وردية تقودنا إلى البعيد: ربما ينقلوننا من هنا، ربما لن يجلدونا بعد اليوم، سيحسنون طعامنا ويسمحوا لنا بالتنفس العادي دون تعذيب. وهكذا راحت أفكارنا البسيطة تسبقنا إلى الفرح والغبطة المظللة. بعد ساعة حدثت جلبة في الباحة, فتح الباب وقالوا, ليخرج المرضى. خرج من مهجعنا ثمانية أفراد, وبقينا ثلاثة.

ساد الصمت، توقف لولبياً دافقاً، متناثراً على حفنات المكان العالق فينا.

في البدء ساد هرج خفيف مكلل بحركة غير موزونة، أتبعه مرج عالي وصاخب. راح قلبي يدق في داخل قلبي واضعاً تساؤلات كثيرة, ماذا يحدث في الباحة؟ رحت أصغي إلى الهسيس المرتعش، دبيب يسري في شجون، أنفاس عالية تقطع نياط القلب من شدة الوجع. صوت صفعات، رفس وركل وركض، شتائم وسب يتبعها هدوء رمادي ساكن.

لم أفهم ماذا يحدث في الباحة، وبسرعة شديدة تسرب من يدي هارباً التفاؤل الزائد الذي غزاني بدون مقدمات. قلت, هل يعقل أن يحدث في ديارنا نبض نظيف. منذ أن ولدت لم اسمع إلا مشاعر الجنون والخراب منثوراً فوق قامة وطني سوريا. كومة من الصفعات تنزل على خدود المرضى، تهز السماء كصدى موحش. شحذنا المكان بالهدوء، بالبرهة النائمة على الصفحة ذاتها لنعتصر المعرفة القائمة خلف كواليس الباب، لنعرف ماذا يجري بين الجدران المسدودة المعلقة ما بين السماء والأرض. سكننا

الغم واليأس المتفرق. شيء يدعوا للدهشة والغرابة أن يجلد إنسان مريض كل مشكلته إنه خرج بناء على طلبهم. ثمانية رجال معتقلون، مرضى في الباحة، بين مجموعة من الشرطة والطبيب. استلقوا على الأرض بناء على أوامرهم، العصابة على أعينهم. عيونهم مغمضة لا يدرون ماذا يحدث لهم وحولهم. راح الطبيب الافتراضي يفحصهم، يدس قدمه في، وبين ضلوعهم، على وجوههم، صدروهم وبطونهم وأفواههم ومؤخرتهم. يغرق قدمه في بطن الموجوع إلى درجة تهشيم مصارينه. لسان الطبيب أشد قذارة ونتانة من الشرطي العادي. تعفرت ثياب المرضى بأوساخ الباحة وتلونت وجوههم باللون الأحمر المزرق من كثرة الضرب. قال أحد المرضى للطبيب أشعر بالمغص الشديد في بطني والكثير من الغازات تجعلني دائخا طوال الوقت مع وجع شديد في خاصرتي وصدري. بعد أن صفعه الطبيب والشرطة الذين معه قال, هل تريديني أن اسد طيزك يا منيك. وأضاف, أنتم مدللون, هذا ليس مرضاً. المريض الصحيح هوالمصاب بالسرطان، بالشلل التام، بالجلطة، بالسل وغيرها من الأمراض المستعصية والمزمنة. إذا خرج أحدكم لمثل هذه الأمراض فالويل له. إلى المهجع بسرعة يا أولاد القحبة.

دخل المرضى ركضاً إلى المهجع. كان وجه الحزن مرسوماً على وجوههم الحزينة. كل شيء يشيء بالخوف من المستقبل, الماء البارد، الطعام البارد، المهجع البارد، الثياب القليلة التي لا تفي بالحاجة. كيف السبيل إلى مقاومة عاتيات الأيام القادمة. لقد اعترفوا على المريض المصاب بالسكري، المرحوم عبد الله قبارة. قالوا لي, أكتب على الورق اسم الدواء الذي يتناوله الختيار، مريض السكري. هكذا سموا المرحوم عبد الله قبارة باسم الختيار لكثرة الشيب النابت في رأسه ودقنه. قلت لهم, ليس لدينا قلم أوورق، كيف سنكتب حضرة الرقيب أول. قال, تعال إلى هنا, أنت كروحماروغبي ولا تفهم, قلتُ لك اكتب، يعني يجب أن تكتب. الاعتراض ممنوع. أغمض عينيك، وارفع رأسك ووجهك إلى الأعلى يا ابن الزانية. صفعني عدة صفعات، مع كل صفعة أقع على الأرض من شدة وقوة الضربة. بعد أن انتهى قال لي, اكتب على ورق الدخان, ثم يا ابن الشرموطة لماذا تعلم عناصر مهجعك على الكذب. قلت, لم أعلمهم على الكذب حضرة الرقيب أول. قال, عندما أتكلم معك تقول حاضر حضرة الرقيب أول، ولا تعترض. عندما أقول لك أنك تعلمهم على الكذب ترد وتقول نعم يا حضرة الرقيب أول اعلمهم على الكذب. كان وجهي بين يديه يلعب به كما يلعب المرء بالصابون, مع كل كلمة يصفعني على وجهي وخدي ويتابع لعبه. ثم قال, لقد خرج من عندك ثمانية كذبة ولا يوجد بينكم مريضاً حقيقياً. من الآن وصاعداً إذا علمنا أن أحدكم يكذب علينا لن تلوم إلا نفسك، هل فهمت قلت, حاضر حضرة الرقيب أول. أردف, أدخل إلى المهجع إلى أبن الوسخة. دخلت وشددت حبل الباب ورائي كما أمرني ثم قدمت الصف كتحية عسكرية لهم على اقترابهم أو ابتعادهم من الباب.

ساد الهدوء المغموس بالإرهاق والتعب، نحدق في الزخارف النافرة للجدران القديمة، في المجهول المتدحرج القادم إلى خيالنا. نرصف حلقات الأنفاس الصعبة الكامنة في دواخلنا. ننظر في عيون بعضنا، مجفلون، وجوهنا شاحبة مستدرجة إلى كيفية طحن الزمن القادم إلينا في هذا المكان الأعزل والنائي عن كل ناء، والعمل على هرسه من أجل مطاوعته وتطويعه لما تبقى منا من بقايا.

كان بيننا صحبة، رجال واعون، متفانون لدرجة نكران الذات. مستعدون على تقديم أنفسهم وأرواحهم إذا تطلب الأمر. قلوبهم بيضاء كشعاع الضوء في هذه الحيثيات المفروضة علينا, مدركون خطورة الطريق ووعورة الدرب التي نسير ليها, يعرفون أنهم سيحملون الأيام القاسية على ظهورهم كما تحمل الصررالثقيلة إلى الضفة الأخرى.

المكان خطيرجداً, لهذا لم يكن لدينا متسع من الوقت لليأس أوالاستسلام أوالخضوع لشروطهم القاسية والتافهة.

الثقة ببعضنا، بتأريخنا, هذا الشعور المتداخل المسكوب بين أرواحنا هو الصخرة العظيمة التي نهض عليها بقائنا. هي حجر الزاوية التي حددت سمتنا نحو الأفق البعيد المزنر بالألوان البراقة الجميلة. الثقة هي النبراس الذي خط مسار سيرنا ولم شمل وجودنا في محاولة رسم نشيد الحياة التي ابتغيناها.

ثقتهم بي، كإنسان وصديق وأخ، بإنني لن أخذلهم في هذه المحنة العصيبة، لن اعري ظهورهم وصدورهم أمام السجانون. هذه الثقة والصدق هي التي ربطتنا ببعضنا بقوة. كانوا يعرفون إنني لن أقبل التنازل أوالقبول بأي مبادرة استرحام أو الخضوع لهذه السلطة الجائرة. ليس مهماً عندما يخرج المرء من سجن تدمر ويوقع أولا يوقع، هذه مشكلته، لكن المهم أن لا أذهب إليهم بقدمي وأطلب منهم الاسترحام من أجل أن يشفقوا علي. أنا أعرف هذا النظام الساقط، عندما يمسك بتلابيب الذي يقع بين يديه من تلقاء نفسه، كيف يلوثوا كرامته ويعجنوا مصيره بين أنفاسهم الكريهة, لأنه نظام مهزوم من أساسه, يعيش من أجل بقاءه.

كنا أمام وضع عصيب، زمن عاجز، إما أن نطحنه أو يطحننا.

كنت أكثرالأخوة في المهجع خوفاً على نفسي، قلقاً على مصيري الروحي والجسدي، لكني لم أكن مهزوماً من الداخل كما لم أقبل الهزيمة أو فكرت بها. التحف الماضي.. أتذكركل المناضلين في التأريخ عندما كان يشتد الضرب والجلد علينا. أحتمي بهم، بأرواحهم الساكنة معي في محنتي من سبارتكوس إلى المناضل الفنزويلي سيمون بوليفاروكل من قدم روحه من أجل قناعته. كنت ألجأ إليهم من أجل أن أتوازن وأبقى على قدمي لكي لا أنهار وأضيع. وجود هؤلاء الناس الشجعان مدوني بطاقة قوية على البقاء.

أتذكر محنة أجدادي الأرمن، المآسي التي تعرضوا لها في بداية القرن العشرين, عندما رحُلوا عن ديارهم وأوطانهم. الكثير منهم مات من التعب، والكثير الكثير مات من الجوع والعطش، والكثير قتل بدون رحمة أو شفقة دفاعاً عن موقفه, دون أن يدري بهم أحدٌ أو يعرف أين ماتوا أودفنوا. هناك بشر، جنود مجهولون أوفياء لمواقفهم، لم يطلبوا شهادة حسن السلوك أواعترافاً من أي إنسان. كانت شهادتهم من قلوبهم.

كانت تأتيني صورة بسام حمزة ومصطفى الشيخ حسن ومحمد حمامة ومحمد نحلوس ونزار موسى وغيرهم. أطفال الشغب كما أطلقت السلطة عليهم هذا اللقب. هؤلاء الأطفال الذين عبروا هذا المكان الصعب، سجن تدمر، أطفال في الرابعة عشرة من العمر، تحملوا ستة أعوام أو أكثر في هذا المكان وحملوا ثقله في قلوبهم ومضوا إلى الحياة.

نوعية الناس، وعيهم، تفانيهم مهم جداً في مثل هكذا محنة. أما وجود ناس ضعفاء، مهزوزون، يشوش ويدمر ويخرب ويفكك العلاقات ويدفع الجميع كما يدفع نفسه للهزيمة. يظن البعض أن تقديم التنازل سيخفف من محنته, أريد أن أقول للواهمون الذين كانوا في السجن أو خارجه أن هذا النظام أمني بامتياز ولا يعرف لغة الحوار أو حقوق الغير. عندما يتنازل أحدهم خوفاً، أو لقناعة ما، إنهم سيخرجون من السجن فهذا خطأ جسيم، لأنهم يضرون بأنفسهم وماضيهم وتأريخهم النضالي. عندما نقول نظام أمني معنى هذا إننا ننفي عنه الصفة السياسية بالمطلق. النظام الأمني، يعني الشرطي أوالبوليسي. هل سمعتم طوال التأريخ، أن الأنظمة الأمنية حاورت معارضاً أو قبلته أو أدخلته كشريك معها في القرارات السياسية؟ هل تعرف الشرطة لغة الحوار؟ هل سمعتم بذلك؟ ما أعرفه، أنهم يريدون تبع، رعاية يبصمون بالعشرة، ينكسون رؤوسهم تحت البسطار. أتمنى أن يعلم هؤلاء النبهاء أو الغفل في الداخل والخارج أن التميمة الصادرة منهم جاءت متأخرة جداً، لا تنفع أحداً ولا تصدر إلا عن أناس لها قدمان منكستان بالمصلحة الشخصية، واحدة في السلطة والأخرى في المعارضة وضررها على المعارضة أشد من السلطة.

قلت لأخوتي, ماذا نفعل، أريد رأيكم، مساعدتكم في كل شاردة وواردة، كيف سنكتب على هذا الورق؟ من أين لنا القلم؟ قال عمار رزق, لا تخف, سنجرب! أعرف أنهم لن يعطونا قلماً لكننا نستطيع أن نتدبرالأمر. كنت أرى ابتسامته اللطيفة، الواثقة. مضى مازن وعمر يبحثان معه عن سبل الوصول للكتابة. أمسك عمار خشبة صغيرة قديمة مغروزة في الجدار، أشعل النار في رأسها بعد أن دببها, راح يكتب على ورق السجائر. كانت الحروف كبيرة ومنفرة ولا تؤدي النتيجة التي كنا نرغب بها. بعد أن سلمنا ورقة الدواء للشرطة أثناء التفقد مضى عمار في البحث عن ابتكار طريقة أخرى للكتابة. جلب

أنبوبة معجون الأسنان، بلل رأسها من لعاب فمه وراح يكتب على ورقة السيجارة اسم الدواء الذي كان يتناوله سجيننا المرحوم عبد الله قبارة مع اسم المهجع مرة أخرى، ثم مزقها ورماها في الزبالة. فرحنا وكدنا نطير لهذا الاكتشاف الكبير. صار لدينا طريقة رائعة للكتابة والقراءة. لم تمض إلا بضعة شهور حتى مضى الكثير منا يكتب على هذه الأوراق قصائد من الذاكرة، خواطر تقرأ بيننا ثم تتلف وتمزق إلى قصاصات صغيرة جداً ترمى في المرحاض. قال لي الصديق راتب شعبو, الوقت طويل وميت, نريد أن نملأ هذا الفراغ بشيء مفيد. قلت, بماذا تفكرون يا راتب, هل لديكم فكرة ما في رؤوسكم. قال, لقد اتفقنا مع بكر صدقي على تعلم اللغة التركية. قلت, التركية؟ هل هذه اللغة تستحق أن نجلد بسببها؟ إنها لغة ميتة، لا تعرضوننا للمشاكل وتعرضوا غيركم للأذى. أنت تعرف المكان أكثر من غيرك، أقل خطأ سيكونون لنا بالمرصاد. إنهم يجلدوننا بدون سبب، أما إذا توفر السبب فالمصيبة ستكون أكبر. قال, أكاد أنفجر من هذا الوضع. أحس بالحاجة إلى قطع الوقت بشيء مفيد. من الخطأ أن نسمح لهم أن يتحكموا بنا كما يريدون, علينا مطاوعة المكان وتدجينه قبل أن يدجننا. قلت, أنت وبكر؟ قال, معي آخرون، عمار رزق ومازن علي شمسين وتيسر حسون. سألت, جميعكم تريدون تعلم هذه اللغة. قال, أنت تعرف إنني تعلمت الانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية, لهذا أحب أن أتعلم لغة جديدة، والتركية هي المتوفرة. لا يوجد كتب ومراجع. بكر يتقن هذه اللغة بشكل جيد لهذا نريد قطع الوقت بشيء نستفيد منه.

راح القلم.. أنبوب معجون الأسنان يؤدي وظائفه على أفضل وجه.

بعد الضرب الصباحي، بعد إدخال الطعام الصباحي والمسائي، بعد الخلاص من التفقد، من وجوههم المقرفة والمباشرة، بعد إغلاق باب المهجع والباب الخارجي للباحة يجلس هؤلاء الأخوة في زاوية ميتة من المهجع المغلق. ينطلقوا في قتل الوقت المقتول، في محاولة التعلم.. تعلم شيء يمكن أن يقدم لهم شيئاً مفيداً.

نقرالشرطي على الباب, قال, رئيس المهجع, قلت حاضرحضرة الرقيب أول, حييته ووقفت في مكاني جامداً, انتظرما يقوله من وراء الباب. قال, جهز المهجع للدولاب, للجلد. قلت حاضر. التفت إلى رفاقي, إلى عيونهم, قلت لهم سمعتم ماذا قال هذا الرخيص. قالوا سمعنا. خلعنا أحذيتنا من أقدامنا ووقفنا ووجوهنا نحو الجدار في داخل المهجع ننتظرفتح الباب كي يجلدوننا. الوجوه صفراء لا تعرف ماذا تفعل. بقينا على هذه الحالة إلى وقت التفقد, لم يأتوا, ولم يجلدوننا, لكننا بقينا في حالة انتظار. في اليوم الثاني عاد الشرطي نفسه وكررالكلام ذاته. تفعل الشرطة هذه الفعلة لأنهم يدركون أن السجناء مستعدون نفسياً, محفزون لتلقي أي إشارة صادرة منهم.

بعد أشهر، وتحديداً في 18 آب من العام 1997 جاء الشرطي ونقرعلى الباب من الخارج وقال, جهزوا المهجع للنقل.

حملنا حوائجنا وسرنا كما طلبوا منا. أخذونا إلى الباحة الرابعة، المهجع الثالث. وقفنا تحت أشعة الشمس الحارقة. عرونا من ثيابنا كما ولدتنا أمهاتنا ثم راحوا يفتشوا كل شيء يمتد إلى أيديهم. بعد التفتيش أكتشف المساعد المسؤول عن كتل من الأوراق المكتوبة باللغة التركية، كما أكتشف قطع الشطرنج والفانيلة، الرقعة المفترضة، المخطط عليها المربعات. مسكني الشرطي وجرني إلى المساعد المسؤول عارياً تماماً. قال لي, ما هذا يا رئيس المهجع, تتعلمون الإنكليزية, والله عال. لقد جلبناكم إلى هنا من أجل أن تتعلموا اللغات الاجنبية.. ثم ما هذا؟ كانت سبابته ترتفع وتمتد في وجهي ثم تنتقل إلى أوراق الشطرنج. قلت, هذه القطع للتسلية.. مجرد أوراق كانت مرمية على الأرض، أردنا أن نقتل الوقت بها، لقد قام أحدهم بثقبها بالإبرة من أجل مضيعة الوقت لا أكثر ولا أقل، لقد وعدني أن يتلفها. كان سيتلفها هذا المساء.. سنتلفها حضرة الرقيب أول. الحقيقة لم يفهم هذا الشرطي أن هذه القطع كانت من أجل اللعب بالشطرنج. لقد ركز كثيراً على أوراق الكتابة بالانكليزية، كما كان يقول. يبدو لقد استفز أن يكون بيننا ناس تتعلم لغة أخرى. لأنهم يكرهون كلمة مثقف أو متعلم, لأنه يذكرهم بغبائهم وقصر ومحدودية عقولهم. لقد جلدوني بعد أن قلت إنني لا أعرف من كتبها، ومن تعلم اللغة, أولم يتعلم, أو قام بهذا العمل. كما جلدوا مازن وبكر وراتب وتيسير. قال لي. يجب أن تعرف كل شاردة وواردة في مهجعك. يجب أن

تخبرنا عن كل مخالفة تحدث في مهجعك يا ابن الشرموطة. قلت, حاضر حضرة الرقيب أول. مضت هذه الزوبعة المخيفة بأقل مما توقعت.

كل يوم نجلس على شكل مجموعات، كل مجموعة تمتد من اثنان إلى خمسة أفراد نقص على بعضنا القصص التراثية، الحكايات الخرافية, نكات، حكايات كليلة ودمنة، ألف ليلة وليلة. زمن ميت يجب تقطيعه وشحنه بالمفيد وتبديد الوقت. كنت أغلب الاوقات أجلس تحت الشراقة على فراشي المكوم، في انتظار الإشارات القادمة من الشرطي الذي على السطح أوالباب. كل أربعة أيام أتقدم منهم طالباً ماكنة حلاقة يدوية من أجل حلاقة شعر الرأس والذقن. مع كل طلب يغرقوني بالشتائم, تتناول أبي وأمي وجميع أخواتي وأقربائي مع بصاق وبزق. كثيرة هي المرات التي كانوا يطلبون مني أن أقف تحت الشراقة, ثم يبولون علي أو يمطروني بالبصاق حتى تسيل على وجهي وفمي.

إحدى المرات جاء الشرطي من الباحة ودق بالمفتاح على الباب بصوت خافت. لم أسمع رغم أنني كنت قريباً منه. أعاد الدق بقوة أشد, ركضت نحومصدر الصوت بسرعة هائلة وقلت حاضر حضرة الرقيب أول. همس بضعة كلمات، لكني لم أسمع, تطوع الأخ والصديق عمرالحايك من أجل معرفة ماذا تحدث الشرطي. اقترب من الباب واضعاً أذنه بموازاة الباب وقال هو الآخر حاضر حضرة الرقيب أول. لم يسمع عمر أيضاً. قال الشرطي علموا أنفسكم. رحنا ننظر في وجوه بعضنا حائرون ماذا نفعل.

قبل دقائق من هذه الحادثة كان قد تم جلدي وتعذيبي. وقفت خائفاً لا أدري ماذا أفعل. قال أخي وصديقي مازن علي شمسين, سأخرج إليهم، سأجلد بدلاً عنك, أنهم لا يعرفون من هو المطلوب للجلد. قلت لا أقبل يا مازن. قال, لكنك جلدت قبل قليل. لا أقبل أن تجلد مرة أخرى. أقترب الصديق العزيزعمار رزق متطوعاً هوالآخر بالرغم من المرض الصعب والقاسي الذي كان يعاني منه. كما تقدم الأخ حكمت مرجانة وطلب مني كما طلب الذين قبله. أبعدت الجميع عن فكرة الجلد بدلاً عني. لكن مازن بقي مصراً على كلمته بكل قوة, مصمماً على الخروج بدلاً عني. وقفنا نحن الثلاثة أمام الجداربانتظار مجيء الجلاد. عندما فتح الباب صرخ الشرطي علينا قائلاً, ليخرج المَعلمون إلى الخارج، إلى الباحة. خرجنا أنا ومازن وعمر. قال الشرطي, أنا علمتُ اثنان منكم، لماذا خرجتم ثلاثة. قلت, نحن اثنان, أشرت على عمر وعلى نفسي, أما هذا، رحت أشير على مازن. قلت, لقد خرج بالخطأ. طلبوا من مازن أن يدخل. بعد أن أغلقوا الباب وراءه راحوا يجلدوننا أنا وعمر.

لم يكن يسمح لنا بالاقتراب من الباب الرئيسي للمهجع, المسافة المسموح بها كانت متران.

مرات كثيرة لا اسمع خطواتي الشرطي القادم إلى مهجعنا بالرغم من أن حواسي كلها تكون مشدودة إلى الباحة. صرت أعيش حالة وسواس قهري متزامن مع الوقت. اقترب من الباب أم ابتعد. إذا اقتربت سأجلد, وإذا ابتعدت سأجلد. لهذا أبقى متوتراً, خائفاً, مشغول الذهن في نقطتين, الشراقة في السقف والباب اللعين.

لقد أعطونا ستة كاسات ماء فارغة من البلاستيك, وخمسة صحون, وأربعة بيدونات ماء مهترئة. كنا نأكل الطعام بأيدينا في السنة الأولى من السجن إلى أن استطعنا أن نصنع ملاعق من البلاستيك. كان لدينا قصاصة أظفار. نرسم على البيدون شكل ملعقة ونبدأ بالحت عليه ذهاباً وأياباً عدة أيام طويلة حتى نحصل على قطعة واحدة. في أغلب الأحيان نختار الزوايا العليا من البيدون لقسوته وقدرته على حمل لقيمات الطعام.

عند حلول النوم كنت ألبس الثياب الداخلية الطويلة، ثلاثة كنزات قطن، معطفي المهترئ، بنطالي ثم ادخل في الفراش. لكنني لم استطع بسبب البرد القادم من أسفل المهجع, من النوافذ المفتوحة. أرجف, أنام لحظات واستيقظ لحظات, من القلق، من التوتر، من الخبط على السقف، من التعذيب الذي يمارس على السجين الذي يقف ساعتين تحت الشراقة من أجل الحراسة، من الحاجات الجسدية الضرورية كالتبول والحركة أثناء النوم, التي ترمي بثقلها علينا بقوة.

في الباحة الرابعة مكثنا عشرة أيام. يبدو أن هذا المهجع كان مخصصاً للأحزاب اللبنانية كالكتائب والأحرار, لأن أسماء الناس كانت مكتوبة على الجدران السوداء مثل انطانيوس، جورج، حزب

الكتائب. كما كانت هناك كلمات لأغاني السيدة فيروز/ إذا مش بكره، البعدوا أكيد/. المهجع الجديد كان مؤلفاً من غرفتان وشراقتين، حمام ومرحاض. من ثقب الباب استطعنا أن نرى كيف يتدرب الشرطة على الجلد. كانت توجد حديدتان مطرزتان على مقاس أقدام الانسان، مثل تلك التي يستخدمها الحذاء في إصلاح الأحذية. بعد التفقد وإدخال الطعام كانت الشرطة تجتمع أمام الباب الخارجي للمهجع وتتدرب على الجلد. كنا نبقى طوال الوقت في حالة تشنج وتعب، تبقى أعصابنا مكوية من هذا الاستنفار القلق. كما أن النعلة التي تتلقى الكوابل كانت تصدر صوتاً مثل صوت أقدام الإنسان عندما يجلد.

دقوا الباب بقوة, قالوا, أخرجوا إلى العرس.

تدفقنا إلى الباحة، إلى العرس، كأسراب الحمام الجافل، نحمل قلوبنا ونبضنا الجافل بأيدينا. قالوا, جاثياً على الرُكب بالقرب من الجدار. تعروا، أيديكم فوق أعلى رقابكم المنكسة. بقوا ورائنا صامتين مدة طويلة.

سألني قلبي, ماذا ينسج لنا هؤلاء الأوغاد من حقد. كنت ارتعد، سنابلي تكاد تتكسر من طوال الانتظار المر. في العادة يتهامس هؤلاء، يتفاهمون بالإشارات، بالخيوط السرية التي تعلموا على رسمها بين بعضهم. لم يستغرق الوقت مدة طويلة حتى جاء الخبراليقين. العرس بدأ. لبس الجلاد أجمل ثيابه، تعاويذ ورقيات، نياشين مزيفة، أوسمة سوقية فارغة، ونجوم مصنعة. قالوا, واقفاً. وقفنا كما طلبوا منا. راح كبل الجلاد يلسعنا، أصواتها تلتف حولنا مع رقرقة حرارة الصيف. تعلوا وترتفع لتمتزج بالأنين المرالخارج من صدورنا. لم يكن يسمح لنا أن نرفع أيدينا إلى الأعلى أو نلتفت إلى الوراء. كانت الضربات تأتي متواترة وغيرمنتظمة. نحس بهواء الكبل وهويرتفع في الهواء، إلى الأعلى ليهوى على الظهرأوالرأس. ولأننا لا نعرف من منا سيتلقى الضربة, لكون وجوهنا باتجاه الجدارومنكسة. لهذا نحس باللسعة عندما يمتزج الكبل بلحم الظهر. تأوه أحدهم من الشبق. قال, بعد أن رأى سيلان الدم والبقع الزرقاء والحمراء على الظهر وجوار الرقبة, أجلبوا ماءً من المهجع. تنطح البعض منا وجلبه. قال له, بللهم. راح يرش الماء على ظهورنا من أجل تبريد اللون المقدس، لون الشهوة، اللون الأحمر النازف. تركونا في الباحة جاثمين على ركبنا في حراسة الذين على السطح. راحوا يعذبونا بطريقة ممنهجة. قالوا, منبطحاً. ازحف على الأكواع والركب. رحنا ننفذ ما يقولون. زحفنا على أرض الباحة إلى أن سال الدم من أطرافنا. صرخ علي أحدهم, رئيس المهجع. بعد أن حييته ووقفت باستعداد. قال, أذهب إلى هناك، إلى عند الذي في الزاوية، ليقف. بعد أن وقفت مقابله وجهاً لوجه رحنا ننتظر ما يأمر به هذا الشرطي. قال, ابصق في وجهه، وجه الختيار، الشايب الذي أمامك، أبوالشعر الأبيض. وقفت مذهولاً لا أعرف ماذا أفعل. قلت حضرة الرقيب أول, الختيار رجل كبير في السن، إنه بعمر والدي وجدك كيف تريدني أن ابصق في وجهه. كنت أتكلم معه ووجهي منكساً، لا أستطيع أن أرفعه. /رفع الرأس في سجن تدمر تعتبر جريمة كبيرة في نظرهم/. قال, يا ابن الشرموطة علّم نفسك, هنا لا يوجد أبوك أوجدك, أنت أقل من حشرة، أنتم حثالة, تتكلم معي وكأني صديقك, ستدفع ثمن هذه التفوهات بعد قليل يا ابن الزنى. قلت, حاضر حضرة الرقيب أول. أردف, ابصق عليه, على الختيار. وقفت مصدوماً بينما الشرطي يتابع صراخه وصياحه, ستبصق, ابصق يا ابن الشرموطة, ابصق يا ابن القحبة, ابصق يا خائن، يا عميل. وقفت لا أدري ماذا أفعل، محتاراً في أمري. وقفت أنظر إلى وجهه الذي يكسوه البياض, إلى شعره الأبيض، الاشيب، إلى ملامحه، سنه الكبير، التجاعيد التي رسمتها السنون والأيام على جبينه وصدغيه وقامته المنحنية. أقرأ تضاريس الزمن ومخلفاته على شرائح وجهه ورأسه وقلبه. كانت الشرطة واقفة تنتظر المهزلة.. تنتظر أن تمارس هذيانها وهزيمتها على نفسها من خلالنا.

كنت مدركاً إنهم يريدون كسرنا، كسر أروحنا، كسر روح الرفض في دواخلنا. إنهم يريدون أن يكسروا لون الإنسان الجميل فينا، يدمروا جمال الحياة في قلوبنا.

أدرك ذلك تماماً. لكنها لحظات صعبة للغاية أن تتحدى سلطة جائرة تمارس عليك كل قسوتها وسطوتها وأنت لا تملك شيئاً سوى أن تقول لا.

ساد الصمت الكامل في هذا الخلاء المغلق والمطلق.

تناهى إلى سمعي صوت حناجر مرقرقة، صنوج عذبة، صوت أطفال صغار. نسيت نفسي، غرقت أذني في بحر آخر.. لم أستيقظ منه إلا على أنغام موسيقية صادحة بألوان الطبيعة، متناثرة على مساكبنا، روائح النعناع البري وخلائط الختمية والزعتر والشيح مترافقاً مع صوت ناعم جميل، فيه هسيس الطبيعة وحفيف أشجارها الحنونة. صوت يصدح بنداء الحياة قادماً من وراء الأفق ملفوفاً بالحناجر الوردية المزنرة بنبض الفجر وهوائه. أيقظني هذا الصوت من وهاد الحلم المرعب، من كابوسي، حملني على مجاديف الشمس وحطني فوق أشعتها الصباحية. صوت رقيق ناعم كانسياب الماء في الماء في مجراه الآمن، مثل النسائم الربيعية وهي تتناغم ببعضها، كضربات الناي على القصب. صوت رسل الرحمة جاء من وراء الأسوار.. صوت متناغم مع حفيف الشجر وثغاء الغنم.. صوت الطبيعة الصافي الندي والرقيق.

صوت الأطفال الصغار، صوت أطفال مدينة تدمر يأتي عبر سحابة الصيف النائمة وراء الواحات، مرشوشاً بماء الزهر. وقفت استرق السمع برهافة وقلق. نسيت الشرطة ورفاقي والجلاد والباحة والدنيا والكوابل وراحت ذاكرتي في شرود:

رحت إلى الخابور والبور، إلى طفولتي، الصفصاف والزل وغزلان براري الجزيرة الخضراء.

في ذلك الشفق الحلو، كنت أجدف القارب مع والدي. كان الفجر خمراً بلون النبيذ المعتق، رخواً، كسولاً، بسيطاً وساذجاً. مشغولاً في رفع غطاء الليل عن وجهه. يبعد النجوم المرصعة في السماء عن دربه في صمت أقرب الى السكون. كانت الأرض ناعسة، مسترخية، متكئة على نفسها، إلا من بعض الأصوات الخجولة التي تأتي من هنا وهناك. تستيقظ طيور الصباح، تغرد بهمس أقرب إلى الهسيس الخجول، كأنها تستأذن القفر للتناغي والمسرة. خوار الأبقار يتناغم مع نقيق الضفادع، الصقور والشواهين في صمتها السكوني، الجمال والمعيز في طريقها إلى المراعي.

صوت الخابور ينهض في لبي من غفوته ليحلق ويطير.

كنا نجدف الهوينة، ليأخذنا القارب على مداه. يشق طريق سيره عبر الانسياب المرن. قال والدي:

ـ لنسر في الجوف، وسط مجرى النهر، إلى المكان العميق. علينا أن نسيطر على التيار القوي. اجلس في مكانك، حاول أن تساعدني حتى نرفع الأغصان الكثيفة، رؤوس الدغل والحرش، ميل بجسدك نحو اليمين، انحني قليلاً، أحمل الأوراق النازلة إلى الأسفل. ها.. اقتربنا من الركن الأخضر للنهر، لندخل هذه البقاع الجميلة من أرض بلادنا الخلابة تحت ظلال الماء والأشجار المتنوعة. لنرى ما بها. سنحاول أن نتعرف ونستكشف الأسرار الكبيرة للخابور وما يختزن في جوفه من قوة ورباطة جأش تاريخي. تمهل. أفرد جسدك وتمدد حتى لا تصطدم بالأوراق المدببة، حتى لا تجرح نفسك. دع الماء يأخذنا إلى الأمام.

كان والدي يعن من التعب، مشغول البال، لخوفه أن نتوه ونضيع. كان مرعوباً من أن نتوه ويبلعنا الخابور. مغموساً بالاستسلام، يختزن جوفه الهزيمة قبل أن نبدأ. كنت أقول لنفسي من أين يأتيه كل هذا الخوف. طلب مني مرات كثيرة أن أصمت وأدقق النظر بكل شيء. يحذرني من الأفاعي وجريات/ نوع من السمك/ الماء وأنواع كثيرة من الحيوانات المنقرضة. يلتفت كثيراً إلى اليمين والشمال. يلتفت ويراقب فيما حوله بتردد، يرفع رأسه إلى الأعلى ويخفضه إلى الأسفل بسرعة كبيرة خشية أن يهجم علينا شيئ خرافي غامض. كان يتجه بمحاذاة الحواف على مسافة غير بعيدة من أشجار الصفصاف الملتفة. في كل خطوة يهتف أنتبه، أسمع، لا تتحرك كثيراً، هناك، وقع، حركة، غموض، غامضة، هس.. هس، ابتعد، أقترب، أبقى في مكانك، تعال إلى هنا، استند على أخشاب القارب، أمسكه جيداً حتى لا تقع وتغرق، ربما.. ربما تقع ولا أستطيع إنقاذك. وراح يجدف، ويقول:

ـ دعنا نجاهد أكثر لنبعد أوراق الزل من طريقنا. الآن التيار قوياً ورشيقاً، واثقاً من قدراته على حملنا، سيتولى أخذنا على جسده وظهره، سيسير بنا، يدفعنا إلى الأمام. أحس إننا على الأعشاب الناعمة الطرية. أنظر إلى الشمس كيف تبزغ، كيف تطل وتجلس في حوض السماء مثل بقعة منيرة، أنظر إلى أشعتها كيف تخترق فراغات أوراق الاشجار العملاقة وتتسلل منها بشكل متقطع.

صمت والدي وراح يعدل من مكان وقوفه. يبدو إنه تمالك الشجاعة بعد أن رأى النور المبهج في قبة السماء لهذا مضى يقول:

ـ اصغ جيداً. اسمع. أصوات الطيور المختلفة، راقب أعشاشها الصغيرة في جدوع الاشجار. يوجد هنا الكثير من السلاحف والنوارس والطيور الصداحة المختلفة، عصافير وبلابل وشحارير وعلى مبعدة قليلة توجد الثعالب والذئاب والغزلان الخابورية.

ثم مضى التيار يأخذنا الهوينا على الراح

صار الجو منعشاً، يبدو أن الشمس ودعت خجلها وجلست تنظر إلينا من شرفة السماء. وبحركة غريزية بسيطة دفع والدي القارب بمساندة العصا إلى الضفة اليمنى قال:

ـ أنزل معي إلى الكيش، مستوى النهر مع منسوب الأرض. تعال نسحب القارب ونضعه هناك. كان يشير إلى جهة حيادية، مهزومة، مسترخية على الضفة، تجلس على الطرف وتداعب بقايا الماء. قال:

أمسكْ هذه السنارة. أسحبها، شدها الى صدرك، يبدو أن حظك اليوم جيداً، علقت سمكة كبيرة بين براثنك القوية. أسحب الخيط أكثر، أنظر كيف ترقص في الهواء، أخرجها إلى البر، ها هي بين يديك. أمسك السمكة العالقة وحرر فمها من السنارة، لا تدعها تفلت منك. أمسكها جيداً حتى لا تنزلق من بين يديك الصغيرتين، الناعمتين. مد أصبعك في فمها وتعرج لتصل الى غلاصمها. ثم شد عليها بشكل جيد. دع زعانفها وذيلها يسبحان في الفضاء.

كان الجميع واجمون ينظرون إلي باستغراب. كنت في شرود.. استيقظت على صوت الشرطي وهو يصرخ بصوت عالي.. يا ابن الشرمو.. يا أبن.. قلت لك ابصق في وجهه. أين أنت! إنك تخالف الأوامر والتعليمات. حسابك عندي يا خائن. ثم راحت أصوات الشرطة تتعالى من كل الأطراف.. ابصق في وجه الختيار يا عرس.. يا ديوث.. يا مني.. يا ابن المنيو..

قلتُ له:

أين السمكةَ؟!

عادت ذاكرتي إلى محلها. صار وجه أبو نجم في وجهي، عيناه في عيني. رغاء حنجرته في فمي، ورغاء حنجرتي في فمه, كلانا بصق في وجه الآخر, على قدرنا القذر. بصقتُ على نفسي، عليه، على مصيري، مصيره، مصيرنا ومصير بلادنا، بؤسي وبؤسه وبؤس بلادنا ووضعها.

قال الشرطي, أنت الذي يلبس البيجاما الصفراء، أذهب إلى المهجع وأجِلب ماء. قال عمر, أبو البيجاما الصفراء بعد عودته من المهجع خالي الوفاض، بيدونه فارغاً، مرفوعاً في الهواء. الماء مقطوعة حضرة الرقيب أول. قال الشرطي, أنت تكذب، لا تريد أن تجلب الماء إلى الباحة. ثم نادني وقال, اذهب وهات الماء. رحت ركضاً, كان الأخ ياسين الحاج صالح يحاول أن يملأ بضعة قطرات من الماء من الحنفية المقطوعة في البيدون. قال, خذ هذه القطرات وسد فمه بها. أخذت البيدون وخرجت. قلت للشرطي الذي على السطح, فيها بضعة قطرات لأن الماء مقطوعة. التفت الشرطي إلى عمر وقال له, انبطح على الأرض يا أبو البيجاما الصفراء, ثم طلب من أبو البيجاما الزرقاء أن يصعد على ظهره. رفض أبو مالك، مصطفى حسين الصعود على ظهر عمرالحايك. قال له الشرطي, اصعد على ظهره يا ابن, شتائم بكل المفردات. لكن أبوالبيجاما الزرقاء لم يقبل أن يتزحزح عن موقفه. ظل ساكتاً، لا يتكلم ولا يتحرك، نظراته الهائمة تجول في المكان، فيها مليون سؤال وسؤال. التمت الشرطة كلها على السطح، راحت تصرخ بعالي الصوت:

نفذ الأمريا ابن الشرموطة, اصعد على ظهره يا ابن القحبة, نفذ الأوامريا ابن المنيوكة. لكن أبو مالك لم يرد، لم ينفذ الأوامر المقدسة. صرنا نحس أن الإدارة كلها صارت على السطح من كثرة الصراخ والهياج والزعيق. طلبوا مني أن أطلب منه أن ينفذ الأوامر. لكنه رفض أن ينطق بحرف واحد. بقي صامتاً تماماً، ساكناً في مكانه. اقتربت منه وتكلمت معه همساً، طالباً منه أن يصعد على ظهرعمر. كان وجه مصطفى مغسولاً من الألوان، لم أعرف شكل اللون الذي استقر عليه، ينظر إلي بعينيه عبثية مثل

ذبيحة على أبواب النحر. دون أن يرد علي. قلت له, ستكون الفاتورة مضاعفة يا أبومالك, حاول أن تفهم أننا بيد مجرمين، لن يتورعوا عن تصفيتنا، ضعها في بالك. لم يغير أبومالك موقفه وبقي واقفاً لا يتكلم. قال الشرطي, ادخلوا إلى المهجع.

لم تمض إلا بضعة لحظات حتى سمعنا صوت القارس وهو يرتطم بالأرض علامة على مجيئهم إلينا. الكوابل تضرب الحيطان. راحت قلوبنا تقرع في داخل قلوبنا من الخوف والاحتمالات الغريبة الغامضة. قلت للمهجع في لحظة غضب, سأبلغ الشرطة أن أبا مالك رجل مريض بالانفصام، حتى لا يجلدوا الجميع، وإنه بحاجة إلى العلاج. جاء صفوان عكاش إلي وقبَل رأسي وقال, لا تخطئ يا صديقي, ستعرض أخينا ورفيقا وصديقنا مصطفى حسين للأذى. أرجوك فكر جيداً أن ما تقوم به خطأ جسيم. سيدخلون بيننا، سيتسللون بيننا، سيكتشفون أسرارنا ويفككوا اللحمة التي بيننا. لا تتركهم يعرفوا أي شيء عنه, لن يرحموه أبداً، لن يعالجوه كما تظن وتتصور، سيزيدون عليه، علينا. سيعذبوه أكثر. سيزيدوا جراحه ووجعه، سينفردوا به كل يوم ويعذبوه. لا تتهور, أرجوك فكر قبل أن تقدم على فعل لا تحمد عقباه. تذكر, إنهم متذمرون منا، لأننا لا نتعاون معهم، لا يعرفوا أي شيء داخل المهجع. إنك تفتح الباب لهم ليدخلوا من خلاله، يخربوا علاقاتنا. إنهم يريدون أن يعرفوا كل شيئ عنا. ثم تعالت أصوات كثيرة من الأخوة أن ما يقوله صفوان صحيحاً. قلت, حسناً, يبدو إنني مخطئ، لا أدرك مخاطر عملي. إن ما تقوله، ويقولوه أخوتي في المهجع صحيحاً. سنرى ما نستطيع أن نفعله. فتح الباب ودخلوا، راحوا يصرخوا ويضربوا الجدران بالكوابل, وجهك إلى الحائط, رأسك في الأرض يا ابن.. شتائم بالجملة والمفرق. وقفنا في الجهة الغربية من المهجع. صاح الشرطي علي أن أذهب إليه. قال, ماذا لديك يا رئيس المهجع؟ ماذا حدث عندك؟ قلت, أبو البيجاما الزرقاء لديه أوجاع في ظهره، ديسك, ولا يقوى، لا يستطيع الوقوف على ظهر أبو البيجاما الصفراء. قال الشرطي, هذا هو الموضوع، لا شيء آخر. قلت, لا أدري إن كان هناك شيء آخر. لا يوجد شيء آخر حضرة الرقيب أول.

كنا مستعدين نفسياً على أننا سنجلد جميعاً لا محالة, ننتظرالإشارات التي ستصدر منهم. قال الشرطي, ليخرج أبو البيجاما الزرقاء والصفراء إلى الباحة. بعد أن خرجوا، أغلقوا الباب وراءهم. جلدوا عمر الحايك ومصطفى حسين.

بعد أن جلدوهم أخرجونا إلى الباحة. قالوا جلوس. بعد أن جلسنا، تركونا تحت لسعة الشمس الحارة, لتتولى الشرطة الذين على السطح في إكمال المشوار. قال الشرطي, ضعوا شرفكم في أفواهكم, كل واحد منكم يضع حذائه في فمه، شرفه في فمه. أيدينا وراء ظهورنا وأحذيتنا في أفواهنا, رؤوسنا منكسة. كل لحظة يذكرونا, أنت أبو اللون الأخضر ثبت شرفك في فمك, أنت أبوالصدرية البيضاء أنزل شرفك من فمك دقيقة واحدة مع ضحك رخيص وفاجر. رفع أبو نجم يده إلى الأعلى ووجهه منكساً وقال, حضرة الرقيب أول. قال له الشرطي ماذا لديك يا ابن المنيوكة:

ـ لا أستطيع أن أضع حذائي في فمي. قال:

ـ لماذا يا ابن الشرموطة لا تستطيع أن تضع شرفك في فمك؟

ـ لا توجد أسنان في فمي يا حضرة الرقيب أول. طقم أسناني لا يستطيع أن يحمل شرفي. تعالت ضحكاتهم وصراخهم وراحوا يشتموه بكل الكلمات البذيئة والرخيصة. ثم راحوا يطلبوا منا أن نعوي مثل الكلاب أو ننهق مثل الحمير أو نموء مثل القطط, بينما الحذاء في فمنا لا يبارحه.

ثم ماذا أقول, هذا هو الاستبداد, هذه هي سورية الحديثة.

المشكلة أن البعض يتحدث عن العدالة الاجتماعية, أنا لا أدري عن أية عدالة اجتماعية يتكلمون وأمامهم جبل عالي من الخراب على كل الصعد. هل تداول السلطة تتنافى، تقف عثرة أما العدالة الاجتماعية. قبل هذا وذاك عليهم أن يعيدوا شيء من كرامتهم الإنسانية التي أنتهكها هذا السلطة، بعدها ليقولوا ما يريدون قوله. يبدو أن الاستبداد لم يعلمنا شيئاً، لم يعلمنا أن كرامتنا البشرية تحت الحذاء.

مضى الشتاء يطوي جناحيه ويرحل.. وعاد الربيع خميلة صداحة، فراشات راقصة، فرح ينثر حنينه على حواف السماء والتراب وأوراق دوالي الماء. يمشي كرعشة في خدرالأرض، كحلم حنون، كزهر من جمرالأمنيات. ولد من خاصرته قمراً من سليل الضوء يترصد الألوان المعرشة بلون ذاته. عادت الروائح العبقة تستيقظ من غفوتها لتملئ الدنيا دفئاً وتألقاً.

همت العصافير بالرحيل إلى الحنين، إلى براعم الغصينات النائمة على نتوءات الزهر المنبهق من طفح الحياة، إلى الحنين المسافر إلى المجهول، إلى البحث عن لغة تترجم ضوضاء الضوء والوجود والبقاء. على أجنحتها قناديل مضيئة من أشعة الشمس وزرقة السماء.

رحلت من مهجع المستوصف ولم يبق معنا إلا عصفوراً واحداً هدية من الطبيعة.

فروا بريشهم من الضجيج والضوضاء، من الضوء المتيقظ طوال الليل، من زعيق الشرطة وحركة أقدامهم التي لا تنام أو تهدأ. لقد بقي ذلك الجميل، ذلك القادم من أسراب المدى في الجهة الغربية من المكان، بعيداً عن الضوء واللهب، يستغرق في البحث عن الطمأنينة المعلقة في مئزر الحيطان، ينحو نحو النوم في العتمة العتيقة البعيدة عن الشراقة لاعتقاده إننا راحلون لا محالة إلى رحيل آخر.

لا أدري لماذا استأنس ذاك الجميل البقاء معنا.

ينثر الضوء على الفجر ضياء ويرحل نحو أفق البادية ويعود مساء، نافشاً ريشه المخضب بلون الحياة والسعادة, يزقزق في الهزيع الأخير من النهار.

كنا ننتظر مجيئه بفارغ الصبر ساعات طويلة من أجل التواصل معه، مع الطبيعة، مع ذاتنا. أقف مذهولاً على قدرة هذا الكائن على لملمة بقاءه على هذا الخلد الجميل, الكون, بمنتهى الدقة والرقة والذكاء، لا يخزن طعامه ولا يحمل معه أي شيئ. يأكل إلى أن يشبع ثم يرفرف طائراً إلى حيث الماء والسماء والأرض، إلى حيث ضحك الأطفال. كان نذراً من السماء، غواية، عذوبة الوجود والحياة بيننا في ذلك الامتثال الصعب، حضور شهي للحرية.

بوجوده نحس إننا في هذا الوجود، في هذا الكون المبهر المتألق.

نظل مسمرين في أماكننا ننظر إلى وجه الحياة في وجهه وعينيه، إلى ريشه وجناحيه، إلى السعادة في عينيه، نفرح لفرحه، للقائه الماء والصباح والكائنات الأخرى. نفرح للقائه النبض الآخر منا في الحياة، تلك التي نحن منها. يبادلنا البسمة بالبسمة والسعادة بالسعادة. ينفش ريشه، يزقزق بصوت عالي، ناقلاً نظراته إلينا، معبراً عن امتثاله للغناء، للطرف الآخر من الحياة، امتلائه بها من مكان إلى مكان كأنه يقول لنا, لقد زرت الواحات والأشجار، النساء الجميلات وساحات لعب الأطفال, لا تيأسوا فالحياة ما زالت في خلدها، على إيقاعها، باقية تغني للفجر والصخر، للبحر والنهر، لكم، للقادم من الأيام، للأفاق الأخرى.

كل يوم يخرج من النافذة، ونخرج إلى الباحة.

هو إلى الحرية، ونحن إلى صناع الموت.

هو يرفرف في السماء ونحن ننحني ونركع لأحذية السلطان.

كل يوم يخرجونا إلى الباحة، بعد إدخال الفطور، أربعة أو خمسة منا، يجلدوا أمام مرأى الشمس والضوء، تحت قبة السماء، بالكوابل المطاطية المحلزنة بالاسلاك المعدنية، ملفوفين بالدولاب الأسود الدائري. بعدها يرموننا تحت حرقة النهار لتتولى إكمال تعذيبنا.

كان حدود الضرب يبدأ من الثلاثين كبلاً إلى المئة وخمسون تقريباً.

صارت أعصابنا متعبة، مرهقة, لا نعرف ماذا نفعل. سلمنا قدرنا للقدريشكل نهاية مأساتنا. لقد أثقلت الجراح والأوجاع أجسادنا، وغرزت آلة القمع ثقوبها في نفوسنا وخلفت ورائها سوداوية لا تزول مع مرور الأيام والسنين.

ثقبت أذني أكثر من سبعة إلى ثمانية مرات, ما أن تلتئم حتى تتمزق. أضع ورق المحارم داخل أذني حتى تتمكن من تلقي الصدمة بأقل قدر من الأذى والوجع. دائماً الجهة التي كانت تتعرض للتمزق هي اليسرى. إحدى المرات بينما كنت مستعداً للصفع على الجهة اليسرى، مغمض العينين ورافعاً رأسي بناء على طلبهم. جاءتني صفعة الشرطي على الجهة اليمنى لأنه كان أعسراً. لم أكن قد وضعت شيئاً في أذني اليسرى لحمايتها، حتى أتمكن من سماع ما يقولون. من الصفعة الأولى وقعت على الأرض وتمزق غشاء الطبل في الجهة اليمنى مني، وكانت اليسرى مممزقة قبل هذه بيوم واحد. صرت أمشي كالأثول أو السكران لا أستطيع أن أتوازن ولا أعرف ماذا أفعل.

في/23/ تشرين الأول/اكتوبر/ أخذوا الأخ فراس يونس لانتهاء مدة حكمه/15/سنة. وفي /19/كانون الأول من العام نفسه/1996/أخذوا الأخ ياسين الحاج صالح أيضاً لانتهاء مدة حكمه/15/ سنة مع إضافة سنة أخرى لرفضه الشروط. وفي /14/ كانون الثاني من العام 1997أخذوا يوشع الخطيب لإنتهاء مدة حكمه/15/ سنة

في شهر أيار من العام 1997 أخذوا أسامة عاشور وعبد الكريم عيسى/15/سنة و/14/ سنة على التوالي.

راح عددنا يتناقص تدريجياً.

صار عددنا /17/ فرداً. وبقي الضرب والحراسة الليلية موزعة على العدد المتبقي.

تم الاحتفاظ بتيسير حسون وبسام بدور الذين أمضوا ثمانية أعوام في السجن. لقد أبقاهم النظام في السجن مدة سنة إضافية عن الحكم الذي أقرته محكمة أمن الدولة.

في 28آب من العام 1997 تم نقلنا إلى الباحة الثانية, المهجع الثاني. مساحة المهجع لم تتجاوزالأربعين متراً مربعاً.

المكان أشبه بزريبة، حظيرة مرقعة الأوصال، موصولة بشكل هجين، غرفتان صغيرتان إحداهما تجلس تحت الشراقة أما الثانية فهي معتمة، المرحاض يجلس في إحدى زواياها. ينام فيها ثمانية أفراد، ويجلسون النهار كله فيها على فرشهم تحت رحمة الظلمة وقتامة الجدران ورائحة المجاري المتصاعدة من فوهة المرحاض الذي لا يتجاوزالثمانون

سنتيمترفي متر, وعلى مدخله الصغير مجلى الصحون والكاسات البلاستيك وبقية أدوت الأكل. هو مرحاض ومطبخ وجزء من الغرفة مركون في الزاوية. أنه شيء كريه للغاية.

كان المهجع حماماً للشرطة أو السجناء فيما مضى من الوقت. مبنى قديم ومقرف. لقد بنوا جداراً فاصلاً ما بين المهجع والباحة بطول خمسة أمتار وعرض متر واحد من أجل توسيعه، عليه نافذة مسدولة بساتر من النايلون المصنوع بأيدينا. كنا نجلس في هذا الممر الضيق بعيداً عن الشرقة اللعينة لتقطيع الوقت وتمريره.

لقد نقلونا أكثر من مرة من هذا المهجع الكريه ثم أعادونا إليه.

إنه خيمة الموت، وشاح مسربل بالعتمة الداكنة. يذكرني شكله بالجبانة، بالقبر والموت المؤجل. يرمي في داخلي إحساس بالكآبة والحزن والنفور, خطوطه وشم مطرزبالمرارة، ينحو في الخفاء إلى إطفاء الصوت الآخر منا، من الحياة, يترك انزواء الموج داخل نزيف دمنا، ليخبو كضوء النيزك في صدورنا. يعمل المكان على ترويض أرواحنا وتسكين نبضها لكي تهبط إلى مزالق بعيدة لتتواطأ مع السديم. أقول, ما هذا المكان، ما هذه المصيبة التي تنتظرنا. مكان مغلف بالجدران العريضة، السميكة السوداء، تتصدى لتقزيمنا في مساحة ميتة من العالم. زريبة أو حظيرة موت، تستحضرالتفنن في تذويبنا، تذويب لون الأفق فينا. لا يمكن لابصارنا أن ترى سوى الجدران على أبعد طول لا يتجاوز

الأربعة أمتار. لا يمكن للإنسان أن يتنفس في هذه البلادة المكدسة، في هذا المكان المغلق من كل الجهات.

المكان وحده كان كاف لتمزيقنا من الداخل.

هل يعرف المرء ماذا يعني أن لا يرى الإنسان بقعة مضيئة، لون مبهج، أن لا تطأ قدمه ندى التراب الندي ورطوبته مدة طويلة من الزمن. أن يعيش فوق بقع الجفاف حتى يجف نسغه وصورته. كم حننت لملمس التراب الطري الحنون, لمداعبة المطر، أقراص الماء الحنونة, ملامسة الندى أيام الربيع.

كانت هناك بقعة ضوء صغيرة, بحدود سنتمترين, تتسلل من تحت الباب. خلاء منذور للصورالمختفية. تأتي من وراء الجدران. يحفزان مواسم الجنون, يتمدد على صقيع أيامنا ولياليناا. عندما نريد أن نأخذ مساحة فرح نتمدد على الأرض، ننبطح لنرى بعض العصافير من تحت الباب كيف تأكل وتتحرك وتطير.

هذه اللحظة كانت الأجمل في يومنا الطويل، نهرب فيها من الصمت والقرف.

في الثامن من حزيران من العام/1998/أخذوا الذين قضوا في السجن المدد على التوالي, مصطفى حسين/15/ سنة وثمانية أشهر, صفوان عكاش وبكر صدقي وعزيز تبسي/15/ سنة وثلاثة أشهر, الحارث النبهان/13/ سنة وثمانية أشهر, أديب الجاني وحسين السيبراني/10/ سنوات وستة أشهر, تيسيرحسون وبسام بدور/9/ سنوات وشهر.

وبقينا ثمانية أفراد.

في /15/ تموز من العام ذاته جلبوا سلامة كيلة ونعمان عبدو، محمود عيسى وجريس التلي ومحي الدين شنانة.

مضت الأيام تمضي رتيبة، مملة، متعبة لقلة العدد وللعبء الذي نحمله على أكتافنا لقلة عددنا.

قي الشهرالسابع من العام/1999/ أخذوا راتب شعبو/16/ سنة ومحي الدين شنانة /13/ سنة وعبد الله قبارة /12/ سنة وبعدهم بشهر ونصف أخذوا حكمت مرجانة/12/ سنة وفي نهاية الشهرالعاشر أخذوا محمد خير خلف/ 12/ سنة, وفي 22آذار من العام/2000/أخذوا سلامة كيلة.

بعد وفاة حافظ الأسد بشهرين تم الافراج عني بعد أن أمضيت/13/ سنة في السجن.

كنت أمشي مع مازن داخل المهجع, عندما دق الشرطي على الباب, قرأ اسمي دون أن يوضح أي شيئ. قال, اجلب كل أشياءك الخاصة واخرج. طمشنت وجهي وعيني وخرجت. أخذني مسافة, قال قف هنا. تعرى من ثيابك, وأبقى كما خلقتك أمك. باعدوا القدمين واليدين, مدوا أيديهم في فمي وأسناني وراحوا يفتشوا الأماكن الداخلية مني. وصلوا إلى مؤخرتي، راحوا يعبثون بها. بقيت واقفاً, عارياً مدة ساعتين تقريباً. كل واحد منهم في طريق ذهابه أوعودته يطرزعينيه في جسدي. لم يكن معي إلا بقية اسمال بالية.

في طريق العودة إلى الحسكة عرجت على المطعم في مدينة تدمرلأشرب كاساً من الشاي مع القليل من الخبز. دخلت إلى الحمام لأغسل يدي ووجهي. رأيت مرآة معلقة على الجدار. لأول مرة أرى وجهي بعد سنوات طويلة. يا هول ما رأيت. قلت, ما هذا يا إلهي, ماذا فعل بي الجلاد. أين وجهي وشعري ولون الفرح في أهدابي. أين تلك الابتسامة المحلقة فوق باقات الورد على خدودي.

وجه أصفر جاف، متعب، منذور للضياع والتشتت، كثير التغضنات والتجاعيد، خال من أي لون له علاقة بالحياة أو يشي بالحياة. وجه عصبي الصورة، أنواله مقطعة الأبعاد، فيه حفر كثيرة موزعة على قسماتي هنا وهناك. تزحف على خارطة جمجمتي أوردة كخطوط متنافرة، كخرائط متباعدة. وجه مرتبك خال من أي لغزأوتعبير، ينزع إلى المتاهة، إلى حكاية عارضة. خيال عابث بلا حلم أو أمل، خطوط الشرايين فيه قاتمة.

ذهول قاتم شدني إلى الخوف من وجهي الجديد, المقطع, من صورتي. وقفت مذهولاً من ذهولي على نفسي، استطلع الآهات التي تخرج من كبدي على شكل صرخات تحفز الصرخة، تحفر في داخلي

وتخرج مني على شكل كلمات مخنوقة مقطعة فيها بحة مسروقة ترتد إلى داخلي. قلت, آه.. ما هذا؟ ماذا حدث لي؟ ما هذا الوجه؟ هذا ليس أنا؟

هذا ليس وجهي الذي أعرفه. إنه وجه إنسان غريب، مدمر. خرائب العالم كلها مكومة فيه. هذا الوجه وجه إنسان خرج من بين الأموات. يا رب, كيف, ولماذا تركتهم يفعلوا بي كل هذا. كيف استطاع الجلاد أن يسرق قسماتي، وجهي القديم، النضارة والشباب والجمال، هيكلي، وإشراقة الروح في قلبي. رحت أكثرالنظر وأقول, محا الجلاد لوني المتماوج النقي، اللون المخضب الفاتح المملوء بالحيوية والنشاط, واستبدله بالظلال السقيمة والسقم. أجفاني مهدلة، عيناي منكمشة على بعضها منغرزة ككتلة مهملة في المحجرين. فمي رخولا يقوى على نقل الكلمات، والشيب يغطي شعري. وجه ما بين الموت والحياة، فيه اغمضاضة الروح، مكسر الشريان والصوت.

حفر فيه زمن الجلاد عميقاً. قلت في نفسي, كيف سأقابل أبي وأبي والناس بهذا الوجه المشوه، هذا الوجه المأسور، كثير الرضوض, مرسوم لصدى الموت العميق. لقد حفرفي كل خلية مني دملة وقيح. وجهي مثل مدينة مهزومة، مدمرة، كثيرة الخرائب والحرائق, محفور بأزاميل صدئة. ماذا بقي مني؟ هل أنا مهزوم أم واقف على قدمي، هل أدري أم لا أدري.. لا أعرف.

آه يا آه, كيف سأقابل حبيبتي بهذا الوجه الأبتر، المسحوق، المسحوب اللون والصورة. من أنا اليوم، ومن سأكون غداً، وكيف؟ طوفان من الخراب يسكنني، قرون من التعب مغروسة في خدي وصدغي وجبيني وجبهتي وملامحي.

من أنا..

إنه التأريخ الأعرج الذي يسير على قائمتين مكسورتين.

أما نحن فلا قامة لنا تحمينا من مجوس القهر المستمر.

أمعنت النظر في المرآة أكثر, رأيت نيرون بجانبي، في الجهة المقابلة لجهتي، إلى الوراء، على الميمنى والميسرى، محتلاً كل المساحة التي أنظر فيها إلى نفسي. كان واقفاً بكامل قامته، وزينته وسطوته، سيفه خارج غمده، مشرع. صولجانه بيد وعصاه بيد. ينظر إلي مبتسماً ابتسامة صفراء صارخة. وعلى مبعدة قليلة منه كانت روما تشتعل تحت لهب أسود. حرائق روما الملتهبة، دخانها في أنفي وفمي، صوت الاستغاثات الموجوعة للموتى والجرحى والمنكوبين في أذني. النارتتأجج وتشتعل، تأكل الأخضر واليابس. وبجانبه وجانبي وجه أمه الحزينة متعفنة، معلقة على الشجرة، تأكل الغربان قلبها وعينيها. كان ينظر إلي ضاحكاً ويلتفت مشيراً إلى والدته، المنكوبة، المقتولة على يديه. صرخت في وجهه، قلت, لماذا قتلت والدتك يا نيرون؟ قال, من أجل اللذة والعنة. اللذة والعنة هي السبب. أنا مصاب بالعنة وحب المجد, العنة تمنحني الشهوة واللذة وترفعني إلى الأعلى، إلى فوق. هذا العنين سيبقى، وستبقى والدتي متعفنة، معلقة على الأشجار. وستبقى المدن محترقة والأشجار مقصفوفة، الأنهارإلى جفاف، والبحار إلى رماد وكل شيء إلى خراب إلى أن يبث الزمن في الأمر. لا تحزن على نفسك يا هذا، مازال الطريق أمامك طويلاً، الأمراض الكثيرة في طريقها إليك. ستفتك بك. ستلاحقك الغربان والغربة. ستبقى عتمة السجن داخل داخلك, داخل نفسك، لن تخرج منها. ومضى يقول ساخراً, الذين في الخارج ليسوا أقل خراباً منك، أكاد أقول أن وضعهم أسوأ منك.

خرجت مكسور النفس، متوجساً، قلقاً، متعلثم الكلمات لا أقوى على هضم كسرة الخبز التي أمامي.

سارت بنا الحافلة. كان السائق ومعاونه يتكلمان معي، يحاولون أن يخرجوني من صمتي وانطوائي على نفسي. يسقوني الشاي بين الفنية والأخرى. في استراحة دير الزور قدموا لي وجبة طعام على حسابهم، رز وفخذ دجاجة. قلت له أيها الأخ الصديق, لا أستطيع هضم الطعام النظيف. لقد تعودت على طعام السجن الكريه والوسخ. لا ا أستطيع أن أغيره الآن. أحتاج إلى وقت طويل قبل أن أتمرن على الجديد. نظر إلي ساخراً قال, ماذا تقول؟ لا تستطيع أن تأكل القليل من الرز! قلت, لا.. لا أستطيع. سأصاب بالإسهال بعد قليل, وستكون هناك مشكلة. أنا أعرف ماذا أقول.

كانت الحافلة التي تقلنا مملوءة بالركاب. وجوه الناس كئيبة، قاسية, متعبة، مثقلة بالهموم، غائصة في المجهول والحزن. نظراتهم تائهة, كل واحد منهم مغروس في ذاته، في داخله، يجول في ثنايا ثناياه. كنت مستغرباً من هذا الانطواء الغريب لهؤلاء الناس على ليلهم المنهك، تأملهم الملتوي، المنحاز إلى السراب الراحل إلى نهاية لا تنتهي.

لم أر بسمة عجولة على وجه امرأة جميلة أو ضحكة عابرة على محيا شاب في مقتبل العمر, كما لم اسمع صرخة بكاء من طفل صغير يحرك الركود الساكن في المكان.

وحدها شاشة التلفزيون المربوطة بالفيديو تشي لفعل حركي مصطنع.

لأول مرة أسمع الموسيقى والرقص، أرى النساء الجميلات يرقصن ويغنين ويدبكن على صدر هذه الشاشة المعلقة في أعلى الحافلة من الأمام. كما لم أر من قبل هذا النوع من الحافلات الجميلة. كل شيء كان غريباً، مختلفاً أمام ناظري.

ظل القمر طوال الطريق مبتسماً، حنوناً، رؤوفاً بنا متمدداً في قبة السماء، مغموراً بالضوء والأغاني. يبعث نوره الوردي كأجنحة فرح، كنخلة مسترخية، متوجة في عرش الكون. يغرد بإسراف مرمري اللون على تويجات الدهر المنغرسة في جذر الحياة على طول المسافات المفتوحة أمامه. وكان الليل حلو المذاق، أليفاً، معروش الخواطر، مسترسلاً بالهمسات الحلوة.

عبرنا دير الزور وجسورها، الفرات والأشجار المحيطة به. كانت عيني تدرس كل التفاصيل التي نمر عليها. الطريق الأسود الطويل، عرضه، البادية الممتدة خلف النارالصاعدة من أعمدة الغازالصاعدة من باطن الأرض. التغييرات التي طرأت على وطني بعد هذه السنوات الطويلة التي غبت فيها عنه.

الحافلة تشق طريقها في عباب الليل المطمئن، قاطعة المسافات المتوجعة. كلما كنا نقترب من مدينة الحسكة أكثر كلما كان قلبي يدق في صدري أكثر. خائفاً من المفاجأة. أن أرى ما لا تحمد عقباه. لم يكن لدي أية فكرة عن أهلي. خائفاً من لحظات اللقاء الأول والآثارالتي ستتركها عليهم. سألني السائق الكريم, هل تعرف بيتكم, ألم تنسه؟ المدينة توسعت كثيراً, أريد أن أضعك أمام باب البيت. قلت, أعرف البيت. لكني لن أذهب إليه الآن. لأنني لا أعرف أي شيء عن أهلي. من مات؟ من عاش؟ من بقي؟ أخاف أن أرى شيئاً لا أريد ان أراه الآن. قال, كما تريد وترغب. أين تريد أن أضعك يا أخي. أي مكان تريده سأضعك بجانبه. الركاب لن يزعلوا. قلت, ضعني على الطريق العام، بجانب الملعب، وأكمل طريقك.

نزلت من الحافلة وسرت إلى بيت أختي القريب. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً. لم يكن في الشارع أحد من الناس الذين أعرفهم. دخلت باب الحديقة وقرعت الباب. خرجت أختي فاتحة الباب, ونظرت إلي ملياً. رجل عجوز، وزنه لا يتجاوز الأربعين كيلوغرام، يلبس الأسمال البالية وينتعل الشحاطة والبنطال المقطوع. سألتني أختي زوفينار, ماذا تريد يا عم، ما هي حاجتك؟ وقفت مبتسماً, نظرت إليها ملياً وهي تنظر إلي مستغربة. اقتربت أخت زوجها ووقفت بجانب أختي موجهة سؤالها لأختي, ماذا يريد هذا العم العجوز؟ ردت أختي عليها, لا أدري؟ أسأله, لكنه لا يجيب. تدخلت الأخرى وقالت, ماذا تريد يا عم؟ هل تريد خبزاً، حاجة ما يمكننا أن نقدمها لك! وجهت كلامي باتجاه أختي وقلت لها, أنا أخيك, هل نسيت؟ نسيتي شكلي! وقفت مذهولة، وضعت يدها على فمها مستغربة. قالت, أخي، غير معقول. ثم راحت تولول وتقول, لست الذي أعرفه. لقد تغيرت كثيراً. ماذا فعلت بك الأيام يا أخي؟ ثم سقطت على الأرض مغشياً عليها. التم الجيران والناس. لا أعرف من أين جاءت الناس كلها في تلك الساعة. رشوا الماء على وجه أختي التي كانت ترجف من الخوف والقلق والذهول وصدمة المفاجأة. قلت لها, هل أبي وأمي على قيد الحياة؟ أخوتي البنات، أخي. قالت, نعم.. إنهم على قيد الحياة، لا تقلق. إنهم مسافرون. ثم أردفت, لقد تغيرت كثيراً. قلت, هذا قدر، علينا التأقلم معه. طوال الوقت كانت فاغرة فاها، تنظر إلي مستغربة، تغطي فمها بيديها من هول التغير الذي طرأ على شكلي ولوني وملامحي.

امتلأت الناس في البيت وفي الشارع. حدث هرج ومرج. صراخ من هنا وزعيق من هناك. بكاء الأطفال الصغار، المحادثات بين الناس بصوت عالي، دعاء من امرأة، وزغردة من أخرى. كنت أقول

بين الفينة والأخرى, خففوا الصوت أيها الأخوة, صوتكم عال, لا أستطيع سماع الأصوات العالية. سنوات طويلة عشناها في صمت مطلق, إنني متعب, خففوا الصوت العالي قليلاً, الأصوات العالية تتعب أعصابي. رد أحدهم, إننا فرحون بك، بخروجك من السجن بالسلامة. قلت, شكراً لكم من كل قلبي, الفرح أيضاً يتعبني. كنت أخرج الكلمات من حنجرتي بصعوبة بالغة، لارتخاء عضلات الحبال الصوتية, لأن الكلام كان ممنوعاً في ذلك الجب العميق. لذلك لم أستطع التكلم إلا بصعوبة. كانت الكلمات تخرج من فمي كحشرجة مبحوحة الصوت. أنظرإلى الناس باستغراب, لقدرتهم على لملمة العتمة المسدلة بين عينيهم وجفونهم.

عندما اقتربت الساعة من الرابعة صباحاً استأذنت أختي ودخلت لأنام, لكني لم استطع. حاولت مرات كثيرة, تمددت على الفراش, لكن سلطان النوم بقي بعيداً، غائباً. قلت لنفسي, إنها المرة الأولى التي تستلقي فيها على فراش نظيف منذ عدة سنوات دون طماشة، دون رقيب يحسب عليك خطواتك ويعد عليك أنفاسك. حاول أن تنام وتسترحي بعد هذا العناء الطويل. ها, إنك خارج السجن وسط أهلك, لماذا لا تنام، ما الذي يشغل ذهنك وروحك, كل شيء على ما يرام. لكن صوتاً آخر كان يطرق أذني ويمنعني من النوم. لم أكن أعرف هذا الآخر الذي يرشق جفوني باليقظة والأرق. بقيت سهراناً، أمسك حبال الفجر ورداً ليتدلى ويقترب من هضابي وسفوحي. كنت متوتراً، مستفز الأعصاب, قلقاً دون سبب محدد. تقلبت مرات كثيرة على الميمنة والميسرة، على الظهر والبطن، لكن سلطان النوم لم يأت. قلت لأختي سأذهب إلى بيتنا, أريد مفتاح البيت. عندما لفظت اسم البيت أحسست بالرهبة والخوف. راح قلبي يخفق بين ضلوعي بسرعة. مشيت في الشارع المفتوح على نفسه، غارفاً الصمت. الشارع خال من المارة، منتظراً انقشاع الليل المتدحرج إلى الزوال والإنهاك. الحرارة لافحة تكاد تقطع أنفاسي. سرت في الشارع الذي لفني تحت عباءة جناحيه الواسعتين، وحضنني تحت قبة سراجه المضيء فيما مضى من الزمن. راح قلبي يأخذني إلى بيت حبيبتي. وقفت أنظر ملياً إلى الحيطان النائمة على الحيطان، إلى شحوب الصمت. كان قلبي يدق في صدري كإيقاع الأجراس القديمة. قلت, أنا غريب.. غريب. لا أحد يعرفني.. وأنا لا أعرف من أنا؟

تابعت المشي على الأرض الاسفلتية الصلبة, مطأطأ الرأس. مستغرباً من قدرة الناس على دفن أصواتها في حنجرتها وصدرها وروحها. رحت أمشي شارداً، أراقب الطريق الأسود، مستعذباً قافلة الزمن التي أخذتني من جذوري ورحلتني إلى الغياب الطويل. لم أر الحبيبة! قنديل بيتهم كان غارقاً في العتمة. طأطأت رأسي مرة أخرى، مستسلماً، مشيت باتجاه بيتنا الكائن على الصفحة اليمنى من خد الخابور.

تنهدت طويلاً، سرت في لجج الشوارع، أتنفس زغب الشمس النائمة وراء نبيذها الخمري المشرئب. اتدلى كناقوس مضجر في خمرة السكون. مسكون بالأسئلة النائحة النائمة وراء شح الصمت وأرقْ الكلمات. قامتي منكسرة ومنكسة, مخنوقة الصوت.

لاح بيتنا من بعيد، متألقاً بصمته وسط الأشجار. أحسست بالارتباك وضراوة اللهفة التي تأخذني إلى مزالق متعددة.

لم يكن بمقدوري أن أبدد السكون المنتشر في كل مكان. اقتربت من المدخل، صعدت الدرج المضني, وقفت على المصطبة متهامساً مع نفسي على قدرة المكان على تهييج الخواطر ورفع نبرة الآهات الخارجة من الصدر.

طوال القوت كنت حاملاً روحي بيدي.

فتحت الباب بهدوء ودخلت ببطء شديد. كنت خائفاً من نفسي، مستغرباً، متمهل المشية، مغموراً ومخموراً بشهق الأنفاس، مندفعاً بسيل من الاحاسيس المركبة تتداخل في نفسي كنار تلج في خنق خفقان قلبي. عيوني تتأمل الفراغ، تتأمل أغصان الماضي ووشوشاتها. أنظر إلى البيت، الحيطان والصمت في مهابة. ناثراً شحوبي وحزني على الألوان الغائبة. مشيت خطوة إلى الأمام ووقفت منكمشاً، متدفق الخلجات العارمة. أسراب من الأفكار الغريبة تدخل وتخرج من وإلى عقلي وفكري. غمامة من

الوميض الغامض ينهض من بين الأوتار النائمة فوق فلوات الريح داخل داخلي ينتشرعلى شكل شريط من الذكريات والحيرة، يغرقني لينتشلني ثم يحطني في القاع ليدفعني إلى مجريات مختلفة.

غرقت في كومة من الضباب الكثيف، محمولاً على ثوب منثور في الهواء.

كل شيء كان يخلد إلى الصمت، مرتدياً بحة موجعة ملتصقة في أنفاس الجدران وأنفاسي المتقطعة. رحت اشهق وازفر بصعوبة، عائداً إلى الصور, هنا كان يجلس أبي، أمي, هناك أخي، أختي, هنا المدفأة وهناك الكرسي، الطاولة، ركوة القهوة، إبريق الشاي. رائحة الجدران تنطق بإيقاعات الفصول المتبدلة. تبددت تلك الحركة التي كانت تضج بالحياة والحيوية.

أرى وجوه الجميع غائبة، غائمة في غابات الذكرى. دخلت غرفة النوم رأيت كل شيء مرتب ونظيف, رائحة أمي وخواتي وأخي جاءت كغيمة محملة بالأمطار الغزيرة فوق ترانيم المرايا العاكسة لوشوشات الألفة والمودة.

تمددت على السرير الذي رتبته لي والدتي قبل سفرها. صوري، عندما كنت شاباً معلقة على الجدران. كانت في كل ركن وزاوية، على السرير والحيطان. حاولت النوم مرة أخرى لكني لم أستطع. جلست على طرف السرير, فتحت النافذة المطلة على الجنينة الموردة, هبت رائحة طين طري معجون بالماء والهواء الطلق. شممت طراوته الممزوجة برائحة الأعشاب الملتصقة بقطرات الندى. الأشجار كبرت وعمرت، ظلالها معرشة على أطراف بيتنا وبيوت الجيران. كان التراب الحنون يصرخ بعذوبته ورقته، راسماً على صدره لون الماء المنهمر في قلب التراب والأرض. قلبي أخدود عميق متلهف لغرف منحوتات الزمن، أبحث عن معبر يدلني على إيقاف التبعثر في حواسي.

حاولت مرة أخرى أن أنام لكن لم استطع. تمددت على الفراش مرة بعد مرة، لكن عيوني بقيت سهرانة. دخلت غرفة الاستقبال والحمام. لقد غيرت والدتي كل حاجيات البيت، غرفة النوم، الفرش، الكراسي، النوافذ وورق الجدران.

لم تقبل روحي ذلك الخلاء وذلك الصمت, تهزني ملامح أهلي وغيابهم.

نزلت إلى الشارع مرة أخرى وحيداً. ذهبت إلى بيت صديقي ضياء القريب من بيتنا. قرعت باب بيته لكن لا من مجيب. عدت إلى الرصيف المضني، اتدلى كعنقود حطب جاف. مشيت باتجاه نهر الخابورالذي لا يبعد عن بيتنا سوى مئتي متر. سرت في الشوارع الصامتة, أنظر إلى نفسي، إلى الأماكن التي احتضنت بوحي في غابات الوقت المندرسة. سار السكون والهدوء معي موزعاً فضائه على الجنبات. اقتربت من الجسر المنحني، أحسست بالحرارة العالية تلفح وجهي. مددت بصري لأرى الماء، الخابور، الزمن والطفولة والذكريات والفرح.

رأيت ما لم يكن في الحسبان, رأيت أرضاً جافة لا حياة فيها. أرض منكسة الجدايل، حسناء ممزقة الوجه والأنفاس، متكورة، منتهكة الجسد. دمها يسيل على فخديها وساقيها. مرمية تحت نار الشمس الحارقة كجثة متحللة، ميتة تحت قلاع الموت والصمت المخنوق. أرض مضطجعة على نفسها ملفوظة الاحشاء والقلب. أخاديد الأرض منبهقة كالجراح المفتوحة. جسد الخابور ينام فوق الرمال والغبار، على ثغور الجهات الأربعة. قابعاً تحت رماد السنين الثقيلة. قلت بصوت متقطع حزين, رباه أين الخابور، أين الماء، أين الشجر والسمك, أين الجمال والبهاء، أين ذلك الخابورالساحر وألقه وتألقه في المساءات المفرحة، عند المشاوير أو تدويرة الصباحات الرائعة. أين ذهب هذا كله. كيف غرق الخابور ومات. وقفت مذهولاً أنظر إلى الخراب الساكن على طول حدود رؤيتي. قلت, كان الخابور طفلاً، شاباً يافعاً في عمر الصبا والورد, فتنة الوجود، ذرية من خلايا الكون مكنون في هذا السمت المكنون. أين راح، من قتله، من ذبحه، من فرغ حقده في قلبه. أين دفن. إلى أية بقعة من العالم سافرت جثته. أي يد غادرة هتكت عرضه وقلبه وروحه. أعلم أن يد المنون أخذته, ويد الغدرسوحت دمه حتى لا يعيش بين أحضان بلادي وأرضي. لماذا سكتت الناس؟ لماذا لم ينحب عليه أحد، لماذا لم يبكوه، لماذا لم يمشوا في جنازته؟ من هو القاتل؟ هل طعنه في خاصرته أم ظهره أم قلبه؟ أين بقايا جسده وروحه لأصلي عليه واصرخ؟ تلفت حولي كثيراً لعلا هناك خطأ ما أو ضيعت السبيل.

لم يكن هناك ماء على الأطلاق على طول المجرى. أرض جافة تماماً. كأنما لم يكن هذا النهر موجوداً في ضيافة الجزيرة في يوم الأيام. نزلت الدرجات التي تؤدي إلى أرضه. وقفت على ضفة الخابورالتي كانت تضمنا. توقف بصري على الصمت والفراغ, أنظر إلى تباريح الأرض والماء، إلى الخريف الطاغي الذي يزرع أنفاسه في جذور الأرض. وقفت مشدوداً مدهوشاً للقوافل الراحلة. قلت, أين أنت يا عيد الحياة، يا رمزالصور الحلوة، يا باقة البقاء. كنت نجماً من السماء، نيزك مضيء من وهاد الكون, عشت كقامة عالية فوق أرض الجزيرة مئات الآلاف من السنين واليوم رحلت كأنك لم تكن.

يا خابور، يا حبيبة، يا عرش السماء على الأرض، يا كوكباً فوق الكواكب. كنت عرافة الغيوم، سحابة من جمال، عرين الآلهة فوق قطرات الشفق. أين أنت، أين سأخبئ وجدي وحزني بعد اليوم، لمن أحكي وأشكي خيالات بحثي عن ملاذ احتمي به. رحت أمشي داخل المجرى الجاف، أبكي بحرقة ومرارة. أقول, هنا كنا نسبح، هنا نلعب، هنا نركض ونغني ونرقص مع الصبايا قصائد الشوق للحنين. نبث لبعضنا سكرات أيامنا ولياليناـ أين قلبك يا مهاجر؟ هل رحلت إلى كون آخر وربوع بلاد لم تلد؟ مسكت حفنة من ترابه وقلبه ورحت أحضنه وأشمه وأضعه تحت كبدي وقلبي. بكيت طويلاً، بكيت ونحت، حلقت كالبوم فوق شقوقه. وضعت يدي وزندي وساعدي في شقوق مجراه الغائرفي العمق لعلا تبقى منه رائحة ماء، رطوبة أو سحابة عابرة أو ملامح حياة. لعل في قلبه بقايا نبض أو حركة.

كان الخابور تأريخاً ونبضاً ووجداناً, أين ذهب هذا الكائن الجميل، أين رحل، لماذا لم يودعني, لماذا لم يقل إنه مسافر أو مغادر أو راحل أو مريض أو مقبل على الموت.

آه على آه. لو تدري يا نهر الخابور مقدار حزني عليك وعلى نفسي. كانت ماؤك شرايين ينبض في خاصرتي وفؤادي. عندما كنت أحزن أو أتوجع أو تهجرني الحبيبة أعود إليك وأحضن ماءك وترابك واتطهر بك لأنسى النسيان والهم الذي يلاحقني. كنت حبيباً وملاذا آمناً وقلباً يحمل الأسرار.

كانت أرض الخابور قلقة وكنت قلقاً. أنفاسي مضطربة، ضربات قلبي مثل الصاعقة في قلبي. لاح المجرى وادياً فارغاً، متعباً، منهكاً، عابساً غاصاً في الحزن. بقع الجفاف موزعة على شكل أشكال هندسية غير متناسقة، تفسح لضربات الجفاف بالتمدد على طول المكان. تحول حضنه إلى خربة خرابة يحمل في طياته لون الكآبة والضنى.

صار مثل الذبيحة، أشجاره ميتة، زله وصفصافه رماد، أرضه تستنبئ الطوز والعجاج، رياحه رمال مدورة وجسده امرأة مغتصبة.

لم أر طيراً أليفاً أو جارحاً في السماء أو على طول المدى. كأنها هاجرت أو ماتت هي الأخرى.

كنت واقفاً أوساجداً أو راكعاً أعيد رحى الذاكرة والذكرى إلى بصري في ذلك الامتداد الغامض للأرض الجافة. هبت سحابة من الحرارة اللاسعة على شكل موجات دافقة، محملة بالغبارالأحمرالداكن. رأيت نيرون يخرج من بين شقوق الأرض المتيبسة يزغرد ساخراً. قال:

فتكت بالخابور. شربت دمه ودموعه، عينيه وقلبه، شرايينه وأوردته. خلعت عنه الماء والرطوبة والمطر. رملت زوجته، سبيت بناته وقتلت أولاده. لم يبق لي إلا تصحير الأرض والسماء والتراب والروح ليحل الخراب في كل مكان. ثم أردف:

لدي الكثير لأعمله. سأزرع الملح في كل بقعة خضراء. وقال:

أما زلت تحلم بالنجوم والخير والحرية والجمال, ألم تشبع من الخيبات والهزائم. ها هو حلمك يخبو بين يديك، ويموت تحت أفق نظرك, ماذا ستفعل بعد اليوم. قلت:

لا أعرف، لكني سأبدأ من جديد.